مِنَّةُ الْمَنَّانِ
فِي النَّصِيحَةِ لِلْقُرْآنِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ - ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ٢٦١٢٠ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٨- ٦٨-٦٦١٨-٩٧٧-٩٧٨

الناشر

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

٢٣ شارع محمد عبده - خلف الجامع الأزهر - القاهرة

٠٠٢٢٥١١٧٧٤٧

فرع المنصورة: شارع الهادي - عزبة عقل - المنصورة

ت: ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣ - ٠٠٢٠١٠٠٧٧١١٦٦٥

٠٠٢٠١٠٩١٣٧٨٥٨٣

واتس/ ٠٠٢٠١٠٠٧٨٦٨٩٨٣

Dar_Elollaa@hotmail.com

مِنَّةُ الْمَنَّانِ

فِي النَّصِيحَةِ لِلْقُرْآنِ

تأليف

الفقير إلى عفو ربه العزيز

محمد بن هاشم عبد العزيز

عَفَا اللهُ عَنْهُ

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع

المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلىٰ من جعله الله شمسًا أضاءت بها حياتي من ظلمات الجهل، إلىٰ من علَّمني فما كتمني نصيحة، إلىٰ من أكرمني إكرامًا يعجز اللسان عن وصفه، كما يعجز المرء عن الوفاء به أو رَدِّه.

إلىٰ شيخي وأستاذي فضيلة الدكتور/ **محمد سعد قاسم**

مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر

✍ **وأقول له:**

لأيّ جَميلٍ مِن جَميلِكَ أشكُرُ... وأيّ أياديكَ الجليلةِ أذكرُ
أوْلَيتَني من بِرّ فَضْلِكَ أنْعُمًا... غدا كاهلي عن حملها وهوَ موقرُ
سأشكُرُها ما دُمتُ حَيًّا وَإنْ أمُتْ... سأنشرها في موقفي حينَ أنشرُ
وإنّي وَإنْ أُعْطِيتُ في القَوْلِ بَسطَةً... وطاوعني هذا الكلامُ المحبرُ
لأعلمُ أني في الثناءِ مقصرُ... وأنّ الذي أوليتَ أوفىٰ وأوفرُ

***

المقدمة

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الأَرْبَابِ وَمُسَبِّبِ الأَسْبَابِ وَمُنَزِّلِ الْكِتَابِ، حَفِظَ الأَرْضَ بِالْجِبَالِ مِنَ الاضْطِرَابِ، وَقَهَرَ الْجَبَّارِينَ وَأَذَلَّ الصِّعَابَ، وَسَمِعَ خَفِيَّ النُّطْقِ وَمَهْمُوسَ الْخِطَابِ، وَأَبْصَرَ فَلَمْ يَسْتُرْ نَظَرَهُ حِجَابٌ، أَنْزَلَ الْقُرْآنَ يَحُثُّ فِيهِ عَلَىٰ اكْتِسَابِ الثَّوَابِ، وَزَجَرَ عَنْ أَسْبَابِ الْعِقَابِ.

أَحْمَدُهُ عَلَىٰ رَفْعِ الشَّكِّ وَالارْتِيَابِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ سَتْرِ الْخَطَايَا وَالْعَابِ، وَأُقِرُّ لَهُ بِالتَّوْحِيدِ إِقْرَارًا نَافِعًا يَوْمَ الْحِسَابِ، وَأَعْتَرِفُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ لُبَابُ اللبَاب، **أما بعد:**

- فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله علىٰ قلب نبيه محمد ﷺ، ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، ولينقذهم من الكفر والظلم والفجور. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١].

- وقد أنزل الله تعالىٰ هذا القرآن علىٰ قلب نبيه ﷺ، لمقاصدَ عاليةٍ، وحكم سامية، وأغراض شريفة من أهمها:

- أن يكون هذا القرآن هدايةً للإنس وللجن في كل زمان ومكان إلىٰ الصراط المستقيم، وإلىٰ السعادة التي تصبو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأفئدة والقلوب...

- وقد أودع تعالىٰ في هذا الكتاب من العقائد السليمة، والعبادات القويمة، والأحكام الجليلة، والآداب الفاضلة، والعظات البليغة، والتوجيهات الحكيمة... ما به قوام الملة الكاملة، والأمة الفاضلة، والجماعة الراشدة، والفرد السليم في عقيدته وسلوكه وفي كل شئونه.

- فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية، وأوفاها بحاجة البشرية، وأجمعها للخير، وأبقاها علىٰ الدهر، وأعمها وأتمها وأصحها في هدايته الناس إلىٰ ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

قال أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١- ٢].

- كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ هذا القرآن، أن يكون هذا القرآن معجزةً ناطقةً في فم الدنيا بصدقه فيما يبلغه عن ربه.

ولقد جاء النبي ﷺ إلىٰ الناس فدعاهم إلىٰ وحدانية الله، وإلىٰ مكارم

الأخلاق، وقال لهم: معجزتي الدالة علىٰ صدقي هذا القرآن، فإن كنتم في شك من ذلك فأتوا بمثله فعجزوا، فأرخىٰ لهم العنان وتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا، فزاد في إرخاء العنان لهم- وهم أرباب البلاغة والبيان- وتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فأخرسوا وانقلبوا صاغرين!!.

فثبت أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

* قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

- كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله هذا القرآن علىٰ قلب نبيه ﷺ أن يتقرب الناس به إلىٰ خالقهم عن طريق تلاوته، وحفظه، وتدبره، والعمل بتشريعاته وآدابه وتوجيهاته.

ومن هنا جاء هذا السؤال:

إذا كان القرآن كما سبق في السطور الماضية، من أنه كتاب هداية للإنس وللجن في كل زمان ومكان، وأنه كتاب نزل ليتقرب الناس به إلىٰ خالقهم عن طريق تلاوته، وحفظه، وتدبره، والعمل بتشريعاته وآدابه وتوجيهاته، **فما بال كثير من الناس عمومًا، ومن المسلمين خصوصًا لا يدركون هذه المعاني؟**

- وعشت أيامًا وشهورًا بل وسنوات أبحث كيف أنتفع بالقرآن؟ وكيف أتعامل مع القرآن؟

خصوصًا: وأن كثيرًا من الذين يقومون بتعليم القرآن يحرصون علىٰ تعليم حروفه فقط!!

- وفي يوم قرأتُ ما كتبه الشيخ الغزالي رحمه الله في كتابه: **كيف نتعامل مع القرآن؟**

✍ **فقال**: إن المسلمين بعد القرون الأولىٰ، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلىٰ ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمدود وما إلىٰ ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ علىٰ تواتره كما جاءنا أداءً وأحكامًا - أقصد أحكام التلاوة - لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم صنعوا شيئا ربما لم تصنعه الأمم الأخرىٰ، فإنَّ كلمة (قرأت) عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها تعني: أن رسالة جاءته أو كتابًا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه..

أما الأمة الإسلامية، فلا أدري بأي طريقة فَصَلَتْ بين التلاوة وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعي لمغازيها، يُفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف من هذا التصرف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، وذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩]، يعني الوعي والإدراك والتذكر والتدبر..

* **فأين التدبر؟ وأين التذكر؟** مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أيُّ إحساس بالمعنىٰ، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنىٰ القريب لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة علىٰ الإنسانية وقيادتها إلىٰ الخير. انتهىٰ كلام الغزالي رحمه الله.

- وَوَجَدَتْ كَلماتُ الشيخِ بعد فضل الله مكانًا في قلبي، ووقفت أفكر كيف تكون الطريقة المثلىٰ للتعامل مع القرآن؟

* **وزادت دهشتي لما وقفتُ أفكر وأتساءل:**

- أليس الصحابة بشرًا مثلنا؟

- أليس القرآن الذي معنا هو نفسه الذي كان مع الصحابة؟

- أليس القرآن الذي معنا هو الذي صنع منهم هذا الجيل الفريد؟

- أليست العطاءات التي معنا هي التي كانت معهم، من عينين ولسان وشفتين وعقل وقلب وجوارح؟ والجواب علىٰ كل ما سبق، بلىٰ.

* **فما الذي حدث؟**

لماذا لا نرىٰ نماذجَ مثل هذه النماذج؟!!

مع أن القرآن ميسر وجوده بين المسلمين أكثر من أي وقت مضىٰ؟!

فكل بيت من بيوت المسلمين فيه مصحفٌ أو أكثر، وكل بيت فيه ما يوصله لسماع القرآن بسهولة عن طريق محطة إذاعية، أو قناة فضائية، أو غير ذلك.

- وازداد حُفَّاظُ القرآنِ من الرجال والنساء والأطفال في كل مكان، فلماذا لا يُحيينا القرآن كما أحيا جيل الصحابة؟ ولماذا لا يرفعنا كما رفعهم؟ هل فقد القرآن مفعوله؟ أم ماذا حدث؟

* **والجواب**: إننا قد هجرنا القرآن!!

وهنا سيعترض معترض، ويسأل سائل: كيف تقول: هجرنا القرآن!!، وأنت ذكرت أن حفظة القرآن في ازدياد والإذاعات في انتشار و.....؟

* **إن الهجر معناه**: هجر الانتفاع بالقرآن، وعدم الدخول إلىٰ مصنعه وماكيناته التي من شأنها أن تغير الشخص - أي شخص - لتصنع منه مؤمنًا عابدًا لله - ﷻ - في كل أموره وأحواله.

- ومن المناسب هنا أن نذكر أنواع هجر القرآن لتتضح الصورة أكثر لدىٰ القارئ الكريم.

۞ أنواع هجر القرآن والحرج منه :

- **أحدها**: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

- **والثّاني**: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به.

- **والثّالث**: هجر تحكيمه والتّحاكم إليه في أصول الدّين وفروعه، واعتقاد أنّه لا يفيد اليقين وأنّ أدلّته لفظيّة لا تحصّل العلم.

- **والرّابع**: هجر تدبّره وتفهّمه ومعرفة ما أراد المتكلّم به منه.

- **والخامس**: هجر الاستشفاء والتّداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التّداوي به، وكلّ هذا داخل في

قولـــه تعـــالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠]، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض.

- **والسّادس**: الحرج الّذي في الصّدور منه، فإنّه تارة يكون حرجا من إنزاله وكونه حقًّا من عند الله.

وتارة من جهة المتكلّم به أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلّم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها وأنّه لا يكفي العباد، بل هم محتاجون معه إلىٰ المعقولات والأقيسة أو الآراء أو السّياسات.

وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلىٰ تأويلات مستكرهة مشتركة.

وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر أو أوهم أنّها مرادة لضرب من المصلحة.

فكلّ هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم ويجدونه في صدورهم.

ولا تجد مبتدعًا في دينه قطّ إلّا وفي قلبه حرج من الآيات الّتي تخالف بدعته.

كما أنّك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلّا وفي صدره حرج من الآيات الّتي تحول بينه وبين إرادته.

فتدبّر هذا المعنىٰ ثمّ ارض لنفسك بما تشاء. (١)

- وهجر القرآن بدأ من قرون سلفت وانصرمت، حيث اهتم المسلمون ببعض جوانب العلم، وتوسعوا فيها كعلم الكلام والفقه، فوضعوا لها قواعد ثم شروحًا ثم حواشي ثم مختصرات، وكان هذا كله علىٰ حساب القرآن الذي بات لا يُستدعىٰ إلا في المآتم وعند المرض وفي رمضان.....

✍ **يقول الشيخ محمد الغزالي** رحمه الله: هجر المسلمون القرآن إلىٰ الأحاديث.. ثم هجروا الأحاديث إلىٰ أقوال الأئمة.. ثم هجروا أقوال الأئمة إلىٰ أسلوب المقلدين.. وكان تطور الفكر الإسلامي علىٰ هذا النحو وبالًا علىٰ الإسلام وأهله، روىٰ ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم: «يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يُعَلِّقُونَ الْمُصْحَفَ حَتَّىٰ يُعَشِّشَ فِيهِ الْعَنْكَبُوتُ، لَا يُنْتَفَعُ بِمَا فِيهِ، وَتَكُونُ أَعْمَالُ النَّاسِ بِالرِّوَايَاتِ وَالْحَدِيثِ(٢)». (٣)

إذن فما يحدث للقرآن الآن من تعامل شاذ وغريب ما هو إلا نتاج ميراث ورثناه من القرون الماضية، تحول فيها المسلمون عن القرآن بالتدريج حتىٰ صار إلىٰ ما هو عليه الآن.

- إن المتأمل لحالنا يجد أننا قد ابتعدنا في تعاملنا مع القرآن عن الهدف الذي نزل من أجله، وتركناه كمصدر للهداية والتوجيه، ثم بحثنا عن ذلك في

(١) الفوائد لابن القيم: (١٠٧ - ١٠٨).
(٢) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ١٠٢٤).
(٣) فقه السيرة للغزالي: (ص: ٤٥).

مصادرَ أخرىٰ فتشتَّتنا وتفرقنا.

لم نعط القرآن حقه في وقتنا، وعندما نقرأه فبحناجرنا فقط، لم نعطه الفرصة ليُشكِّل تصوراتنا ويُصيغ شخصياتنا ويكون المصدرَ الأولَ لثقافتنا.

يعيب بعضنا علىٰ من لم يحسن أحكام التلاوة بل قد تهتز صورته في عينيه، ولا نوجه أيَّ نصيحةٍ لمن لا يفقه المعاني.

قصرنا فهمنا لحديث رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».(١) علىٰ تعلم قراءته فقط، مع أن المقصد من الحديث غير ذلك.

✍ **يقول ابن تيمية** في بيان المقصد من هذا الحديث: وَلِهَذَا دَخَلَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» تَعْلِيمُ حُرُوفِهِ وَمَعَانِيه جَمِيعًا، بَلْ تَعَلُّمُ مَعَانِيه هُوَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ بِتَعْلِيمِ حُرُوفِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يَزِيدُ الْإِيمَانَ، كَمَا قَالَ جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُمَا: تَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا إيمَانًا، وَإِنَّكُمْ تَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ ثُمَّ تَتَعَلَّمُونَ الْإِيمَانَ. (٢)

- أصبح جُلُّ اهتمامنا حين نقرأ القرآن الوصولَ إلىٰ نهاية السورة دون الاهتمام بتفهم ما نقول، بل قد ينتقل الواحد منا من سورة إلىٰ أخرىٰ دون أن يشعر، وإن سُئلنا عن الآيات التي استوقفتنا فلن نجد جوابا.

- ظن بعضُنا أنَّ مفهوم الانشغال بالقرآن هو الانشغال بحفظ ومراجعة حروفه فقط دون التفقه فيه وفهم مراد الله منه، فانكب علىٰ حفظه آلاف

(١) صحيح البخاري: (٥٠٢٧).
(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ: (٤/ ٤٢٣).

وآلاف..

- تغير مفهوم حامل القرآن لدينا، فتجد الواحد منا كما هو قبل أن يحفظ السورة من القرآن وبعد حفظها، لم يتغير أيُّ شيء من أخلاقه أو تعاملاته.

- ندير مؤشر المذياع علىٰ صوت القارئ ثم نتركه ليملأ جنبات المكان وننشغل عنه بأمورنا الخاصة وكأننا لسنا المخاطبين بهذا القرآن.

فماذا جنينا من وراء هذا التعامل؟

القاصي والداني يدرك ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية من ضياع وتفكك، وذل نتجرع مرارته ليل نهار. أصبحنا في ذيل الأمم.. و صرنا أذل أهل الأرض.. لا قيمة لنا، ولا اعتبار لوجودنا.

الحل والمخرج:

تقوية الرغبة والدافع للانتفاع الحقيقي بالقرآن، والعودة إلىٰ القرآن، وتوجيه القلب نحو أنواره، والتعرف علىٰ قيمته الحقيقية، وكيف أنه قادر - بإذن الله - علىٰ إحياء قلوبنا وتغيير ما بأنفسنا، والتعرف كذلك علىٰ العقبات التي تواجهنا في طريق العودة إليه وكيفية اجتيازها، مع تصحيح المفاهيم الخاطئة التي رسخت في الأذهان عن كيفية التعامل معه.. وكلما ازدادت الثقة في القرآن قويت الرغبة، واشتدت الحاجة، وتولد الدافع القوي للإقبال الصحيح عليه.

- ومن هنا وقفت أمام أسئلة جوهرية، وضعتها كخطة أستطيع من خلالها بعد فضل الله أن أتعرف علىٰ كتاب الله كما ينبغي.

وبحثت كثيرًا عن إجابات لهذه الأسئلة، وفي عدّة سنوات امتنَّ الله واطَّلعْت علىٰ عدَّة كتب وجدت فيها بفضل الله بُغْيَتِي التي أبحث عنها، لكنَّ المشكلةَ التي واجهتني أنني كنت أجد الإجابات متفرقة بين هذه الكتب، واستخرت ربي كثيرًا، واستشرت من أثق في دينهم وعلمهم والله حسيبهم، أن أجمع هذا كلَّه في كتاب واحد أضع له عنوانًا مناسبًا (١)، يسهل به الوصول لهذه الأمور.

وشجعني أهل فضل وخير علىٰ المُضِيّ قُدُمًا تجاه هذا الأمر، ولما بدأت العمل وجدت التيسير بفضل الله، فاطمأن قلبي لما عزمت علىٰ القيام به.

❖ تنبيه:

سيرىٰ القارئ أنني في كثير مما جمعته، لا أكلف نفسي عناء صياغة شيء يحتاجه كتابي، إذا كان غيري قد صاغه الصياغة التي أرضاها، أو التي تقصر عنها صياغتي أصلا. فليس الهدف إلا وجه الله ﷻ، وما سوىٰ ذلك فإنني أرجو أن أتجاوزه. ولم يزل علماؤنا ينقلون في كتبهم الفصول الطويلة،

(١) كنت متحيرًا في اختيار اسم لهذا الكتاب بعد: (منة المنان)، وفي لقاء بيني وبين أستاذي فضيلة الدكتور محمد سعد قاسم قال: في النصيحة للقرآن. فأصبح بعد فضل الله: (منّة المنان في النصيحة للقرآن) انطلاقًا من قول الرسول ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**». صحيح مسلم: (٥٥). وأسأل الله أن تكون هذه الصفحات قضاءً لجزء مما في رقبتي لكتاب الله من نصيحة.

وأحيانا لا ينسبونها إلىٰ أصحابها، معتمدين فكرة أن أي تجديد في علم أو فن تعطي صاحبه حق النقل دون العزو؛ علىٰ أنني لا أفعل ذلك بل أنقل وأعزو؛ وإنما ذكرت هذا من باب الاعتذار.(١)

(١) **واعترافًا بالفضل أقول**: لقد نفعني الله سبحانه بكتب عديدة، ولولا أن الله جعلها سببًا ما كان لهذا الكتاب أن يخرج فجزىٰ الله أصحابها خير الجزاء ومن هذه الكتب:

١- تفسير الشعراوي. ٢- التفسير الوسيط لطنطاوي.
٣- تفسير المنار. ٤- الأساس في التفسير.
٥- أيسر التفاسير للجزائري. ٦- تفسير الكشاف.
وغير ذلك من كتب التفاسير.

كما نفعني الله بهذه الكتب:

١- فقه السيرة. ٢- نحو تفسير موضوعي.
٣- مائة سؤال عن الإسلام. ٤- كيف نتعامل مع القرآن.
٥- سر تأخر العرب والمسلمين ٦- ركائز الإيمان بين العقل والقلب.
٧- جدد حياتك. ٨- المحاور الخمسة للقرآن الكريم.
وكلها للشيخ محمد الغزالي.
٩- تحقيق الوصال بين القلب والقرآن. ١٠- العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف؟
١١- القرآن وعودة المجد. ١٢- بناء الإيمان من خلال القرآن.
١٣- كيف يمكن للقرآن أن ينهض بالأمة؟
١٤-غربة القرآن، وكلها للدكتور مجدي الهلالي.
وغير ذلك من الكتب جزىٰ الله أصحابها خير الجزاء. وأقول هذا: اعترافًا بالفضل وطلبًا لبركة العلم، وكذلك حتىٰ ألقىٰ ربي خفيف الحِمْل.

❁ عملي في هذا الكتاب:

انطلقت مستعينا بالله طالبًا منه العون والمدد والتوفيق وقمت بالآتي:

١ - كانت في ذهني أسئلة رتبتها ترتيبًا منطقيًا وهي كالتالي:

- ما هو القرآن؟ وماهي الحكمة من إنزاله؟

- وإذا كان للقرآن حكمة وهدف، فهل لذلك علاقة بالقلب والعقل؟

- ولو كانت للقرآن علاقة مع القلب والعقل، فهل يؤثر في زيادة الإيمان؟

- وإذا كان القرآن حقيقة يؤثر في زيادة الإيمان فلماذا لم ننتفع بالقرآن؟

- وإذا أردنا الانتفاع بالقرآن فكيف نعود إلىٰ القرآن؟

- ثم ماهي جوانب الهداية في القرآن التي تربط علىٰ قلب العبد؟

- وبعد الوصول إلىٰ جوانب الهداية والاطمئنان إليها كيف يكون القرآن حجة لنا لا علينا؟

- ومن هذه الأسئلة انطلقت مستعينا بالله سبحانه وتعالىٰ، فقسمت الكتاب فصولًا علىٰ حسب هذه الأسئلة، وكل فصل فيه من المباحث ما تصل به الفكرة بفضل الله تعالىٰ.

٢ - عزوت الآيات إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم ذاكرًا اسم السورة ورقم الآية.

٣ - قمت بتخريج الأحاديث، فأذكر من روىٰ الحديث من أئمة هذا الشأن، وإن كان في البخاري ومسلم أو في أحدهما اكتفيت، وإن كان في غيرهما أذكر من رواه وخرجه مستصحبًا ذكر درجة الحديث من صحة أو ضعف أو..... وهذا في الأعم الغالب.

وبعد هذا لا أستطيع أن أدّعي أنني جئت بما لم يأت به أحد وإنما هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالىٰ أن ينفع بهذا الكتاب كاتبَه وقارئَه وناشرَه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخرًا وزادًا في يوم لقياه إنه سميع قريب مجيب.

وأسأل الله أن يجزي عني أساتذتي خير الجزاء، فهم أهل فضل ومنّة.

وأسأل ربي سبحانه وتعالىٰ أن يرحم أمّي الغالية الحبيبة كما ربتني صغيرًا، وأن يمتعها بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، وأن يجمعها مع النبي ﷺ في الجنة.

- كما أسأله سبحانه أن يبارك لي في زوجتي الكريمة (أم نور) وأن يجزيها عنيِّ خير الجزاء.

- وأسأل الله أن يحفظ لي هبته الغالية ابنتي الحبيبة (نور) التي أسأل الله أن ينبتها نباتًا حسنًا، وأن تكون قرة عين لي في الدنيا والآخرة.

كما أسأل الله لها السِّتر في الدنيا والآخرة هي وجميع بنات المسلمين، وأسأل الله برحمته أن يحفظ بلاد المسلمين وأهل الإسلام.

- وكعادتي أقول:

إن هذا العملَ عملٌ بشري يعتريه ما يعتري الإنسان من نقص، وأُشهد الله ﷻ أنّ كل خطإٍ وقعت فيه في كلامي أو في كتاباتي يخالف الصواب والمنهج الصحيح فأنا راجع عنه في حياتي وبعد مماتي.

✍ ولا أجد ما أقول لمن وجد خطأً عندي إلا ما قاله الشاطبي:

أَخِي أَيُّهَا الْمُجْتَازُ نَظْمِي بِبَابِهِ ... يُنَادَىٰ عَلَيْهِ كَاسِدَ السُّوْقِ أَجْمِلا
وَظُنَّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِحْ نَسِيجَهُ ... بِالِاغْضَاءِ وَالْحُسْنَىٰ وَإِنْ كَانَ هَلْهَلا
وَسَلِّمْ لِإِحْدَىٰ الْحُسْنَيَيْنِ إِصَابَةٌ ... وَالْأُخْرَىٰ اجْتِهَادٌ رَامَ صَوْبًا فَأَمْحَلا
وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَأَدَّرِكْهُ بِفَضْلَةٍ ... مِنَ الحِلْمِ وَلْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلا

فدائمًا الإنسان يثبت بشريته، ويأبىٰ الله إلا أن تكون العصمة لكتابه ولرسوله ﷺ.

وأختم قائلاً:

وليس يضرني وقوف أهل المعرفة علىٰ ما لي من التقصير، ومعرفتهم أن باعي في هذا الميدان قصير، فلئن أخطئ فمن الذي عُصِم؟! ولئن أُخَطَّا فمن الذي وُصِمَ؟!

وأعلمُ أن الخطأ والزلل، هما الغالبان علىٰ من خلق الله من عجل، فإن أصبتُ فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأتمثل قول الشاعر:

لقد مضيت وراء الركب ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلًا جبر ما لاقيتُ من عَرَج

فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا... فكم لرب الورىٰ في الناس من فرِجِ
وإن ضللتُ بقفر الأرض منقطعًا... فما علىٰ أعرج في الناس من حَرَجِ

وأسأل أل الله تعالىٰ أن ينفعني وإخواني من طلاب العلم بهذا العمل، وأن يخلص نيتي فيه لوجهه، فإن القلوب بيده وأن لا يجعل لأحد من خلقه فيه نصيبًا وأن ينفعني به يوم ألقاه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]. وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه ببنانه ورضيه بجنانه :
راجي عفو ربّه العزيز
محمد هاشم عبد العزيز
يوم الثلاثاء ٤ ربيع الآخر /١٤٤٠هـ
الموافق ١١ ديسمبر ٢٠١٨م
في مسقط رأسي
الضهرية - شربين - دقهلية
جوال:٠٠٢٠١٠٠٣٠٦٢٠٦٥

***

الفصل الأول

التعريف بالقرآن
والحكمة من إنزاله

المبحث الأول

التعريف بالقرآن الكريم

القرآن الكريم: هو كتاب الله ﷻ المنزل علىٰ خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب في المصاحف من أول سورة «الفاتحة» إلىٰ آخر سورة «الناس».

أحكمه الله فأتقن إحكامه، وفصّله فأحسن تفصيله، وصدق الله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]، لا يتطرق إلىٰ ساحته نقض ولا إبطال.

وصدق العلي العظيم حيث يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢].

وهو المعجزة العظمىٰ، والحجّة البالغة الباقية علىٰ وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا «محمد» صلوات الله وسلامه عليه، تحدىٰ به الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو ببعضه فباءوا بالعجز.

وقد وقع التحدي «بالقرآن» علىٰ مرات متعددة، كي تقوم عليهم الحجة تلو الحجة، وتنقطع المعذرة.

تحداهم أولًا أن يأتوا بمثله فعجزوا وما استطاعوا، قال عز شأنه: ﴿قُل

لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

ثم تحداهم: أن يأتوا بعشر سور مثله، فما قدروا، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ(١) وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٣- ١٤] أي أسلموا، فهو طلب برفق ولين وهو لون من ألوان أدب الخطاب في القرآن.

ثم تحداهم مرة ثالثة: بأن يأتوا بسورة منه، أيّ سورة مهما قصرت، كسورة «الكوثر» فما رفعوا بذلك رأسا، قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: ٣٨- ٣٩].

وهذا الذي ارتضاه جمهور العلماء وارتضيته في ترتيب آيات التحدي هو

(١) هذا من قبيل التنزل مع الخصم، والمساهلة معه في الحجاج، كي يكون الإفحام أدل علىٰ الإعجاز، أي إن كان مفترىً- كما تزعمون- فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، والمراد: المماثلة في الفصاحة والبلاغة وجزالة المعنىٰ وسمو المقاصد والاشتمال علىٰ العلوم والمعارف وليس المراد من الآية أن له مثلًا.

ما يجب أن يصار إليه، ومن العلماء من يجعل آية «يونس» متقدمة علىٰ آية «هود»؛ لتقدم نزول سورة يونس علىٰ نزول سورة هود، فيجعل التحدي بسورة قبل التحدي بعشر سور [١]، والجواب أنه علىٰ فرض تسليم ذلك فلا يمنع من تأخر نزول آية في سورة متقدمة، علىٰ نزول آية في سورة متأخرة، علىٰ أن بعض العلماء يرىٰ تقدم سورة «هود» علىٰ سورة «يونس»؛ وحينئذ يكون ما ذهبنا إليه هو الحق والصواب، وإذا كان مستقبحا في الكلام العادي التحدي بشيء فإذا عجز تحداه بعشرة أمثاله فما بالك بأبلغ الكلام، وأحكمه هذا ما لا يمكن أن يكون في الكتاب المعجز المبين ثم كرر التحدي بسورة ما، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة: ٢٣- ٢٤]. فألقموا حجرًا، ولم يَنْبِسُوا في المعارضة بكلمة...!

وبذلك ثبت إعجاز «القرآن» علىٰ أبلغ وجه وآكده [٢]، وإذا ثبت عجز العرب فغيرهم بالعجز أحرىٰ وأولىٰ. [٣]

***

(١) تفسير البغوي علىٰ هامش تفسير ابن كثير (ج ٤/ ص ٣٤٩). بتصرف يسير.
(٢) لقد فصلت بعض الشيء في الحديث عن إعجاز القرآن في كتابي: (رسائل ربانية في آيات قرآنية)، فليراجع لمن أراد التوسع.
(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم: (ص: ٩)، وما بعدها بتصرف كبير.

حديث القرآن عن القرآن

(أسماؤه وسماته)

وردت في القرآن الكريم صفات وسمات لكتاب الله، وسجلت آياته أوصافًا وخصائص واضحة لهذا الكتاب المعجز، ولاحظت آثاره المباركة الخيرة علىٰ الأفراد والجماعات، وأبرزت مظاهر النقلة البعيدة التي ينتقل إليها المؤمنون الأحياء المبصرون، من خلال تفاعلهم الحي مع القرآن، وحياتهم الطاهرة في ظلاله..

ويجب علينا- ونحن نتلو القرآن ونتدبره- أن نلاحظ هذه الصفات والسمات، وأن نقف طويلًا أمام الآيات التي تعرضها، وأن نعيشها بكامل كياننا وكافة مشاعرنا ودقائق حياتنا..

إن الله سبحانه يريد أن يعرّفنا بكلامه العظيم في كتابه الكريم، وأن نلاحظ الحياة المباركة فيه، وأن نعيش هذه الحياة في ظلاله.. ولذلك عرض لنا طائفةً من أسماء القرآن وصفاته وخصائصه وسماته.. فلنقبل عليها بوعي وتدبر وتفاعل، لنعرف طبيعة هذا القرآن ومهمته ودوره ورسالته.. لأنه لا أحد أعلم بكلام الله من الله سبحانه.. وإنّ تفضّل الله علينا بتعريفنا علىٰ كتابه لهو نعمة سابغة، ورحمة باهرة، علينا أن نقابلها بالتوجه إلىٰ الله سبحانه بالحمد والشكر، والإخلاص، والحب، والإقبال علىٰ كتابه الكريم بالتدبر والتذوق والالتزام والتطبيق، لنعرف طعم الحياة، ونتذوق ألوانها ومظاهرها.

ونقدم فيما يلي طائفة من أسماء القرآن وخصائصه، وسماته وصفاته، وفضائله وآثاره، كما وردت في نصوصه وآياته.

❁ أولاً: القرآن:

هو أشهر هذه الأسماء وأبرزها وأظهرها، وقد خص الله كتابه المنزل علىٰ رسول الله ﷺ بهذا الاسم، حيث لم يطلق علىٰ كتب الله السماوية السابقة.

وأورد الراغبُ في مفرداته قولَ أحدِ العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم. كما أشار إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١].(١)

ولعل في اختيار هذا الاسم الكريم المتميز المتفرد إشارةً بارزةً إلىٰ وجوب تميز وتفرد الأمة الإسلامية الأمينة علىٰ قرآنها وعلىٰ وجودها وعلىٰ البشرية من حولها بحيث لا تأخذ في مناهج حياتها من غير هذا القرآن الكريم.

* **أخبر الله عن بدء نزول القرآن** في شهر رمضان المبارك بقوله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

* **وقال تعالىٰ في وصف القرآن:** ﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص:١]،

(١) المفردات: (٤٠٢).

وقال تعالىٰ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق:١].

* **ووصف القرآن بأنه عربي مبين فقال تعالىٰ:** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗا﴾ [الرعد:٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [طه:١١٣]، وقال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [الشورى:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [الأحقاف:١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ ۝١٠٣﴾ [النحل:١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

* **وقرر الله أن القرآن ميسر للذكر** لمن أراد أن يذكر ويتذكر، ولمن تعامل معه بقلب حي وتأثر بالغ فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ۝٩٧﴾ [مريم:٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدخان:٥٨].

* **وبين الله أنه ضرب في هذا القرآن للناس** من كل مثل لعلهم يتفكرون أو يتذكرون، قال تعالىٰ: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ

﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر:٢١].

* **ولكنهم غفلوا عن هذه الأمثال وأعرضوا عنها**، واختاروا أن يعيشوا في ريبهم وكفرهم يترددون فقال أعزُّ من قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤].

* **وأعلمنا الله أن الكفار لا يحبون سماع هذا القرآن**، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام إذا قرأ القرآن فإن الحاجز السميك، والحجاب الساتر، يرتفع بينه وبين أولئك الكفار، وأن هذا الحجاب الحاجز يتمثل في الأغطية علىٰ القلوب، وفي الصمم في الآذان، فلا تعي ولا تتدبر كلام الله، ولذلك يعرضون عن القارئ لكلام الله، ويولون مدبرين نافرين فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥- ٤٦].

* **ودعانا إلىٰ أن نتهيأ لتلاوة القرآن**، وأن نستعد لها استعدادًا خاصًا، بأن نتوجه إلىٰ الله قبلها، نستعيذ به من الشيطان، لتكون هذه الاستعاذة وسيلةً

لتدبر كلام الله، فقال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

* **وطالبنا الله بالأدب الجم مع القرآن**، عندما نسمع آياتِه تتلىٰ علينا، فلابد من الاستماع لها بكامل كياننا الإنساني، وفرق بين السماع والاستماع، فالسماع وصول الأصوات إلىٰ الأذن، ولكنه قد يكون سماعًا عرضيًا غير مقصود.

أما الاستماع فهو مشاركة الحواس والأجهزة المختلفة في المسلم للأذن، في التفاعل والتدبر والتلقي والانفعال. قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

* **وبيّن أثر القرآن علىٰ الجبال الجوامد لو خاطبها به وتفاعلها معه**، وأبرز مظاهر التأثير والانفعال عليها فقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر:٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد:٣١].

* **ولقد أمرنا الله بتدبر القرآن**(١)، والوقوف طويلًا أمام آياته، وملاحظة إيحاءاتها وتوجيهاتها ومعانيها وحقائقها، ووضع أيدينا علىٰ العلة التي تحول

(١) يقول الدكتور محمود محمد عمارة في مقدمة كتابه: (سائح في رياض القرآن): إذا كان مع القراءة الاستماع، فإن مع التدبر الاستمتاع.

بيننا وبين هذا التدبر، والداء الذي يعوقنا عن القيام به، وذلك حتىٰ نقضي علىٰ تلك العلة، ونزيل ذلك الداء، وهو الأقفال علىٰ القلوب، التي توصدها أمام النور والهدىٰ والخير والحياة، وهذه الأقفال هي الشهوات والمعاصي والإقبال علىٰ الدنيا، وملء القلب من كل ذلك، بحيث لا يبقىٰ فيه متسعٌ لتدبر أو هدىٰ أو إيمان فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

* **وأرشد الله إلىٰ أن نجعل التدبر وسيلة لا غاية**، ولا نقعد عنده ونتشاغل به عن الهدف المنشود، وهو زيادة الإيمان والثقة واليقين بكلام الله، وملاحظة تناسقه وتناسبه وإدراك مهمته وأغراضه، وتلقي حقائقه ومقرراته فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢].

* **وقد ذم الله الكفار الذين قسموا القرآن**، وأطلقوا عليه صفات باطلة ليصدوا الناس عن الإيمان به فقالوا عنه: سحر وشعر وكهانة، وهذا الذم ينصرف علىٰ اليهود والنصارىٰ الذين قسموا كتبهم السماوية أقسامًا، وجزؤها أجزاءً، فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، اتباعًا لشهواتهم وأهوائهم، وأرىٰ أن هذا ينصرف إلىٰ المسلمين الذين يُجَزِّؤُن القرآن ويُقَسِّمُونه، ويأخذون منه جزءًا ويتركون أجزاءً، ويظهرون منه قسمًا ويخفون أقسامًا، ويؤمنون بموضوع منه ويكفرون بموضوعات... قال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الحجر:٩٠-٩١]. وعضين أي مفرقًا، حيث قالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين إلىٰ غير

ذلك مما وصفوه به.(١)

* **وسجل القرآن الكريم شكوىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ ربه**، من الكفار وإعراضهم عن القرآن وهجرهم له. فقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان:٣٠].

* **بل سجل القرآن أسلوبًا من أساليب الكفار في مواجهتهم لهذا القرآن**، ومحاربتهم له، وبذلهم كل ما في وسعهم من طاقة لطمس نوره والقضاء عليه.....وهيهات هيهات.

إنهم يلجأون إلىٰ وسيلة خسيسة تنبئ عن هزيمتهم الداخلية أمام القرآن، واضطرابهم النفسي أمام حقائقه، واعترافهم الضمني الملحوظ، بعجزهم عن مواجهته، وفشلهم في محاربته.... إنهم يطلبون من الجماهير المخدوعة المستغفلة أن لا تسمع لهذا القرآن، لأنها إن استمعت بكيانها كله آمنت به، وأن تستعيض عن ذلك باللغو والصياح والضجيج، والتظاهرة الإعلامية ورفع الأصوات اللاغية، والمكاء والصفير، والتصدية والتصفيق.... لعلهم يغلبون هذا الحق ويطمسون هذا النور، ويغطون نور الشمس برقعة منديل. قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت:٢٦].

---

(١) المفردات: (٢٣٨).

۞ ثانيًا: الكتاب:

وهو الاسم الثاني للقرآن الكريم، وقد ذكر كثيرًا في آياته، وتردد كثيرًا في سوره، وهو يلي القرآن في الشهرة وكثرة الذكر، والقرآن كتاب باعتباره مكتوبًا، مضمومة حروفه وكلماته وآياته عن طريق الخط والكتابة....

ماذا تعلمنا كلمة الكتاب؟

- إن كلمة الكتاب التي وصف الله سبحانه وتعالىٰ بها القرآن تمييزًا له عن كل الكتب السابقة، تلفتنا إلىٰ معان كثيرة، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التي جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها وهي كالآتي:

أ- نزول هذا الكتاب، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالىٰ، واقرأ في سورة الكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١- ٢].

ب- لو لم ينزل الله سبحانه وتعالىٰ الكتاب، ما عرف الناس المنهج الذي يقودهم إلىٰ الجنة، وما استحق أحد منهم رضا الله ونعيمه في الآخرة.

ج- أول ما جاء به هذا الكتاب أن الله واحد أحد، لا إله إلا الله، ولا شريك له، والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ - ٣].

د- الكتاب وهو القرآن يشتمل علىٰ كل ما تضمنته الشرائع السماوية من توراة وإنجيل، وغيرها من الكتب قال تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا

لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[آل عمران: ٣- ٤].

هـ - كتاب الله القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة، واقرأ قوله جل جلاله: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الكهف:٢٧].

ز- هذا الكتاب، جاء لنفع الناس، ولنفع العباد، والله ليس محتاجًا لخلقه، فهو قادر علىٰ أن يقهر من يشاء علىٰ الطاعة، ولا يمكن لخلق من خلق الله أن يخرج من كون الله عن مرادات الله، واقرأ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١ - ٤].

ح- مهمتنا أن نبلغ هذا الكتاب للناس جميعًا، قال سبحانه: ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١ - ٢]، فالله يخاطب رسوله ﷺ(١) بأن يقوم بهذا التبيان والبلاغ والإنذار للناس، وأن لا يدع للحرج أو الضيق مجالًا ينفذ منه إلىٰ صدره، لأنه يعوقه عن أداء هذا الواجب، فلا حرج فيه وإن خالف ما عليه الناس، وإن فاجأهم بما لا يتوقعونه!!

(١) الخطاب هنا لرسول الله ﷺ، وكل خطاب لرسول الله ﷺ في القرآن الكريم، يتضمن خطابا لأمته جميعًا.

ولماذا يتحرج الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو لا يتلقىٰ الحقائق والقيم والأعراف والموازين والمبادئ والتوجيهات من الناس، إنما يتلقىٰ كل ذلك من رب الناس، ويكفيه أن الله يشهد له، ويكون معه، وينصره ويثبته، ويأجره علىٰ فعله، قال أعزُّ من قال: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ١- ٢].

ط- الكتاب فيه رد علىٰ حجج الكفار وأباطيلهم، واقرأ قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾[يونس: ١- ٢].

ي- هذا الكتاب محكم الآيات، وبينه الله لعباده، واقرأ قوله جل جلاله في سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود: ١- ٢].

ك- هذا الكتاب فيه قصص الأنبياء السابقين منذ آدم عليه السلام، يقول جل جلاله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ١ - ٣].

ل - الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالىٰ فيه لفتة الىٰ آيات الله في كونه، واقرأ قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى

ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد: ١-٢].

م- مهمة هذا الكتاب أنه رحمة للناس جميعًا، وأنه يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك إلي نور الإيمان، ولقد خاطب الله رسوله ﷺ بأنه أنزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، من ظلمات الكفر التي تحيط بكل كافر مشرك فتجعله يرىٰ الآيات فلا يبصرها، إلىٰ نور الإيمان، وكتاب الله هو الوسيلة الوحيدة لهذا الإخراج، وأية وسيلة أخرىٰ غيره إنما هي أوهام وظنون وتخرصات، ولا تنتج إلّا مزيدا من الظلمات، وفي هذا يقول أعزُّ من قال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ١- ٢] .

ن- يخبرنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتمني، ولكن لابد أن يعمل بها، وأن الذين كفروا في تمتعهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب في أن النعيم في الدنيا فقط، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون، يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الحجر: ١ - ٣].

۞ الحِكَمُ من التسمية بهذين الاسمين القرآن والكتاب:

أولاً: يلاحظ معنى الضم والجمع:

فإن القرآن مشتق من القراءة، والقراءة كما يقول الراغب في مفرداته: هي ضم الحروف والكلمات بعضها إلىٰ بعض في الترتيل.(١)

والكتاب مشتق من الكتابة وهي كما يقول الراغب أيضًا: ضم الحروف بعضها إلىٰ بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلىٰ بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلىٰ بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النظم بالخط، لكن يستعار كل واحد للآخر، ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتابًا.(٢)

ونحن نرىٰ كلماتِ وآياتِ القرآن مضمومةً إلىٰ بعضها ضمًا متناسقًا متماسكًا معجزًا، وكل من قرأ في القرآن وسمع آيات منه، أو كتب ألفاظًا وكلمات منه يلحظ معنىٰ الضم في كل ذلك....

ثانيًا: يتحقق الجمع والتوثيق:

هذه هي الحكمة الثانية من التسمية بهذين الاسمين القرآن، والكتاب، وقد أورد هذه الحكمة العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه القيم: (النبأ العظيم).

وخلاصتها: أن الله أراد من هذين الاسمين أن يتحقق الجمع والتوثيق

---

(١) المفردات: (٤٠٢).

(٢) المفردات: (٤٢٣).

لكلامه، وأن يوجد الحفظ التام المطلق لكل سوره وآياته وكلماته وحروفه، وأن لا يرد علىٰ النفس المسلمة احتمال ولو يسيرا عن تعرض شيء منها للتحريف أو الضياع أو النقصان.

ولذلك تم حفظ القرآن بوسيلتين عمليتين، هما القمة في وسائل الحفظ والتوثيق: وسيلة القراءة، ووسيلة الكتابة: «فلا يقبل القرآن المقروء ما لم يعرض علىٰ المصحف العثماني المكتوب ويتفق معه، ولا يقبل المكتوب ما لم يتفق مع تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه للقرآن، وإقرائهم له وقراءته له أمامهم».(١)

- **هذا الكتاب الذي أنزله الله هو حق لا ريب فيه**، وهو هدىٰ للمتقين، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١- ٢].

- **وهذا الكتاب كتاب حكيم، كما أنه قرآن حكيم وذكر حكيم**، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران:٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس:١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٣- ٤].

- وقد تلقىٰ الرسول آياته من لدن حكيم عليم فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى

(١) انظر النبأ العظيم: (٧-٩).

ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾ [النمل:٦].

- وأحكمت آياته ثم فصلت ووضحت وبينت من لدن حكيم خبير، وقدمت للناس ليؤمنوا بها قال تعالىٰ: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١].

❁ لماذا سمي الكتاب باسم من أسماء الله وهو الحكيم؟

- إن الله من أسمائه الحكيم، والكتاب وصفه الله بأنه حكيم فقال تعالىٰ: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ [يونس:١] فما الحكمة من ذلك؟

يجيب علىٰ هذا السؤال فضيلة الشيخ الشعراوي فيقول: ولقائل أن يقول: وما معنىٰ قول الحق: ﴿ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب؟

ونقول: إن معنىٰ ﴿ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ أنه الكتاب الذي يمتلئ بالحكمة الصادرة من الله، أو الكتاب الذي أنزله الرب الحكيم.

وكلمة «حكيم» علىٰ وزن «فعيل»، ومثلها مثل «كريم» و «رحيم» وتأتي مرة بصيغة فاعل، ومرة بصيغة فعيل، وموضعها هو الذي يبين لنا ذلك.

ومعنىٰ كلمة ﴿ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ يتضح لنا من سياقها: فإن نسبت الأمر إلىٰ الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه، وإن أردت الوصف بمعنىٰ فاعل فهو من حاكم؛ والحاكم هو الذي يحكم في قضايا؛ ليبين وجه الحق فيها، والقرآن يحكم في كل قضايا الإيمان.

وقمة العقيدة التي يحكم فيها القرآن هي لا إله إلا الله. ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم، وسبحانه القائل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

والقرآن يحسم هذه القضايا، وهو كحاكم فاصل فيها.

فإن قلت: «محكم» تكون قد نسبته لله، وإن قلت: «حاكم» فهو الفاعل وهو يحكم في قمة العقيدة «لا إله إلا الله»، وهي شهادة ذات لذات، وشهادة مشهد من الملائكة، وشهادة أدلة من الخلق: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ...﴾ [آل عمران:١٨].

وساعة يفصل القرآن في هذه القضية، فهو يحكم حكمًا عدلًا يبين وجه الحق في قمة العقائد. وهو حاكم في الأفعال؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حدًّا فاصلًا في الأحكام بين الحلال والحرام. وحاكم في الأخلاق.

إذن: «حاكم» تعني ما بين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة.

و «حكيم»: إما أن تكون بمعنىٰ «فاعل» وإما أن تكون بمعنىٰ (مفعول) ووقعت الحكمة من قائله عليه، فصار «محكمًا»، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنىٰ فاعل تكون بمعنىٰ «حاكم» وكلمة حاكم تدل علىٰ أن هناك فريقين: فريق يقول قضية، وفريق آخر يناقضه، فيأتي الحاكم؛ ليفصل بين الأمرين، وليعدل وينصف.

وقد جاء القرآن هكذا: حاكمًا في أمر القمة التي اختلف الخلق فيها؛

فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة.

ومنهم من قال: إن الإله هو غير الله، ومنهم من قال: الإله شريك لغيره، فجاء القرآن؛ ليفصل في هذه المسألة، وحكم فيها حكمًا واضحًا، وبيِّن: يا من تقولون: لا إله؛ أنتم كذابون، ويا من تقولون: إن الإله غير الله؛ أنتم كذابون، ويا من تقولون: إن الإله له شركاء مع الله؛ أنتم كذابون، بل هو إله واحد، وهذا أول حكم في قضية القمة.

وما دام الحكم في قضية القمة قد صح؛ إذن: فالاستقبال للمنهج سيكون واحدًا، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك، أو يناقضه، بل هو إله واحد، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة في التكاليف للناس جميعًا، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلىٰ مراده هو سبحانه، ويكون القرآن حاكمًا أيضًا في الأفعال، فقد يختلف الناس في تقييمهم لفعل واحد. فهذا يقول فعل حسن، وآخر يقول: فعل قبيح، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن؛ فيأمر به؛ ويحدد الفعل القبيح؛ فينهي عنه، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام.

إذن: فالقرآن حكم في العقائد وفي الأفعال وفي ذوات الأشياء حلًّا وحُرْمة، وهو يحكم أيضًا في قضية هامة تلي قضية الحكم في قمة العقيدة، وهي صدق البلاغ عن الله، فهذا الرسول الذي يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقًا، وقد جاء القرآن بالحكم في هذه القضية بمعنىٰ أنه قد جاء معجزًا، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول.

فإن عجزتم؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده، بل من

عند خالقه وخالقكم.

وسواء أكانت «حكيم» بمعنىٰ «فاعل» أم بمعنىٰ «مفعول» فقد دلتنا علىٰ أنها تعني وضع الأشياء في نصابها وضعًا يحقق النفع منها دائمًا، ولا ينتج عنها ضارًا أبدًا. انتهىٰ كلامه رحمه الله.

* ولقد أعلم الله رسوله **أنه أنزل إليه الذكر والكتاب تبيانًا لكل شيء وتفصيلًا له**، وهو بهذا التبيان هدىٰ ورحمة وبشرىٰ للمسلمين، فقال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

بل قصر الله مهمة الكتاب الكريم علىٰ هذا البيان، وحصرها به، وطالب رسوله عليه الصلاة والسلام بالقيام بذلك وتبليغه وأدائه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل:٦٤].

وورود ثلاث آيات كريمة في سورة واحدة- هي سورة النحل- تحدد مهمة هذا الكتاب وتقصرها علىٰ البيان والتبيان، وتطالب الرسول عليه السلام بذلك، ذو دلالة خاصة علىٰ هذا، ويشير إلىٰ تفرد سورة النحل بذلك - وهي سورة النعم وأية نعمة أعظم من نعمة التبيان والبيان من خلال القرآن.

كما نشير إلىٰ صياغة الآيات الكريمة، حيث جعلت التبيان القرآني عاما للناس جميعًا، وخصصت ما فيه من رحمة وهدىٰ وبشرىٰ للمسلمين فقط،

لأن هذه الثلاثة مرتبطة بالإيمان الإسلامي ومبنية عليه، ولا توجد عند فقده.

* **ويخبر الله سبحانه رسوله عليه الصلاة والسلام**، بوظيفة هذا الكتاب المنزل عليه، الوظيفة التي تجعل له وجودًا ومهمة، والتي تبرز من خلالها الحياة فيه، وتظهر آثاره، وتجني ثماره، تلك هي الحكم بين الناس بالحق.. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء:١٠٥].

هذا وبيّن لنا الله الوسيلة التي تضمن لهذا الكتاب الحق أن يحقق وجوده عمليا، وأن يحق الحق ويبطل الباطل، وأن يقود الناس إلىٰ الحق، تلك الوسيلة هي القوة المادية التي تحرسه وتحميه، والتي تهيّئ له الناصر البشري الذي يطبقه وينفذ أحكامه، وبدون هذه القوة يبقىٰ حقًا نظريًا مقيدًا عن العمل في الواقع، ويتحول إلىٰ حق مضيع، يعدو عليه كل جبان، وينتقصه كل ضعيف، ويعوي عليه كل نابح!!.

قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد:٢٥].

وقد أشار القرآن إلىٰ وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام في تعليم الأمة كتاب الله، فسجل دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بذلك منذ زمن بعيد، حيث دعوا الله أن يبعث للبشرية خيرًا وطهرًا ونورًا وهداية، قال تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة:١٢٩]، وأخبرنا الله أنه استجاب دعوة النبيين الصالحين عليهما الصلاة والسلام فقال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة:١٥١].

وقال تعالىٰ مظهرًا المنة الربانية العظمىٰ علينا ببعثة النبي ﷺ، وإخراجه هذه الأمة بإذن ربها من الظلمات إلىٰ النور، ومن الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الموت إلىٰ الحياة: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وتتحدث آية من سورة الجمعة عن نفس الموضوع، حديثًا يتناسق مع موضوع السورة وشخصيتها المستقلة، فتقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة:٢].

ونلاحظ في صياغة الآيات الثلاث أمرًا لافتًا للنظر، وذا دلالة تربوية عميقة، وكأني بهذه الآيات الثلاث تشير إلىٰ منهج تربوي راشد ناجح، وتدعو المخططين والموجهين والمربين في عالمنا اليوم، وواضعي الخطط والمناهج التربوية والكتب التعليمية إلىٰ ملاحظة هذه الإشارة القرآنية واللفتة التعليمية فيها.. تلك هي ترتيب المهمة التربوية التعليمية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، والعطف علىٰ وسائلها بالواو، وتقديم الأساس علىٰ

البناء، والتمهيد علىٰ الموضوع، والبذرة والشجرة علىٰ الثمرة والجني، والمقدمة علىٰ النتيجة، نأخذ كل هذا من عطف الأفعال المضارعة في قوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ .... وَيُزَكِّيهِمْ ... وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:٢].

*** إنها مراحل ثلاث متدرجة متتابعة مرتبة:**

١- تلاوة القرآن كتمهيد وتخلية واستعداد وتهيئة.

٢- ثم تزكية النفوس وتطهيرها من أمراضها وأدرانها ونقائصها ورذائلها.

٣- وأخيرًا تأتي عملية التعليم لهذه النفوس بعد ما استعدت وتهيأت، وبعد ما تطهرت وزكت.. وبعد ما أشرقت واستنارت، تأتي عملية التعليم ثمرة مباركة لشجرة الإيمان والتزكية، ونتيجة معطاءة لمقدمات مدروسة صحيحة، وهدىٰ ورحمة وخيرًا وسعادة للمتعلمين، ولأمتهم وللإنسانية من حولهم.

وقد وصف الله كتابه بصفة البركة، ووسمه بهذه السمة، ودعانا إلىٰ تلمس مظاهر هذه الصفة، والوقوف علىٰ ألوان البركة القرآنية الشاملة العامة، ولا أعني بها البركة بمفهومها المنتشر عند المسلمين اليوم من الخير والعطاء والزيادة في الأجر والثواب، لا أعني هذا فقط- كما أنني لا أنفيه من القرآن، فهو مبارك بهذا المفهوم.

*** وإنما أعني بها البركة في المفهوم القرآني**: وهي- كما قال العلامة الراغب الأصفهاني في كتابه الفريد المفردات- «والبركة ثبوت الخير الإلهي

في الشيء، وسُميَ بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك ما فيه ذلك الخير، ومن ذلك ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٥٠]. تنبيهًا علىٰ ما يفيض عليه من الخيرات الالهية..» إلىٰ أن يقول: «ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس، وعلىٰ وجه لا يحصىٰ ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة..».(١)

فكتاب الله الكريم مبارك بكل صور البركة وألوانها، وتتجلىٰ فيه كل مظاهر البركة وآفاقها، وأصولها وفروعها، قال تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام:٩٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٥٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص:٢٩].

ونلاحظ في القرآن آية كريمة قسمت المسلمين في تعاملهم مع كتاب الله أقساما ثلاثة، فهم قد ورثوا كتاب الله، ولكنهم ليسوا علىٰ مستوىٰ واحد في هذه الوراثة، ولا علىٰ درجة واحدة في الاعتناء بهذا الموروث الكريم، والكنز العتيق، والبركة الغامرة.

*** فانقسموا أقسامًا ثلاثة:**

---

(١) المفردات: (٤٤).

- **الأول**: الذي ظلم نفسه في التعامل مع كتاب الله وتطبيقه، فقصر في الواجبات وارتكب المحرمات.

- **الثاني**: المقتصد وهو الذي لا يريد أن تزيد طاعاته علىٰ معاصيه ولا العكس.

- **الثالث**: الفائز الناجح، وهو السابق بالخيرات، والمستزيد من الطاعات، والمكثر من الحسنات قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر:٣٢].

ثالثًا: الذكر:

قال تعالىٰ: ﴿ صَ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [ص:١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل:٤٤].

وفي القرآن الذكر المجيد لهذه الأمة، فقد كانت قبل هذا القرآن نكرة من النكرات، تعيش وتموت ولا يحس بها أحد إن عاشت أو ماتت.. ثم أعلىٰ القرآن ذكرها، وبوأها مكانتها، وأسلمها قيادة البشرية، وجعلها قائدة ورائدة، وفي مركز الأستاذية والوصاية والرعاية.. ولا ذكر لهذه الأمة إلّا بالتزام الذكر الرباني، والانطلاق به والظهور من خلاله. هذا أو العودة إلىٰ زوايا النسيان وعالم النكرات، وذيل القافلة وسقط المتاع.. قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

- وهذا الذكر المبارك لا يستفيد منه إلّا من كان صاحب قلب حي متفاعل(١)، فيمتزج الذكر الرباني مع القلب الإيماني، وتسري الحياة مع

(١) إن الناس انقسموا في انتفاعهم بالوحي إلىٰ أقسام ثلاثة:

الصنف الأول: هم الذين لم ينتفعوا بالكلية وهم الكفار الذين ردُّوا وحي السماء جملة وتفصيلًا، وقد ذكرهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩] فهم لا يستفيدون من الآيات الشرعية ولا من الآيات الكونية.

الصنف الثاني: من انتفعوا انتفاعًا جزئيا: وهم من حرموا من هداية الوحي من بعض الوجوه دون بعض، بمعنىٰ أنهم مسلمون في الجملة، لكنَّ عندهم مانعًا حال بينهم وبين الانتفاع بنصوص الوحي كما ينبغي، ولو في جانب من الجوانب، وهؤلاء أنواع من الناس.

١- أهل الأهواء والبدع الذين استقرت في نفوسهم البدعة والهوىٰ، وصاروا يقرءون في القرآن والحديث ليبحثوا عما يؤيد بدعتهم، ويلتمسوا منها ما يناسبهم في ذلك، وهؤلاء فيهم شبه كبير من الصنف الأول في عدم استفادتهم من الوحي.

٢- الذين حرموا من هداية القرآن والسنة في كثير من جوانب حياتهم: وهؤلاء هم الذين انصرفوا عن تعلم الدين واشتغلوا بالدنيا عن الآخرة، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة من سيما الكفار، قال الله ﷻ في وصف الكافرين: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم:٢-٣]، وقال سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلىٰ:١٦-١٧]، وقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا =

=

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود:١٥-١٦] والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا.

فالذي يُؤْثِرُ الدنيا ويتعب من أجلها، ويغفل عن تعلم علم الشرع الذي لا بد له منه، قد حرم من كثير من هداية الوحي ونصوصه، وهو عبد لهذا الشيء الذي شغل نفسه في طلبه؛ كما في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَالدِّرْهَمِ، وَالقَطِيفَةِ، وَالخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**». وفي لفظ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**».

الصنف الثالث: أهل التقليد: الذين حرموا من الانتفاع بالوحي، الذين يقدمون آراء الرجال وأقوالهم علىٰ كلام الباري جل وعلا وعلىٰ كلام المصطفىٰ المختار ﷺ، وهم بذلك يخالفون قول الله وقول رسوله ﷺ، وقول الأئمة الذين قلدوهم.

فأما مخالفتهم لقول الله فإن الله تبارك وتعالىٰ أمر بطاعته، وطاعة رسوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٩٢]، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف:٣]، ونعىٰ سبحانه علىٰ أهل الكتاب طاعتهم للأحبار والرهبان في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة:٣١] وتفسيرها الذي لا إشكال فيه؛ هو ما فسرها به النبي ﷺ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «**يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ**»، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». انظر: المعجم الكبير

=

القرآن إلىٰ القلب فتحييه.. وتظهر سمات الحياة القرآنية علىٰ الجوارح، وتلحظ علىٰ السلوك، وتكون ثمارًا يانعة خيرة في الواقع المعاش، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩- ٧٠].

رابعًا: الروح:

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، ونأخذ هذه الآية علىٰ حقيقتها، ونأخذ هذه السمة القرآنية علىٰ ظاهرها، فإنه روح(١) وإنه حي وإنه حياة، والإنسان يكون ميتًا بين الأموات، يكون ميت القلب، والإحساس والشعور، ثم يتفاعل مع الروح القرآني المحيي، ويفتح لهذه الروح قلبه وأحاسيسه وكيانه فتدب في هذا القلب الحياة، وتنعكس علىٰ الظاهر في الحياة.. وصدق الله القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢].

=

للطبراني (٢١٨). وانظر السلسلة الصحيحة: (٣٢٩٣).

(١) سيأتي معنا بأمر الله تعالىٰ التفصيل في بيان أن: (القرآن روح القلوب وقوتها).

خامسًا: النور:

القرآن نور يشرق في قلب المؤمن فيزهر بالإيمان، ويشرق في حياته فينيرها له، ويشرق في سماء الأمة فيكون ضياء وسعادة وهدىٰ وخيرًا، ويشرق في البشرية فتعرف مواقعها وتهتدي إلىٰ طريقها- إن أرادت سواء السبيل- قال تعالىٰ: [﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥- ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن:٨].

سادسًا: الفرقان:

به يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدىٰ والضلال، وبين النور والظلمات، ففيه وحده الحق والهدىٰ والنور، ونقيضه وضده هو باطل وضلال وظلام، قال تعالىٰ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٣- ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان:١].

سابعًا: البرهان:

فهو برهان من الله لعباده(١)، أقام به الحجة عليهم، وأظهر من خلاله أوضح الدلالات وأقواها، علىٰ موضوعاته ومعانيه وحقائقه، في العقيدة والحياة.. وكل من تعامل مع أدلة القرآن في يسرها ووضوحها وتفاعل القلب والعقل معها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يدرك طرفًا من البرهان القرآني ويسره ووضوحه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥].

ثامنًا: القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين:

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

إنه موعظة من الله، وهل هناك أبلغ من الموعظة الربانية؟ وأيسر منها؟ وأكثر منها نفاذًا إلىٰ القلب والضمير؟

إن مواعظ البشر مهما سمت في البلاغة والتأثير، عاجزة عن أن تقارب الموعظة القرآنية أو تدانيها، ولو أقبل الدعاة والوعاظ علىٰ الموعظة القرآنية

---

(١) سيظهر ذلك بوضوح عند الحديث عن دور القرآن في زيادة الإيمان، وكيف أنه برهان واضح في الحديث عن الإيمان بالغيب، والإيمان بالله الواحد الأحد، كما يظهر ذلك أيضًا في الحديث عن جوانب الهداية في القرآن.

وخاطبوا المسلمين بها، لتغلغل الكلام في قلوبهم، وتأثرت به أعمالهم، وصلحت به حياتهم.. وأي قلب لم تنفعه الموعظة القرآنية فهو ميت لا ينفعه شيء آخر.(١)

(١) **مما يجب التنبيه عليه في قضية الوعظ:**

أن بعض المتحدثين والخطباء يريدون وعظ الناس بعيدًا عن كلام الله سبحانه وتعالىٰ، ولسان حالهم يقول: نريد أن نواكب التطور والحداثة والواقع، ويستعينون بكلام الفلاسفة وغيرهم حتىٰ يكون للكلام أثر كما يظنون!!. وهذا فهم مغلوط، وتحقير لما عظمه الله سبحانه وتعالىٰ.

- ومن تدبر القرآن الكريم يجد أن الله سبحانه وتعالىٰ أمرنا بالدعوة إليه بكتابه الكريم فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا ۚ﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه:٢]، فالسعادة في القرآن، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر:٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق: ٢٠- ٢١] وكأنَّ الأصلَ السجود أمام عظمة القرآن.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢] وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:٥٢]، ولما ذهب عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ، كل ما فعله الرسول ﷺ أنه قرأ عليه القرآن.

- من هنا أهمس في أذن كل متحدث وخطيب، عليك بكلام الله سبحانه وتعالىٰ لأن أعلىٰ المواعظ في كتاب الله قال تعالىٰ: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا =

والموعظة القرآنية تولد الشفاء للصدور، والقضاء علىٰ ما في هذه الصدور من أمراض وأدناس وأرجاس، ليعود لها نورها، وتعمل فيها فطرتها المؤمنة التي فطر الله الناس عليها، والقرآن قادر بإذن الله علىٰ أن يشفيَ الصدور والقلوب من مختلف أمراضها المادية والنفسية، أمراض الشبهات والشهوات، وأمراض الهوىٰ والانحراف، وأمراض الشك والشرك، وأمراض القلوب والنفوس والجوارح والحواس، وأمراض السياسة والاقتصاد والأخلاق والاجتماع والحياة والحضارة.. بهذا المفهوم الموسع الشامل يجب أن ننظر للشفاء القرآني، وأن نتناوله بهذه السعة والإحاطة، لا

= سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور:٣٤] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠]. فمن أراد أن يكون واعظًا حقًّا فعليه بكتاب الله سبحانه وتعالىٰ وسنة رسوله ﷺ ففيهما العصمة من الزلل والزيغ.

ومن خلال حياتي وخدمتي لكتاب الله وحديثي علىٰ المنابر بفضل الله رب العالمين، لم أجد شيئًا له وقع علىٰ الناس والنفوس مثل كلام الملك سبحانه وتعالىٰ، وصدق من قال: كلام الملك ملك الكلام.

أن نقصره على آلام الرأس والسن والبطن، أو نحوله إلى تعاويذ وتمائم ورقى وحجب، فنمسخه ونقزمه ونفرغه من هذا المعنى الشامل الواسع، وصدق الله ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء:٨٢].

ومما يلفت النظر في الآية أنها جعلت الموعظة القرآنية والشفاء القرآني للناس جميعا، بينما خصصت الهدى والرحمة بالمؤمنين، وقصرتهما عليهم، مما يجعل الإيمان شرطا للهدى والرحمة.

تاسعًا: والقرآن بصائر تهدي:

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية:٢٠].

وهذه البصائر القرآنية الربانية الهادية موجهة للناس جميعا، ولكن هذه البصائر لا تدركها إلّا القلوب الحية، حيث تعيها وتتفاعل معها وترشد بها، وتهتدي على أساسها.

إن الأجسام لها العيون التي تبصر بها، وإن القلوب لها البصائر التي تهتدي بها، فالأبصار للأجساد والبصائر للقلوب، وإذا ما تعطلت أبصار الأبدان فقد يعيش الإنسان بدونها، ولكن إذا تعطلت بصائر القلوب فإنها تموت، ولا يبقى فيها نفع أو خير، وصدق الله القائل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن

﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

وهذه البصائر القرآنية الهادية، تستقبلها القلوب المؤمنة، وتفتح لها منافذها وأصداءها، فتزداد إيمانًا وهدىٰ واستقامة ويقينًا، بينما القلوب القاسية الكافرة الغليظة توصد منافذها أمام هذه البصائر، وتحكم إقفالها دونها، وتبالغ في وضع الأقفال عليها، وأنىٰ لها أن تهتدي بها، إنها تزيد هذه القلوب الكافرة كفرًا ورجسًا وظلاما وعمىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

ونختم هذه السمات والأسماء والأوصاف والآثار والنتائج بهذه الآيات التي توضح الآتي:

أولًا: طبيعة القرآن.

ثانيًا: الحياة الناتجة عنه.

ثالثًا: تفاعل المؤمنين به عند ما يسمعونه.

رابعًا: انفعال قلوبهم المؤمنة المبصرة الهينة اللينة به.

خامسًا: الآثار المترتبة علىٰ انفعال قلوبهم، والتي تبرز علىٰ الجوارح والجلود.

سادسًا: النتيجة لهذا كله وهي الهدىٰ الرباني، الذىٰ يعتبر ثمرة مباركة يانعة للشجرة القرآنية الخالدة.

* قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢١ - ٢٣].(١)

***

(١) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص: ٢١)، وما بعدها. بتصرف.

المبحث الثاني

الحكمة من إنزال الله القرآن

إن خالق الوجود(١) لا يمكن أن يترك المخلوق هملًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة:٣٦]، لذلك لما قَّدر سبحانه وتعالىٰ أن يُنزِلَ آدمَ إلىٰ الأرض، قدَّر سبحانه لآدمَ عددًا محدودًا من الذرية يهبطون تباعًا إلىٰ الأرض ليؤدوا الاختبار – اختبار العودة إلىٰ الجنة – وقبل هبوطهم أخذ عليهم جميعًا العهد والميثاق علىٰ عبادته سبحانه وتعالىٰ، ولقد وافق الجميع علىٰ ذلك وشهدوا بأنفسهم علىٰ هذا العهد

(١) عند الحديث عن أي شيء، لابد أن نعرف مكانه الصحيح في خريطة الإسلام، والإسلام له خريطة تتمثل في خمس دوائر كما يقول شيخي وأستاذي فضيلة الدكتور محمد سعد قاسم، وكل دائرة فيها نقاط خمس، والدائرة الأولىٰ من هذه الدوائر هي: الخالق، المخلوق، الرسول، الرسالة، نظام الرسالة.
وتفصيل هذه الدوائر سيكون في كتاب مستقل، بأمر الله تعالىٰ.
لكن وجبت الإشارة هنا للدائرة الأولىٰ، لأننا نتكلم عن إنزال القرآن وهو رسالة الخالق لنا، ومكان الرسالة في الدائرة الأولىٰ بعد الخالق والمخلوق، لذا بدأت كلامي إن خالق الوجود لا يمكن أن يترك المخلوق هملًا. فتنبه لذلك رزقنا الله وإياك حُسْن الفهم.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

- ولقد أخبر سبحانه وتعالىٰ الجميع بأنهم سيعودون إليه مرة أخرىٰ ليسألهم عن العهد والميثاق والمهمة، التي أنزلهم إلىٰ الأرض من أجلها ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف:٢٩].

ولقد جعل الله ﷻ هذا العهد الذي وافق عليه الجميع مركوزًا في داخلهم: فطرة تميل بهم إلىٰ الحق، وإلىٰ عبادته سبحانه وتعالىٰ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

بدأت ذرية آدم في الخروج إلىٰ الأرض مجموعة بعد مجموعة لأداء الاختبار، وعندما تنتهي الواحدة وتنقضي مدة اختبارها ووجودها علىٰ الأرض تُنزع أرواحها وتذهب إلىٰ القبور التي تُعد بمثابة ساحات انتظار حتىٰ ينتهي الجميع من أداء الامتحان.

يتوالىٰ هبوط الناس إلىٰ الأرض وخروجهم منها إلىٰ أن يأتي آخر عدد قدره الله ﷻ، فيؤدىٰ الاختبار ويكتمل امتحان الجميع، فينتهي دور الأرض كقاعة امتحان فتتزلزل، ويخرج الناس منها ليبدأ يوم الحساب وإعلان النتائج: إما النجاح والعودة إلىٰ الجنة، أو الرسوب والحبس في النار.

❁ ماذا فعل الناس على الأرض؟

خرجت الأجيال إلىٰ الأرض بفطرة سليمة، مُهيأة لعبادة الله ﷻ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠]، ولكنَّ إبليسَ اللعينَ لم يكن ليتركهم ينجحون في امتحان العودة إلىٰ الجنة، فبدأ باجتيال الناس، والاجتيال هو الاستخفاف بهم فجالوا مَعَه فِي الضلال، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ** (١) **عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**».(٢)

إن إبليس طلب المهلة من الله ﷻ لا ليرتاح، بل ليُضل الناس جميعًا ويسوقهم معه إلىٰ النار، لأنه يعتبر كل فرد ينجح في الفرار منه، والعودة إلىٰ الجنة، دليلًا علىٰ أفضلية آدم عليه، وأحقيته بالسجود له - كما طلب الله منه - لذلك فهو يعمل جاهدًا علىٰ غواية الجميع من خلال ذريته، وألا يفلت أحد من قبضته، فتراه لا يترك فرصة للإضلال إلا ويستغلها.

- ومدخله الأساسي النفس البشرية وما فيها من جوانب ضعف كثيرة، وولع بالشهوات، وحب للراحة، فيدخل إلىٰ القلب من خلالها ليستولي علىٰ

---

(١) نحلته: منحته.

(٢) رواه مسلم: (٢٨٦٥).

إرادته فيصير أسيرًا له يأمره وينهاه كيفما شاء ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩].

وللأسف الشديد اتبع الشيطانَ خلقٌ كثير ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

اتبعوه بإرادتهم بعد أن زين لهم الدنيا وزخرفها، وأنساهم ربَّهم وما طالبهم به ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩].

فانتهت حياة الكثيرين منهم نهاية مظلمة، وانكشفت لهم الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان وانتهاء فترة الامتحان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

۞ حب الله لعباده:

بالرغم من اتباع الغالبية العظمىٰ من الناس لعدو الله إبليس، ونبذهم عبادة ربهم إلا أنه سبحانه وتعالىٰ لم يشأ أن يعاقبهم علىٰ ذلك بحرمانهم مما حباهم به، بل أمهلهم وأعطاهم الفرصة تلو الفرصة ليعودوا إليه قبل فوات الأوان ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ

﴿مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

۞ الرسائل السماوية:

ومن دلائل حب الله لعباده كذلك: تلك الرسل التي أرسلها لهم علىٰ مر الأزمان، تُذكِّرهم بما خُلِقوا من أجله، وأنهم سوف يعودون إليه شاءوا أم أبَوا ليُحاسبهم عما فعلوه..، والرسل جاءوا جميعًا برسالة واحدة، هذه الرسالة مبنية علىٰ ربط الخالق بالمخلوق بصورة صحيحة.

۞ كيف تعامل الناس مع هذه الرسائل؟

كل مرة يرسل الله فيها رسالة إلىٰ طائفة من عباده مع رسول من رسله يستجيب القليل لنداء الرسول فيما جاء به من ربه قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]، ويمتنع الكثير عن طاعته سبحانه استجابة منهم للشيطان قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء:٨٩]، ويستمر التكذيب فيمهلهم الله ﷻ لعلهم يستجيبون لدعوته، ويُنقذون أنفسهم من سوء المآل، ولكنهم في الغالب يظلون علىٰ عنادهم فيحق عليهم وعيد الله، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون:٤٤].

وهكذا تتوالىٰ الرسائل من السماء إلىٰ أهل الأرض أن أفيقوا قبل فوات الأوان.. لا تتبعوا الشيطان ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى:٤٧].

إذن فجوهر الرسائلِ كلِّها هو هداية الناس إلىٰ الله، وإلىٰ صراطه المستقيم، وإنقاذهم من طريق الشيطان.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ ﴾ [المائدة:٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة:٤٦].

۞ الرسالة الأخيرة:

كانت الرسائل التي أرسلها الله ﷻ للبشر تُخاطب قومًا من الأقوام في فترة زمنية محددة، حيث كان التقدم الحضاري والاتصال بين الأمم محدودًا، وبعد الرسالة التي أرسلها الله سبحانه وتعالىٰ مع عيسىٰ ابن مريم لبني إسرائيل ازداد انحراف الناس أكثر وأكثر، واحتاجت البشرية إلىٰ رسالة تُخرجها من الظلمات إلىٰ النور فكان القرآن.. ذلك الكتاب الذي أرسله الله ﷻ للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان حيث يتلاءم مع ما يحدث في الأرض من تقدم علمي وحضاري غير مسبوق.

۞ الحكمة و الهدف الأساسي من نزول القرآن:

أنزل الله ﷻ القرآن ليكون وسيلة يهتدي الناس من خلالها إلىٰ الله، وإلىٰ طريقه المستقيم، قال تعالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥].

- ومن يقرأ القرآن يتأكد لديه بالأدلة العقلية أن للكون إلهًا واحدًا، وأن هذا الإله هو الله سبحانه، وأنه خلقنا وأسكننا الأرض ليختبرنا، وأن هناك حياةً بعد الموت ثم حسابًا، فنعيمًا أو عذابًا.

- كما أنزل الله ﷻ القرآن ليكون رسالة منطلقها الرحمة الإلهية بالناس لإنقاذهم من النار وإخراجهم من الظلمات ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم:١].

وفي هذه الآية يقول فضيلة الدكتور محمد سعد قاسم: هذه الآية الأولىٰ من سورة إبراهيم تبين بوضوح الوظيفة الأهم والمتوارثة عبر الزمن في سلسلة الأنبياء من لدن أوَّلِهِم آدمَ عليه السلام أبي البشر، إلىٰ خليل الرحمن إبراهيم أبي الأنبياء، إلىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، والوظيفة هي: بيان الطريق للسالكين، وإخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور.(١)

ويرسم القرآنُ للناسِ الطريقَ المستقيمَ الموصلَ للنجاح، ويعرِّفهم بالعقبات التي قد تعترضهم، وبالمنحنيات التي قد تُبعدهم، وبعَدُوِّهم الذي يتربص بهم..

(١) روافد في بناء الوعي: (ص: ١٣٧).

كل هذا من خلال خطاب ودود يقطر رحمة وشفقة وحنانا.. خطاب يستحث الجميع إلىٰ سرعة العودة إلىٰ الله قبل فوات الأوان قال تعالىٰ: ﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٧]، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣]، إنه الحبل المتين الذي أنزله الله من السماء لينتشل به الناس من الضلال، وليظهر به مدىٰ حبه لعباده، وأنه يريد لهم جميعًا الخير، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْجُحْفَةِ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟**» قُلْنَا: بَلَىٰ، قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلَكُوا وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا**». (١)

***

(١) المعجم الصغير للطبراني: (١٠٤٤)، وصحيح الجامع: (٣٤).

الفصل الثاني

علاقة القرآن
بالعقل والقلب

المبحث الأول

علاقة القرآن بالعقل

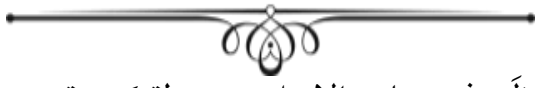

إنَّ العقلَ يحظَىٰ في رحاب الإسلام، بمنزلة كريمةٍ ومرتبةٍ عالية، فبسببه كرَّم اللهُ الإنسان واستخلفه في أرضه وائتمنه علىٰ بعض أسرار كونه، وفضَّله علىٰ كثيرٍ من خلقه، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:٧٠].

هذا التَّفضيل وذلكم التَّكريم، ليس لكون الإنسان يأكل أو يشرب أو يتناسل، فهذه صفات يشترك فيها مع ما يدبُّ معه علىٰ هذه الأرض، بل هو أقلُّ تزوُّدًا وأضعفُ نسلًا من كثير من هذه الدَّوابِّ، وإنَّما شرف بما وهبه الله من عقل يفكر به [1]، لذلك جاء القرآن مخاطبًا العقل بطريقة واضحة يصل بها إلىٰ ما يليق بالإنسان وبتكريم الله له.

- قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل:٧٨]، فالجنين يخرج من رحم أمه إلىٰ الدنيا وهو لا يعلم شيئا، ويبدأ

(١) وجعل سبحانه مع العقل لسانًا ينطق به الإنسان، كما أودع فيه بين حنايا نفسه مَلَكَاتٍ جعلته أهلًا وجديرًا بما خلقه الله من أجله وكلَّفه به.

تدريجيا في التعرف علىٰ العالم من حوله من خلال بيئته الصغيرة المحيطة به، ففيها يكتسب معارفه الأولية، وبمرور الأيام والسنين ومع اتساع دائرة حركته، وتنوع وسائل المعرفة التي يستقي منها معلوماته، وتتكون لديه مجموعة من الثوابت والتصورات عن نفسه وعن كل ما يُحيط به ويتعامل معه، مثل نظرته إلىٰ المال، والدراسة، والزواج، والصداقة، والقوة، والموت، وعالم الغيب.

ومما لا شك فيه أن هذه التصورات تختلف من شخص لآخر باختلاف المشارب والبيئات والمنابع التي يستقي منها الفرد معلوماته، وعلىٰ أساسها يتكون فكر الإنسان وثوابته الخاصة.

هذا الفكر وهذه الثوابت تُشكل المنطلق الأساسي للسلوك الخارجي، فالإنسان - أي إنسان - يتحرك من خلال قناعاته الشخصية، وإذا ما أردت تغيير سلوك شخص ما فعليك أولًا أن تبدأ بتغيير قناعاته تجاه ما تُريد، أما إذا حاولت أن تقفز مباشرة إلىٰ السلوك لتُغَيِّره دون أن تبدأ بالفكر، فلن تصل إلىٰ النتيجة التي ترجوها، وإن أبدىٰ أمامك استجابة سريعة لأوامرك - وبخاصة إذا ما كان لك عليه سلطان - فإن هذه الاستجابة تكون وقتيةً لا تستمر طويلا.

إذن لابد من مخاطبة العقل وتغيير الفكر والمعتقد أولًا إذا ما أردنا تغيير السلوك.

❁ تجارب عملية:

إن القناعات والمعتقدات لها تأثير علىٰ سلوك الإنسان، كما أن تأثير

العوامل النفسية علىٰ الناحية الجسمية العضوية أمر بدهي يلاحظه الفرد في حياته اليومية، فهو يضطرب وتزداد ضربات قلبه عند تلقيه أخبارًا مفزعة أو مؤلمة، كما يحمر وجهه خجلًا وحياءً إن كان من أصحاب البشرة البيضاء.

ومن أهم الظواهر أيضا تحسُّن الحالة الصحية الجسمية لكثير من المرضىٰ عند تناولهم لحبوب وكبسولات لا تحتوي علىٰ أي مادة فعَّالة لكنهم يعتقدون أنها عقاقير مفيدة. فقد لا تحتوي الكبسولات إلا علىٰ قليل من السكر لكن الطبيب يؤكد للمرضىٰ أنها ذات فائدة مضمونة.

وفي بعض الحالات يقوم الطبيب بحقن المرضىٰ بمحلول الماء والملح بعد إيهامهم بأن هذه الحقن تحتوي علىٰ دواء ممتاز.

وقد أثبتت الدراسات المتكررة بأن هؤلاء المرضىٰ تتحسن حالتهم بدرجة واضحة تكاد في بعض الأحيان تصل إلىٰ مستوىٰ أولئك الذين تلقوا عقاقير حقيقية.

ولقد ظهرت مئات المؤلفات التي تدعو لتحسين صحة الإنسان الجسمية بتغيير أفكاره ومشاعره وانفعالاته.. ذلك لأن الذي يُشكل فكر الإنسان ونشاطه المعرفي ليس هو الأحداث والمثيرات التي يتعرض لها في بيئته بشكل مباشر، بل الذي يؤثر بالفعل هو تقييمه وتصوراته لهذه الأحداث والمثيرات. (١)

---

(١) التفكر من المشاهدة للشهود: (٥١)، بتصرف عن العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف (ص: ٣٩).

من هنا يتبين لنا أن الخطوة الأولىٰ والأساسية لتغيير سلوك الإنسان هي تغيير فكره، وليس المقصد من تغيير الفكر تلك القناعة العابرة التي يُبديها العقل نتيجة قراءة أو مناقشة، فهذا من شأنه أن يُحدث تغييرًا وقتيًا ينتهي مفعوله بغياب الفكرة من العقل، ولكن إذا ما أردنا تغييرًا مستمرًا فهذا أمر آخر يتطلب الحديث عن الشعور واللاشعور.

❁ الشعور واللاشعور:

البعض منَّا يخاف من الظلام، فإذا ناقشته وجدته مقتنعا بعدم وجود ما يُبرر خوفه، لكنه مع ذلك يستمر كما هو، والناس يتحدثون عن العدل والمساواة ولكن عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية...

فما السبب في ذلك؟

إن السبب الرئيس لهذا التناقض بين القول والفعل أن العقل يستقبل المعلومات بجزئه المُدرك الواعي والذي يُسميه العلماء بالشعور.. هذه المعلومات لن تستطيع أن تكون دافعًا مستمرًا للأعمال إلا إذا أصبحت علمًا راسخًا عند الإنسان، وانتقلت من منطقة الوعي والإدراك والشعور إلىٰ منطقة اللاشعور، أو العقل الباطن، أو الأخفىٰ علىٰ حد تعبير القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه:٧]، وفي هذه الآية يقول البغويُّ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «السِّرُّ»: مَا أَسَرَّ ابْنُ آدَمَ فِي نَفْسِهِ، «وَأَخْفَىٰ» مَا خَفِيَ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ فَاعِلُهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَهُ. (١)

(١) تفسير البغوي: (٥/ ٢٦٤)، تفسير الطبري: (١٦/ ١٣).

فاللاشعور، أو الأخفىٰ هو منطقة العلم الراسخ اليقيني عند الإنسان، ومن خلاله تنطلق الأفعال بصورة تلقائية.

ولقد ضرب القرآن مثالًا لأناس اعتقدوا أنهم مصلحون، ولكن سلوكهم يدل علىٰ عكس ذلك.. لماذا؟ لأنهم يُفسدون بطريقة تلقائية من اللاشعور!!!.

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١- ١٢].

والأمر الجدير بالانتباه كما يقول د. ميسرة طاهر: أن حوالي ٦٠٪ من سلوكنا اليومي ومن أفعالنا وأقوالنا مصدرها (الأخفىٰ).

✍ **ويستطرد قائلًا**: والأدلة علىٰ وجود الأخفىٰ كثيرة، منها: المخاوف الشاذة، فكثيرًا ما نرىٰ كبارًا وصغارًا يخافون مما لا ينبغي الخوف منه، كالأماكن المرتفعة، والقطط، فمثل هذه المخاوف لا يمكن أن نجد لها تفسيرًا علىٰ مستوىٰ العقل الواعي.

ومنها كذلك فلتات اللسان، وهي الكلمات التي نتفوَّه بها دون إرادة منَّا، وعند اكتشاف الفرد لمثل هذه الفلتات فغالبا ما يعتذر عنها، ويقول: لم يكن قصدي أن أقول هذا...

ومن مظاهر وجوده كذلك ألعاب الأطفال، فمن يُراقب الأطفال يجد أنهم يخرجون من عقلهم الباطن كل ما يُضايقهم ليصبُّوه علىٰ ألعابهم سواء

بالحركات أو بالكلمات.(١)

ومن الأوقات التي تُظهر الأخفىٰ بصورة جلية: لحظات الاحتضار، حيث يكاد العقل المُدرك أن يتوقف ليُفسح المجال للأخفىٰ ليُعبِّر عما بداخله، ويظهر هذا بوضوح من خلال تباين استجابة المُحْتَضَرِين لمن يُلقِّنهم الشهادة، بل قد نجد الواحد منهم يُردد ما كان يغلب علىٰ اهتماماته في حياته.

✍ **جاء في كتاب «الداء والدواء» لابن القيم:** شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضَرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ، حَتَّىٰ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: آهْ آهْ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ: شَاهْ رُخْ، غَلَبْتُكَ. ثُمَّ قَضَىٰ.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ:

يَا رُبَّ قَائِلَةٍ يَوْمًا وَقَدْ تَعِبَتْ... أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَىٰ حَمَّامِ مِنْجَابِ

ثُمَّ قَضَىٰ.

وَقِيلَ لِآخَرَ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ: تَاتِنَا تِنِنْتَا. حَتَّىٰ قَضَىٰ

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ وَلَمْ أَدَعْ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا؟ ثُمَّ قَضَىٰ وَلَمْ يَقُلْهَا.

---

(١) مجلة الإعجاز العلمي - العدد التاسع - صفر ١٤٢٢هـ - ص (٢٣، ٢٤) بتصرف. نقلًا عن العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف (ص: ٣٩).

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَمَا يُغْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً؟ ثُمَّ قَضَىٰ وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ. وَقَضَىٰ.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا.

وَأَخْبَرَنِي مَنْ حَضَرَ بَعْضَ الشَّحَّاذِينَ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ: لِلَّهِ، فِلْسٌ لِلَّهِ. حَتَّىٰ قَضَىٰ.

وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ التُّجَّارِ عَنْ قَرَابَةٍ لَهُ أَنَّهُ احْتُضِرَ وَهُوَ عِنْدَهُ، وَجَعَلُوا يُلَقِّنُونَهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهُوَ يَقُولُ: هَذِهِ الْقِطْعَةُ رَخِيصَةٌ، هَذَا مُشْتَرٍ جَيِّدٌ، هَذِهِ كَذَا. حَتَّىٰ قَضَىٰ.

وَسُبْحَانَ اللهِ! كَمْ شَاهَدَ النَّاسُ مِنْ هَذَا عِبَرًا؟ وَالَّذِي يَخْفَىٰ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ الْمُحْتَضِرِينَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالِ حُضُورِ ذِهْنِهِ وَقُوَّتِهِ وَكَمَالِ إِدْرَاكِهِ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَعَاصِي اللهِ، وَقَدْ أَغْفَلَ قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَعَطَّلَ لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ، فَكَيْفَ الظَّنُّ بِهِ عِنْدَ سُقُوطِ قُوَاهُ وَاشْتِغَالِ قَلْبِهِ وَنَفَسِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ أَلَمِ النَّزْعِ؟

وَجَمَعَ الشَّيْطَانُ لَهُ كُلَّ قُوَّتِهِ وَهِمَّتِهِ، وَحَشَدَ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لِيَنَالَ مِنْهُ فُرْصَتَهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ آخِرُ الْعَمَلِ، فَأَقْوَىٰ مَا يَكُونُ عَلَيْهِ شَيْطَانُهُ ذَلِكَ

الْوَقْتِ، وَأَضْعَفُ مَا يَكُونُ هُوَ فِي تِلْكَ.(١)

❁ علاقة العقل المُدرِك بالأخفى (أو علاقة الشعور باللاشعور):

ما من معلومة ترسخ في اللاشعور إلا وتمر عليه من خلال الشعور أو العقل المُدرك.. مع العلم أن كل فكرة نعتقد بصحتها حتىٰ لو كانت خرافة فإن اللاشعور يقبلها دون مناقشة، أما رسوخها فيه لتُصبح يقينا ومُنطلقا للفعل التلقائي فهذا يحتاج إلىٰ تكرار مرورها إليه من العقل المُدرِك...

وإليك بعض الأمثلة التي تُوضح ذلك الأمر:

عندما نتعلم أحكام تلاوة القرآن فنحن نتعلمها بالعقل المُدرِك، وبالمداومة علىٰ تطبيقها ترسخ هذه المعلومات في اللاشعور، فيُطبِّق المرء الأحكام دون تفكير فيها، وقد ينسىٰ القارئ نَص الحكم التجويدي ومع ذلك يستمر في تطبيقه بصورة صحيحة.

والذي يتعلم قيادة السيارة فإنه يتعلمها بالشعور، ثم بالمداومة والممارسة ترسخ المعلومات في اللاشعور، مما يجعله يقود سيارته دون تفكير، وقل مثل هذا علىٰ الذي يتعلم الكتابة علىٰ الكمبيوتر والذي لا يستطيع في البداية كتابة حرف دون النظر إلىٰ مكانه في لوحة الحروف، وشيئًا فشيئًا يستطيع الكتابة وهو ينظر إلىٰ الآخرين.

إذن فتحول المعلومة من الشعور إلىٰ اللاشعور وثباتها فيه يحتاج إلىٰ تكرار التفكير فيها واسترجاعها بين الحين والآخر وإلَّا تلاشىٰ وجودها شيئا

(١) الداء والدواء: (٩١).

فشيئا.. فكم من مهارات وأعمال وأناشيد وجُمَل مأثورة تعلمناها في الصِغر ودخلت اللاشعور، ثم تلاشت منه أو كادت بسبب إهمالها وعدم استرجاعها كل فترة.

من هنا تأتي أهمية الممارسة العملية المتكررة المعبرة عن الأفكار التي نُريد ترسيخها في اللاشعور، ولعلنا نلمح هذا المعنىٰ من تأكيد رسولنا ﷺ علىٰ أهمية المداومة علىٰ العمل - وإن قَلَّ - ليظل مدلوله راسخا في اللاشعور.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ». (١)

❁ القرآن واللاشعور:

مما سبق يتبين لنا أن من أسباب عدم مطابقة الفعل للقول هو ما ترسب لدىٰ الإنسان في عقله الباطن من أفكار ومعتقدات، والتي من الجائز أن يقتنع العقل المُدرك بعكسها في لحظة من اللحظات، لكنه عند التطبيق يصدر منه سلوك مُعبر عن يقينه ومعتقداته الراسخة لديه.

* **فعلىٰ سبيل المثال**: لو ناقشت إنسانًا ما، في قضية الرزق وأنه بيد الله ﷻ وقد ضَمِنه لنا، ولن تموت نفس حتىٰ تستوفي رزقها، فستجد منه اقتناعا تاما بذلك، ولكن عند التطبيق في معترك الحياة نجد أن الأمر يختلف، حيث اللهفة والحرص علىٰ المال وكثرة التفكير في المستقبل والخوف من الفقر...

---

(١) صحيح البخاري: (٦٤٦٤).

إذن فالخطوة الأولىٰ في تغيير السلوك تبدأ بتغيير ما ترسب لدينا من أفكار ومعتقدات خاطئة واستبدالها بأفكار ومعتقدات صحيحة.

*** هذا التغيير - كما مرَّ علينا - يستلزم ثلاثة أمور:**

أولًا: اقتناع العقل المُدرِك بالأفكار الجديدة.

ثانيًا: تكرار مرور تلك الأفكار علىٰ العقل.

ثالثًا: ممارسة مقتضيات تلك الأفكار.

وهذا ما يفعله القرآن.

فالقرآن يُعيد تشكيل العقل من جديد، ويُصوِّب كل فكرة خاطئة لديه، ويبني فيه اليقين الصحيح لكل الأفكار والمعتقدات.

ولكن كيف يتم ذلك؟

المتأمل في كتاب الله سيجد العديد من الوسائل التي يستخدمها في ترسيخ المفاهيم الصحيحة في اللاشعور، ومن أهم هذه الوسائل:

أولا: الاقتناع:

فالاقتناع بالفكرة هو الخطوة الأولىٰ في طريق التغيير، حيث يسمح العقل المُدرِك بمرورها بعد ذلك إلىٰ اللاشعور ليصبح السلوك المعبر عنها يصدر بطريقة تلقائية.

من هنا يبرز احترام القرآن للعقل ودوام مخاطبته وإقناعه بأهمية الفكرة المطروحة. والقارئ المُتدبر يجد المولىٰ سبحانه وتعالىٰ - وهو الكبير المتعال - يُخاطب عقولنا، ويُبيِّن لنا الكثير من الأمور التي من شأنها أن

تُقنعنا بما يُريده منَّا، بل إنه سبحانه وتعالىٰ يدعونا في كتابه إلىٰ استخدام عقولنا والتفكر في كلامه، كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف:٤].

ويرُد القرآن علىٰ ادعاء النصارىٰ بألوهية المسيح عليه السلام أو أمه، فيقول تعالىٰ: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة:٧٥].

ومن وسائل الإقناع التي يستخدمها القرآن: ضرب الأمثال، والتي تُعتبر من أهم وسائل تبسيط المعلومة وربط الذهن بها، فالمعلم القدير هو الذي يُقدم العلم للناس في أمثلة تجعلهم يقتربون من الموضوع أكثر. (١)

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر:٢٧].

ومن أمثلة القرآن ذلك المثال الذي يُبيِّن خطورة الرياء، وعدم الإخلاص لله، وكيف سيكون حال صاحبه وهو يرىٰ جهده وتعبه قد ضاع، هو أحوج ما يكون إليه.

يقول تعالىٰ: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى

(١) كن كابن آدم، ص (٨٥). نقلًا عن العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف؟(ص: ٤١).

مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة:٢٦٦].

ومن وسائل الإقناع كذلك:

استخدام الطريقة الاستنتاجية بطرح الأسئلة وترك الإجابة للعقل ليصل إلىٰ المعنىٰ المراد من ورائها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد:٣٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٨].

ثانيا: تكرار الموضوعات:

نعم الاقتناع بالفكرة هو الخطوة الأولىٰ في طريق التغيير حيث تنتقل هذه الفكرة من العقل المُدرك إلىٰ اللاشعور، ولكنها لن تستقر فيه إلا إذا حدث لها تكرار وتكرار.

ولعلنا جميعًا نلحظ ذلك، فعندما يحدث اقتناع بفكرة ما، في لحظة من اللحظات تجد الواحد منَّا كثيرًا ما يُعبر عن هذا الاقتناع بعمل من الأعمال، كمن قرأ أو سمع عن أهمية مساعدة المحتاجين ثم وجد أمامه محتاجًا، ففي الغالب أنه سيتصدق عليه ولو بالقليل، هذا الفعل قد لا يتكرر من صاحبه ثانية إلا إذا استمر التذكير بأهميته بين الفينة والأخرىٰ.

من هنا تبرز قيمة التكرار كوسيلة من وسائل بناء اليقين الصحيح والتي

يستخدمها القرآن، فالمتتبع للموضوعات المطروحة فيه يجدها متكررة ومتشابهة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الفرقان:٥٠].

وصرَّفناه أي: كررناه بأساليب مختلفة..

ومن فوائد التكرار كذلك أنه يجعل القارئ في حالة دائمة من التذكر واليقظة.

والموضوعات التي تتكرر في القرآن كثيرة، تَقِف علىٰ قِمَّتها تلك الموضوعات التي تتناول جوانب الهداية فيه. (١)

فالتعرف علىٰ الله ﷻ يحتل مساحة ضخمة في القرآن، ولا تكاد تمر آية إلا وتجد فيها تعريف بالمولىٰ سبحانه وتعالىٰ وبحقوقه علينا من عبادات قلبية وجوانب تشريعية.

* **ومن الموضوعات التي تتكرر كثيرًا في القرآن:** قصة وجودنا علىٰ الأرض، وطبيعة الدنيا وأنها دار امتحان ينتهي بيوم عظيم للحساب، تُعرض فيها الأعمال، وتُعلن النتائج، ليفوز الناجحون بالجنة التي أعدَّ الله لهم فيها شتىٰ أنواع النعيم، ويذهب الراسبون إلىٰ النار فيذوقوا من ألوان العذاب.. أعاذنا الله منها.

ويُحذرنا القرآن دوما من عداوة الشيطان لنا وعمله الدائب لإضلالنا،

(١) سيأتي الحديث في فصل مستقلٍ بشيء من التفصيل عن: (جوانب الهداية في القرآن) بأمر الله تعالىٰ.

ويُكرر لنا السنن والقوانين التي يحكم الله بها الحياة لنتذكرها ونستفيد بها.

ويُذكِّرنا القرآن كذلك بحقوق الناس بعضهم علىٰ بعض، ويُكرر علينا قصص السابقين لتتأكد لدينا المعاني والعِبر التي تحملها.

ثالثًا: رسم خريطة الإسلام:

* **ومن وسائل القرآن في إعادة تشكيل العقل**: رسم خريطة الإسلام بنِسَبِها الصحيحة في ذهن قارئه، فالقرآن يُعطي لصاحبه تصورًا عامًا لكل ما هو مطلوب منه، وعلاقته بكل شيء حوله، ولا يكتفي بذلك بل يضع كل أمر في حجمه المناسب له في شجرة الإسلام، فهو يرتب الأولويات، ويُكون الشخصية المعتدلة، المتوازنة، والتي تُعطي كل ذي حق حقه، فعلىٰ سبيل المثال: نجد قضية الجهاد في سبيل الله قد أخذت مساحة معتبرة في القرآن بل نجدها تتقدم في الأولوية علىٰ عبادات أخرىٰ عند تعارضها.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٩- ٢٢].

فمن يترك عقله للقرآن، سيجد بلا شك أن شخصيته قد تشكلت بصورة متوازنة، وستتكون لديه ملكة معرفة الأهم فالمهم لكل قضية حين يطرحها القرآن، وستوضع في ذهنه بالحجم المناسب الذي يتناسب مع اهتمام القرآن

بها.

ولك أن تتخيل - أيها القارئ الكريم - ماذا يمكن أن يحدث لو اتجهت عقول الأمة إلىٰ القرآن ليصبح المصدرَ الرئيس للتلقي؟ وكيف ستكون نسبة الاتفاق بين أفرادها؟!

وخلاصة القول:

إن القرآن يعيد تشكيل العقل، ويقوم ببناء اليقين الصحيح فيه من خلال مخاطبته له بأساليبَ شتي، مما يؤدي إلي إقناعه بما يحمل من أفكار فتنتقل تلك الأفكار بسهولة ويسر إلي منطقة اللاشعور، وتترسخ فيها من خلال تكرارها في السور والآيات لتشكل بعد ذلك نقطة بداية قوية لانطلاق السلوك المعبر عنها....

والقرآن لا يركز علىٰ قضايا بعينها، بل يرسم في الذهن خريطة شاملة وواضحة للإسلام، ويُعطي كلَّ جزءٍ فيها اهتمامًا يناسب حجمه، فينشأ عن هذا كله تصحيح للمفاهيم الخاطئة وتغيير للثوابت الموروثة، لتحل محلها معاني القرآن وثوابته، وهذا من شأنه أن يُحدث وحدة التصور لدي أفراد الأمة.(١)

***

(١) العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف؟(ص: ٤٢). بتصرف.

المبحث الثاني

علاقة القرآن بالقلب

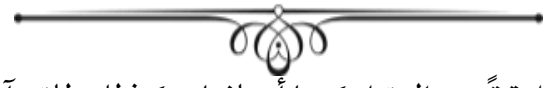

إن للقرآن علاقةً مع العقل كما أسلفنا، وكذلك للقرآن علاقةٌ وطيدةٌ بالقلب، وكيف لا والقرآن ما نزل إلا علىٰ القلوب لتتأثر به وتتفاعل معه، قال أعز من قال: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]، ولنتأمل الآيتين السابقتين فإننا سنلحظ تكرار قوله ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، لهذا نقول: إن أعظم وأقدس وأجل مكان يرفع فيه القرآن: (قلب المؤمن)، فنسأل الله أن يمنَّ علينا بتأمل الآيات بقلوبنا لأن الأقفال علىٰ القلوب تمنع التدبر كما قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

- وفي الصفحات التالية لنا وقفات بأمر الله تعالىٰ، نوضح بها وفيها علاقة القلب بالقرآن.

***

المطلب الأول

القرآن روح القلوب وقوتها

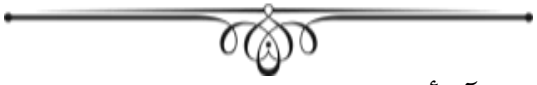

من عجائب القرآن أنه ميسر للجميع، لا يحتاج إلىٰ عقلية خاصة، أو طقوس معينة، أو أماكن محددة، أو أزمنة بعينها للتعامل معه.

فهو متاح في كل الظروف والأحوال.. يخاطب العامة والخاصة، والعلماء والأميين، والرجل والمرأة، فيُحدث في الجميع أثره العظيم، ويمد القلوب بالروح، ويفجر منابع إيمانه فيها، فيخرجها من الظلمات إلىٰ النور، ومن غلبة الهوىٰ إلىٰ غلبة الإيمان.

- إنه كالشمس تسع الجميع بضيائها وأثرها ودفئها، ويزيد عن شمس الدنيا بأن شمسه لا تغرب، ونوره لا يأفل.

- وكما أن شمس الدنيا لا تؤثر إلا فيمن يتعرض لها؛ كذلك القرآن لا يؤثر إلا فيمن يتعرض له قال أعزُّ من قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧- ٢٨].

- ولا يعني أبدًا عدم رؤية البعض للشمس بسبب الغيوم والسُّحب.. أنها غير موجودة، أو أن تأثير وجودها لا يعدو ذلك الضوء الخافت المختلط بالضباب، والذي تصعب معه الرؤية..

- كذلك القرآن، فمعجزته موجودة ومحفوظة بحفظ الله لها، ويظل

تأثيرها الفذ يعمل ويعمل حتىٰ قيام الساعة، فإن أصبحت الحُجب بعضها فوق بعض، وحالت الحُجب بيننا وبين معجزة القرآن، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون مدعاةً للاستسلام للأمر الواقع، والظن بأن هذا هو الوضع الطبيعي للقرآن، بل علينا أن نجتهد ونجتهد في الوصول إلىٰ دائرة التأثير المباشر لتلك المعجزة.

ومما يدعو للأسف أن طول أمد بعدنا عنها، مع إلفنا لذلك الوضع، جعلنا نكاد لا نصدق بكونها مصدرًا متفردًا فذًّا للتأثير الدائم، والتغيير الحقيقي.

من هنا تظهر الحاجة للتذكير بأهمية هذه المعجزة والسر الأعظم فيها، ومظاهر تأثيرها ليكون ذلك دافعًا يدفعنا للبحث الجاد عن كيفية الوصول إليها والانتفاع بها.

۞ روح تسرى في القلوب:

من أهم الأوصاف التي وصف بها القرآن أنه: «روح» ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى:٥٢].

فأهمية وجوده في القلب وتأثيره عليه، كأهمية الروح بالنسبة للجسد.. بل يزيد باعتبار أن الأجساد إلىٰ زوال، وأن القلب هو محل نظر الله ﷻ، وعلىٰ قدر سلامته وصحته تكون الاستقامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩].

* **لذلك لا يخطئ من يقول:** إن من يقرأ القرآن ويُحسن التعرض لتأثير

آياته يجد نفسه وكأنه يتعامل مع «كائن حي يتحرك وينطق.. له مشاعر، يفرح ويحزن، يرضىٰ ويغضب.. ينتقل بين سور القرآن فتتحرك بها مشاعره.. هذه سورة تثير فيه مشاعر الثقة والاعتزاز، وتلك سورة تثير فيه مشاعر الغيرة، وأخرىٰ تثير فيه مشاعر الغضب لله، وتلك سورة تثير فيه مشاعر الأحزان، وهكذا....» (١)

إنه ليس كتابًا فحسب، وليس دواء فحسب. إنه شيء متفرد لا يمكن إدراك كنهه وقدرته الفذة علىٰ العمل في ذات الإنسان.. إنه يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير.

❁ من دخل فيه فهو آمن:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ ﷻ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْهُ شَيْئًا فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ.....». (٢)

وفي لفظ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ ﷻ، فَمَنْ دَخَلَ فِيهِ، فَهُوَ آمِنٌ». (٣)

وكيف لا، والذي يتلوه حق تلاوته يشعر بأنه يعيش حياة نابضة في عالم آخر غير الذي يعيش فيه.. يدرك أن روحا تسري فيه.

---

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية: (٢٢٢).
(٢) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري: (٤٤٧).
(٣) فضائل القرآن للفريابي: (ص: ١٦٦).

- يحس من يقرأ في القرآن متنقلًا بين آياته وسوره أنه يعيش في قرية صغيرة، يجمعها مكان واحد، هي هذه المعمورة رغم اتساعها.. ويكتنفها زمان واحد من لدن آدم حتىٰ قيام الساعة.

- نصوص مفتوحة أمامها الطريق، لا يحدها زمان، ولا يقيدها مكان، تلقي تعاليمها لهذا الإنسان الذي لا تتغير مشاعره وجوانبه النفسية وميوله علىٰ اختلاف الزمان.

- هكذا يجد كل إنسان فيه بغيته.. يُقبل عليه المهموم ليجد فيه بلسمه، ويقبل عليه المحزون ليجد فيه سلوته، ويقبل عليه العالم ليجد فيه طلبه، ويقبل عليه الهارب من قيود الحياة الرتيبة ليجد فيه خلوته.. يُقبل عليه الضال التائه ليجد ضالته، فهو – كما ورد في وصفه – مأدبة الله، كل إنسان يأخذ منه حاجته، ويجد فيه قناعته ومتعته وسلوته.(١)

وفوق كل هذا... تلك الطاقة الروحية التي يولدها في نفس من يُقبل عليه.

- إنه يثير العواطف ويوقظ العقول في وقت واحد، وبعد الاقتناع يطمئن العقل ويهدأ الإحساس، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح.(٢)

❁ تأثير يُدرك ولا يمكن وصفه:

لما كان القرآن روحًا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية ص: ٢٢٤، ٢٢٥.
(٢) المصدر السابق/ ١٣٦.

عندنا جهة إعجازه، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه.(١)

إن في هذا القرآن سرًا خاصًا يشعر به كل من يواجه نصوص القرآن ابتداءً قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن.

- يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرًا ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحًا، ويدركه بعض الناس غامضًا، ولكنه علىٰ كل موجود..

هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره:

- أهو العبارة ذاتها؟

- أهو المعنىٰ الكامن فيها؟

- أهو الصور والظلال التي تشعها؟

- أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟

- أهي هذه العناصر كلها مجتمعة؟

- أم أنها تشمل ما تقدم وشيئًا آخر وراءها غير محدود!

ذلك سر مودع في كل نص قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا

(١) المصدر السابق / ١٠٩.

القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله.

- فالقرآن له سلطان الجلال والمهابة يستولىٰ علىٰ قلوب المخاطبين استيلاءً (كالقهر وما هو بالقهر، له فعل في القلوب كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، بل يغزو القلب من حيث لا يمكن لصاحبه رد، ويؤثر فيه من حيث لا يمكن دفع، أثر في الأعداء كما أثر في الأتباع. (١)

۞ من مظاهر تأثير القرآن:

لقد وصف القرآن لنا بعضًا من مظاهر تأثيره في الآخرين، ولم يقصر القرآن هذا التأثير علىٰ البشر فقط بل نجده قد تعداهم إلىٰ الجن، بل وإلىٰ الجماد..

ولئن كنا لا نستطيع إدراك سر تأثير القرآن وكيفية عمله في داخل الفرد إلا أننا يمكن أن ندرك بعضا من أبعاده من خلال نتائج ومظاهر هذا التأثير.

۞ خشوع الجبال وتصدعها:

لقد بلغ من شأن القرآن وعظمته وشدة تأثيره أنه لو أُنزل علىٰ جبل من الجبال، وجُعل له عقل كما جُعل للبشر، لرأيت الجبل – مع كونه في غاية القسوة والصلابة – خاشعًا متصدعًا من خشية الله كما قال تعالىٰ: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا

(١) التعبير القرآني والدلالة النفسية ١٢٨.

﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١] أي: لاتَّعظ الجبل وتصدَّع صخرُه من شدة تأثره من خشية الله.

✍ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: مَا تَرَدَّىٰ حَجَرٌ مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ، وَلَا تَفَجَّرَ نَهْرٌ مِنْ حَجَرٍ، وَلَا خَرَجَ مِنْهُ مَاءٌ إِلَّا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، نَزَلَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.(١)

ففي هذا بيان حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات، ولو كانت جبلًا أشمًا، أو حجرًا أصمًّا..

وضُرب التصدع مثلًا لشدة الانفعال والتأثير، لأن منتهىٰ تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع، ولا يحصل ذلك بسهولة. (٢)

۞ القشعريرة والسجود:

فإن كان الجبل سيندك إذا ما استقبل القرآن، كذلك فإن القلوب المؤمنة تخشع وتهتز هزًا عنيفًا عند استقباله، ولقد وصف لنا القرآن بعضا من مظاهر هذا التأثير:

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

فالقلب يتأثر ويلين، والجلد يقشعر ويلين.. وما هذا إلا دلالة علىٰ الأثر

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٤٦٥).
(٢) عظمة القرآن للدوسري/ ٧١، ٧٢.

الذي أحدثه القرآن في القلب، والهزة العنيفة التي حدثت للمشاعر.

وليس ذلك فحسب، بل إن المؤمن الذي يتلو الآيات ويعيش معها يجد قلبه وقد استولت عليه مشاعر التعظيم والمهابة والإجلال لله ﷻ، ولا يستطيع أن يسيطر علىٰ هذه المشاعر فتجده يسجد بتلقائية لربه إجلالًا وخشية ومهابة قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٨].

فالحال المتوقع لمن يستقبل القرآن استقبالًا صحيحًا قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨﴾ [مريم:٥٨].

فإن لم يصاحب البدنُ القلبَ في سجوده، اكتفىٰ القلبُ بالسجود وحده من خلال وجله واهتزازه وهبوطه خشوعًا لربه.

ومما يلفت الانتباه أن الله ﷻ قد ذمَّ الكافرين لعدم سجودهم عند سماعهم للقرآن ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ٢١﴾ [الانشقاق: ٢٠- ٢١].

وكأن الحال الطبيعي للإنسان عند سماعه للقرآن هو السجود لشدة تأثير القرآن علىٰ المشاعر والقلوب..

وليست هذه الانفعالات وما يصاحبها من قشعريرة ووجل وخشوع وسجود افتراضات نظرية أو أحوال مثالية يذكرها لنا القرآن من باب التحفيز، بل لقد تكررت صورها كثيرًا في الجيل الأول، ولا تزال تتكرر.

۞ أجيبوا داعي الله:

ومن مظاهر تأثير القرآن، والتي حدثتنا عنها الآيات، ما حدث لمجموعة من الجن حينما استمعوا إلىٰ آيات من القرآن فكان أول رد فعل لهم أن قال بعضهم لبعض: (أَنْصِتُوا)!!، ولم يقولوا (اسمعوا) فقد أدهشهم الخطاب، وسيطر عليهم، فتأثروا به تأثرًا بالغًا، وكانت النتيجة السريعة لهذا التأثر هو الرغبة الجارفة بتبليغ ما فهموه من فحوىٰ الخطاب القرآني لقومهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١]

فالآيات تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوه صامتين منتبهين حتىٰ النهاية. فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلىٰ قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به.

وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعا إلىٰ الحركة والاحتفاء بشأنه وإبلاغه للآخرين بجد واهتمام. (١)

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٧٣.

❁ تأثير القرآن على مشركي مكة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ حُدِّثَ: أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَالْأَخْنَسَ بْنَ شَرِيقٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ وَهْبٍ الثَّقَفِيِّ، حَلِيفَ بَنِي زُهْرَةَ، خَرَجُوا لَيْلَةً لِيَسْتَمِعُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسًا يَسْتَمِعُ فِيهِ، وَكُلٌّ لَا يَعْلَمُ بِمَكَانِ صَاحِبِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا.

فَجَمَعَهُمْ الطَّرِيقُ، فَتَلَاوَمُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا تَعُودُوا، فَلَوْ رَآكُمْ بَعْضُ سُفَهَائِكُمْ لَأَوْقَعْتُمْ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا، ثُمَّ انْصَرَفُوا. حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةُ، عَادَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِثْلَ مَا قَالُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ انْصَرَفُوا. حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّالِثَةُ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَجْلِسَهُ، فَبَاتُوا يَسْتَمِعُونَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ تَفَرَّقُوا، فَجَمَعَهُمْ الطَّرِيقُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَا نَبْرَحُ حَتَّىٰ نَتَعَاهَدَ أَلَا نَعُودَ: فَتَعَاهَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ تَفَرَّقُوا».(١)

❁ فما الذي دفعهم لذلك؟!

إنه التأثير القوي للقرآن علىٰ قلوبهم، والذي لم يجعلهم يستطيعون السيطرة علىٰ أنفسهم التواقة للاستماع إليه، فعادوا رغم تعاهدهم علىٰ عدم

(١) سيرة ابن هشام: (١/ ٣١٥).

العودة إلىٰ سماعه. (١)

ولهذا خشوا من هذا التأثير علىٰ عبيدهم وسائر الناس «فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا».

۞ الوليد بن المغيرة:

روت كتب السيرة أن النبي ﷺ قام في المسجد يصلي، والوليد قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتىٰ أتىٰ مجلس قومه من بني مخزوم فقال: «والله لقد سمعت من محمد ﷺ آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلىٰ عليه»، ثم انصرف إلىٰ منزله، فقالت قريش: صبأ والله الوليد، ولتصبأن قريش كلها، فأوفدوا إليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوىٰ الدخول فيه، وما زال به حتىٰ قام معه إلىٰ مجلس قومه، فقال لهم: تزعمون أن محمدا ﷺ مجنون، فهل رأيتموه يحنق قط؟

- تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه قط يتكهن؟

- تزعمون أنه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر مني، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط؟

- تزعمون أنه كذاب، فهل جربتم عليه كذبا؟

---

(١) التعبير القرآني / ١١٤.

يسألهم ويجيبونه: كلا، في كل سؤال، حتىٰ أعياهم أن يردوا كلامه، فقال أبو جهل: لا يرضىٰ عنك قومك حتىٰ تقول فيه.

فقال: دعني حتىٰ أتفكر.

ثم قال: ما هو إلا سحر يؤثر، أَمَا رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر، وهذا هو السحر المبين.(١)

۞ اعترافات عتبة بن ربيعة:

اجتمع المشركون يومًا، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهان والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه، ولينظر ماذا يرد عليه؟

فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد.

فأتاه عتبة فقال: يا محمد أنت خير أم عبدالمطلب؟

فسكت رسول الله ﷺ.

قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فتكلم، حتىٰ نسمع قولك.

إنا والله ما رأينا سخلة قد أشأم علىٰ قومك منك، فرّقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتىٰ لقد طار فيهم: أن في قريش ساحرًا، وأن في قريش كاهنًا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلىٰ، أن يقوم

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: (ص: ٥٦٥).

بعضنا إلىٰ بعض بالسيوف حتىٰ نتفانىٰ.

أيها الرجل: إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا، حتىٰ تكون أغنىٰ قريش رجلًا، وإن كان إنما بك - الباه - فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**فرغت؟**».

قال: نعم!

فقال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت:١-٣] إلىٰ أن بلغ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت:١٣] فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: (لا) فرجع إلىٰ قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرىٰ أنكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم. (١)

وفي رواية ابن إسحاق: فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.. يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوا، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ

(١) البداية والنهاية: (٣/ ٦٨، ٦٩).

العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم. (١)

۞ السجود الجماعي:

- في يوم من الأيام كان رسول الله ﷺ يقرأ سورة النجم عند الكعبة، وكان يستمع لقراءته العديد من المشركين، فسكتوا وأنصتوا، وتأثروا لدرجة أنه عندما بلغ نهاية السورة، وسجد عند قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴾ [النجم:٦٢]، لم يتمالك جميع المستمعين السيطرة علىٰ أنفسهم وخروا ساجدين.

* عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: «قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ النَّجْمَ بِمَكَّةَ فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى - أَوْ تُرَابٍ - فَرَفَعَهُ إِلَىٰ جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا»، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا. (٢)

سجدوا وهم مشركون.. وهم يمارون في الوحي والقرآن.. وهم يجادلون في الله والرسول!

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت علىٰ قلوبهم والرسول ﷺ يتلو هذه السورة عليهم، وفيهم المسلمون والمشركون. ويسجد فيسجد الجميع.

- لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن؛ ولا أن يتماسكوا لهذا

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ٢٩٤).
(٢) البخاري: (١٠٦٧)، ومسلم: (٥٧٦).

السلطان.. ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون.

بهذا تواترت الروايات، ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب، وما هو في الحقيقة بغريب، فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب.

۞ خوف المشركين من فتنة نسائهم وأولادهم بسماعهم للقرآن:

* عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ، إِلَّا وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلَّا يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ، بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ وَأَعْبُدَ رَبِّي.

قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ، فَأَنَا لَكَ جَارٌ ارْجِعْ وَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبَلَدِكَ، فَرَجَعَ وَارْتَحَلَ مَعَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ.

فَطَافَ ابْنُ الدَّغِنَةِ عَشِيَّةً فِي أَشْرَافِ قُرَيْشٍ. فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلَا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يَكْسِبُ المَعْدُومَ وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ، فَلَمْ تُكَذِّبْ قُرَيْشٌ بِجِوَارِ ابْنِ الدَّغِنَةِ.

وَقَالُوا: لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ فِيهَا وَلْيَقْرَأْ مَا

شَاءَ، وَلَا يُؤْذِينَا بِذَلِكَ وَلَا يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا نَخْشَىٰ أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا.

فَقَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لِأَبِي بَكْرٍ، فَلَبِثَ أَبُو بَكْرٍ بِذَلِكَ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلَا يَسْتَعْلِنُ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَقْرَأُ فِي غَيْرِ دَارِهِ.

ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَنْقَذِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ، وَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ.

فَقَالُوا: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ بِجِوَارِكَ، عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَقَدْ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَىٰ مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، فَأَعْلَنَ بِالصَّلَاةِ وَالقِرَاءَةِ فِيهِ، وَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَانْهَهُ.

فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَىٰ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَىٰ إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ بِذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا قَدْ كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلَانَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَتَىٰ ابْنُ الدَّغِنَةِ إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذِي عَاقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيَّ ذِمَّتِي، فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أَنِّي أُخْفِرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ، وَأَرْضَىٰ بِجِوَارِ اللهِ. (١)

---

(١) صحيح البخاري: (٣٩٠٥).

- فهذه الأخبار تؤكد إقرار المشركين بقوة تأثير القرآن، ولولا الكبر والعناد والحرص علىٰ استمرار نفوذهم ومكاسبهم لأسلموا، ويكفي تواصيهم فيما بينهم بالاجتهاد في الحيلولة بين الناس وبين سماعهم للقرآن حتىٰ لا يتأثروا بسماعه فيؤمنوا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصلت:٢٦].

- من هنا ندرك حكمة تكليف المسلم بأن يمكن المشركين من سماع كلام الله ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة:٦]، ولم يكلف المسلم بما بعد السماع.. فالإسماع هو الأداة الأولىٰ والمباشرة لنقل كلام الله إلىٰ الآخرين، وهو الوسيلة الأنسب لفتح القلوب إلىٰ هدىٰ الله.(١)

❁ القرآن كان السبب الأول لإسلام الأوائل:

وفي مقابل تأثر الكافرين بالقرآن مع عدم إسلامهم بسبب كبرهم وعنادهم، وحرصهم علىٰ مصالحهم؛ نجد أن العامل المشترك لإسلام من أسلم من المسلمين الأوائل هو سماعهم للقرآن أيضًا وهذه بعض النماذج:

١ - إسلام عمر بسماع القرآن:

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة إسلامه: كُنْتُ لِلْإِسْلَامِ مُبَاعِدًا، وَكُنْتُ صَاحِبَ خَمْرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أُحِبُّهَا وَأَشْرَبُهَا، وَكَانَ لَنَا مَجْلِسٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِالْحَزْوَرَةِ عِنْدَ دَارِ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بْنِ مَخْزُومٍ،

(١) التعبير القرآني ١٠٧، ١٠٨.

قَالَ: فَخَرَجْتُ لَيْلَةً أُرِيدُ جُلَسَائِي أُولَئِكَ فِي مَجْلِسِنَا ذَاكَ، فَلَمْ أَجِدْ مِنْهُمْ أَحَدًا، قَالَ: فَقُلْتُ: لَوْ أَنِّي جِئْتُ فُلَانًا، خَمَّارًا كَانَ بِمَكَّةَ، رَجُلٌ يَبِيعُ الْخَمْرَ، لَعَلِّي أَجِدُ عِنْدَهُ خَمْرًا فَأَشْرَبُ مِنْهَا، قَالَ: فَجِئْتُهُ فَلَمْ أَجِدْهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَوْ جِئْتُ الْكَعْبَةَ فَطُفْتُ بِهَا سَبْعًا أَوْ سَبْعِينَ، قَالَ: فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ أُرِيدُ أَنْ أَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي، وَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ اسْتَقْبَلَ الشَّامَ وَجَعَلَ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ، كَانَ مُصَلَّاهُ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ: الرُّكْنِ الْأَسْوَدِ وَالرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ، قَالَ: فَقُلْتُ حِينَ رَأَيْتُهُ: وَاللهِ، لَوْ أَنِّي اسْتَمَعْتُ بِمُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ حَتَّىٰ أَسْمَعَ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَئِنْ دَنَوْتُ مِنْهُ أَسْمَعُ مِنْهُ لَأُرْوِعَنَّهُ، قَالَ: فَجِئْتُ الْكَعْبَةَ مِنْ قِبَلِ الْحِجْرِ فَدَخَلْتُ تَحْتَ ثِيَابِهَا فَجَعَلْتُ أَمْشِي رُوَيْدًا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، حَتَّىٰ قُمْتُ فِي قِبْلَتِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا ثِيَابُ الْكَعْبَةِ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ الْقُرْآنَ رَقَّ لَهُ قَلْبِي، فَبَكَيْتُ وَدَخَلَنِي الْإِسْلَامُ. (١)

٢ - إسلام الطفيل بن عمرو بسماع القرآن:

- كَانَ الطُّفَيْل بْنُ عَمرو الدَّوْسِيُّ يُحَدِّثُ: أَنَّهُ قَدِمَ مكةَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِهَا، فَمَشَىٰ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ الطُّفيل رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا، فَقَالُوا لَهُ: يَا طُفَيْلُ، إِنَّكَ قَدِمْتَ بلادَنا، وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أعضَل بِنَا (٢)، وَقَدْ فرَّق جَمَاعَتَنَا، وشتَّت أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كالسحرِ يفرِّق بَيْنَ الرجلِ وبينَ أَبِيهِ، وبينَ الرجلِ وَبَيْنَ أَخِيهِ، وَبَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ زوجتِه، وَإِنَّا نَخْشَىٰ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ قومِك مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا، فَلَا تكلمنَّه وَلَا تسمعنَّ منه

(١) فضائل الصحابة: (٣٧٤).

(٢) أعضل: اشتد أمره.

شيئًا.

استماعه للرسول ﷺ:

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّىٰ أجمعتُ ألا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلِّمَهُ، حَتَّىٰ حشوتُ فِي أُذُنَيَّ حِينَ غَدَوْتُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ كُرْسُفًا (١) فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَنَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسمعَه. قَالَ: فغدوْت إِلَىٰ المسجدِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قائمٌ يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ. قَالَ: فَقُمْتُ مِنْهُ قَرِيبًا، فَأَبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُسْمِعَنِي بعضَ قولِه. قَالَ: فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا. قَالَ: فقلتُ فِي نَفْسِي: واثُكْلَ أُمِّي، وَاللهِ إِنِّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَىٰ عليَّ الحسنُ مِنْ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أسمعَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ مَا يَقُولُ! فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَسَنًا قَبِلْتُهُ، وَإِنْ كَانَ قبيحًا تركته.

قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتَّىٰ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ بَيْتِهِ فَاتَّبَعْتُهُ، حَتَّىٰ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ قومَك قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وكذا، للذي قالوا؛ فوالله ما بَرحوا يخوِّفونني أمرَك حَتَّىٰ سَددت أُذُنَيَّ بكُرْسُف لِئَلَّا أسمعَ قَوْلَكَ، ثُمَّ أَبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُسمعني قولَك، فَسَمِعْتُهُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عليَّ أمرَك. قَالَ: فَعَرَضَ عليَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الإسلامَ، وَتَلَا عليَّ الْقُرْآنَ، فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قطُّ أحسنَ مِنْهُ، وَلَا أَمْرًا أعدلَ مِنْهُ. قَالَ: فأسلمتُ وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الحقِّ. (٢)

---

(١) الكرسف: القطن.

(٢) سيرة ابن هشام: (٢/ ٢٢/ ٢٣).

٣ - إسلام الجبير بن مطعم بسماع القرآن:

- يقول الجبير بن مطعم: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]» قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.(١)، وفي رواية قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي».(٢)

٤ - إسلام النجاشي بسماع القرآن:

- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ابْنَةِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ، النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَىٰ دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ لَا نُؤْذَىٰ، وَلا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَىٰ كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ، قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ، وَعِنْدَ

(١) صحيح البخاري: (٤٨٥٤).
(٢) صحيح البخاري: (٤٠٢٣).

خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَىٰ بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَىٰ الْمَلِكِ فِيهِمِ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِنَرُدَّهُمِ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمِ إِلَيْنَا وَلا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعَلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمِ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ، فَقَالا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَىٰ بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمِ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ، وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، لِتَرُدَّهُمِ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعَلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلامَهُمْ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعَلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَأَسْلِمْهُمِ إِلَيْهِمَا، فَلْيَرُدَّاهُمِ إِلَىٰ بِلادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، قَالَت: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ، ثُمَّ قَالَ: لَا هَا اللهِ، ايْمُ اللهِ إِذَنْ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلا أُكَادُ قَوْمًا جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَىٰ مَنْ سِوَايَ حَتَّىٰ أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولانِ أَسْلَمْتُهُمِ الَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمِ الَىٰ قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي. قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَعَاهُمْ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا عَلَّمَنَا،

وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ. فَلَمَّا جَاءُوهُ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ، فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَتْ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، «فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ»، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَىٰ بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم:١]، قَالَتْ: فَبَكَىٰ وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلا

عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللهِ لَا أُسْلِمُهُمِ الَيْكُمِ ابَدًا، وَلا أُكَادُ. (١)

٥ - إسلام وفد من نصارى الحبشة بسماع القرآن:

- عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: «ثُمَّ قَدِمَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِشْرُونَ رَجُلًا وَهُوَ بِمَكَّةَ أَوْ قَرِيبٍ مِنْ ذَلِكَ مِنَ النَّصَارَىٰ حِينَ ظَهَرَ خَبَرُهُ مِنَ الْحَبَشَةِ فَوَجَدُوهُ فِي الْمَجْلِسِ فَكَلَّمُوهُ وَسَاءَلُوهُ، وَرِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَمَّا أَرَادُوا، دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَىٰ اللهِ ﷻ وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا سَمِعُوا فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ ثُمَّ اسْتَجَابُوا لَهُ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يُوصَفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ، فَلَمَّا قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: خَيَّبَكُمُ اللهُ مِنْ رَكْبٍ: بَعَثَكُمْ مَنْ وراكم مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ لَهُمْ، فَتَأْتُونَهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ فَلَمْ نَطْمَئِنْ مَجَالِسَكُمْ عِنْدَهُ حَتَّىٰ فَارَقْتُمْ دِينَكُمْ وَصَدَّقْتُمُوهُ بِمَا قَالَ لَكُمْ، مَا نَعْلَمُ رَكْبًا أَحْمَقَ مِنْكُمْ أَوْ كَمَا قَالُوا لَهُمْ، فَقَالُوا: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نُجَاهِلُكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا نَأْلُوا أَنْفُسَنَا خَيْرًا». (٢)

كيف أسلم أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ؟

إن السيرة مليئة بالأحداث التي تؤكد هذا المعنىٰ وكيف أن الأثر الذي كان يُحدثه القرآن في نفس مستمعه هو السبب المباشر في إسلام الأنصار، ومن قبلهم المهاجرين.

---

(١) مسند أحمد: (٣/ ٢٦٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي: (٢/ ٣٠٦).

فهذا هو أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وكانا سيدي (الأوس)، قد عزما علىٰ إخراج مصعب بن عمير من يثرب بعد أن تزايد عدد من أسلم من أهلها علىٰ يديه، و كان مصعب في بستان من بساتين بنىٰ (عبد الأشهل) يدعو الناس إلىٰ الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن.

* قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُغِيرَةِ بْنِ مُعَيْقِيبٍ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ مَعَ النَّفَرِ الِاثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ بَايَعُوهُ فِي الْعَقَبَةِ الْأُولَىٰ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ يُفَقِّهُ أَهْلَهَا، وَيُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ يَقُولُ: مَا أَدْرِي مَا الْعَقَبَةُ الْأُولَىٰ؟ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: بَلَىٰ لَعَمْرِي، لَقَدْ كَانَتْ عَقَبَةٌ وَعَقَبَةٌ قَالَا: وَكَانَ مَنْزِلُهُ عَلَىٰ أَسْعَدَ ابْنِ زُرَارَةَ، وَكَانَ إِنَّمَا يُسَمَّىٰ بِالْمَدِينَةِ الْمُقْرِئَ، فَخَرَجَ بِهِ يَوْمًا أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ إِلَىٰ دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَدَخَلَ بِهِ حَائِطًا مِنْ حَوَائِطِ بَنِي ظَفَرٍ، وَهِيَ قَرْيَةُ لِبَنِي ظَفَرٍ دُونَ قَرْيَةِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ - وَكَانَا ابْنَيْ عَمٍّ - يُقَالُ لَهَا بِئْرُ مَرْقٍ فَسَمِعَ بِهِمَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَكَانَ ابْنُ خَالَتِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ، فَقَالَ لِأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ: ائْتِ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ فَازْدَجِرْهُ عَنَّا فَلْيَكُفَّ عَنَّا مَا نَكْرَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ جَاءَ بِهَذَا الرَّجُلِ الْغَرِيبِ مَعَهُ يَتَسَفَّهُ بِهِ سُفَهَاؤنَا وَضُعَفَاؤُنَا، فَإِنَّهُ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ. فَأَخَذَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ الْحَرْبَةَ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ أَتَاهُمَا، فَلَمَّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ: هَذَا وَاللهِ سَيِّدُ قَوْمِهِ، قَدْ جَاءَكَ فَأَبْلِ اللهَ فِيهِ بَلَاءً حَسَنًا. قَالَ: إِنْ يَقْعُدْ أُكَلِّمْهُ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتِّمًا فَقَالَ: يَا أَسْعَدُ مَا لَنَا وَلَكَ تَأْتِينَا بِهَذَا الرَّجُلِ الْغَرِيبِ يَسْفَهُ بِهِ سُفَهَاؤُنَا وَضُعَفَاؤُنَا، فَقَالَ: أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ؟ فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ كُفَّ عَنْكَ مَا تَكْرَهُ. فَقَالَ: قَدْ أَنْصَفْتُمْ، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ، فَكَلَّمَهُ مُصْعَبُ بْنُ

عُمَيْرٍ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَوَاللهِ لَعَرَفْنَا الْإِسْلَامَ فِي وَجْهِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِتَسَهُّلِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ وَكَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا دَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟ قَالَا: تَغْتَسِلُ، وَتُطَهِّرُ ثِيَابَكَ، وَتَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَتُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَفَعَلَ. ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: إِنَّ وَرَائِي رَجُلًا مِنْ قَوْمِي إِنْ تَابَعَكُمَا لَمْ يُخَالِفْكُمَا أَحَدٌ بَعْدَهُ. ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ مُقْبِلًا قَالَ: أَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ رَجَعَ عَلَيْكُمْ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ، مَاذَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: قَدِ ازْدَجَرْتُهُمَا، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي حَارِثَةَ يُرِيدُونَ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ لِيُخْفِرُوكَ فِيهِ، لِأَنَّهُ ابْنُ خَالَتِكَ، فَقَامَ إِلَيْهِ سَعْدٌ مُغْضَبًا فَأَخَذَ الْحَرْبَةَ مِنْ يَدِهِ قَالَ: وَاللهِ مَا أَرَاكَ أَغْنَيْتَ شَيْئًا، ثُمَّ خَرَجَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَدْ طَلَعَ عَلَيْهِمَا قَالَ لِمُصْعَبٍ: هَذَا وَاللهِ سَيِّدُ مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ، إِنْ هُوَ تَابَعَكَ لَمْ يُخَالِفْكَ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاصْدُقِ اللهَ فِيهِ، فَقَالَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ: إِنْ يَسْمَعْ مِنِّي أُكَلِّمْهُ فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمَا قَالَ: يَا أَسْعَدُ مَا دَعَاكَ إِلَىٰ أَنْ تَغْشَانِي بِمَا أَكْرَهُ - وَهُوَ مُتَشَتِّمٌ - أَمَا وَاللهِ لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا طَمِعْتَ فِي هَذَا مِنِّي، فَقَالَ لَهُ: أَوْ تَجْلِسَ فَتَسْمَعَ، فَإِنْ رَضِيتَ أَمْرًا قَبِلْتَهُ، وَإِنْ كَرِهْتَهُ أُعْفِيتَ مِمَّا تَكْرَهُ. قَالَ: أَنْصَفْتُمَانِي، ثُمَّ رَكَزَ الْحَرْبَةَ وَجَلَسَ فَكَلَّمَهُ مُصْعَبٌ وَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَوَاللهِ لَعَرَفْنَا فِيهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِتَسَهُّلِ وَجْهِهِ. ثُمَّ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا وَكَيْفَ تَصْنَعُونَ إِذَا دَخَلْتُمْ فِي هَذَا الدِّينِ؟ فَقَالَا لَهُ: تَغْتَسِلُ، وَتُطَهِّرُ ثِيَابَكَ وَتَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَتَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخَذَ الْحَرْبَةَ وَانْصَرَفَ عَنْهُمَا إِلَىٰ قَوْمِهِ. فَلَمَّا رَآهُ رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالُوا: نُقْسِمُ بِاللهِ، لَقَدْ رَجَعَ إِلَيْكُمْ سَعْدٌ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدَكُمْ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ:

أَيُّ رَجُلٍ تَعْلَمُونِي فِيكُمْ؟ قَالُوا: نَعْلَمُكَ وَاللهِ خَيْرَنَا وَأَفْضَلَنَا فِينَا رَأْيًا. قَالَ: فَإِنَّ كَلَامَ نِسَائِكُمْ وَرِجَالِكُمْ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَتَصَدِّقُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَوَاللهِ مَا أَمْسَىٰ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا، ثُمَّ انْصَرَفَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَىٰ مَنْزِلِ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ. (١)

الدليل الدامغ:

- ومع كل مظاهر التأثير القرآني السابق ذكرها، إلا أن أهم مظهر لقوة تأثير المعجزة القرآنية هو التحول العظيم الذي حدث لجيل الصحابة، والتغيير الجذري الذي حدث لهم بعد إسلامهم...

- هذا الجيل الذي يمثل نموذجًا لأمة العرب، والتي كانت قبل الإسلام في ذيل الأمم من حيث التقدم والحضارة وامتلاك أسباب القوة والمنعة، وكان أفرادها يغرقون في الظلام والتخلف والجاهلية، وكان حالهم أسوأ بكثير من حالنا الآن، وكيف لا، وقد كانوا يقومون بأفعال لو حدثت بيننا لقامت الدنيا ولم تقعد، ويكفيك في تأكيد هذا المعنىٰ تلك القصة:

قال «القرطبي»: «إنه كان من العرب من يقتل ولده خشية الإملاق، كما ذكر الله ﷻ في غير هذا الموضع. وكان منهم من يقتله سفهًا بغير حجة منهم في قتلهم، وهم ربيعة ومضر، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية. ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالبنات. وروي أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ وكان لا يزال مغتمًّا بين يدي رسول الله ﷺ فقال له

(١) دلائل النبوة للبيهقي: (٢/ ٤٣٨/ ٤٤٠).

رسول الله ﷺ: «**مالك تكون محزونًا؟**».

فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبًا في الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله لي وإن أسلمت.

فقال له: «**أخبرني عن ذنبك**»، فقال: يا رسول الله، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فتشفعت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتىٰ كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زواج، فقلت للمرأة: إني أريد أن أذهب إلىٰ قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي، فسرت بذلك وزينتها بالثياب والحلي، وأخذت علي المواثيق بألا أخونها، فذهبت إلىٰ رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني، وجعلت تبكي، وتقول: يا أبت، أيش تريد أن تفعل بي؟ فرحمتها، ثم نظرت في البئر فدخلت علي الحمية، ثم التزمتني وجعلت تقول: يا أبت، لا تضيع أمانة أمي! فجعلت مرة انظر في البئر ومرة أنظر إليها فأرحمها حتىٰ غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر: يا أبت، قتلتني. فمكثت هناك حتىٰ انقطع صوتها فرجعت. فبكىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال: «**لو أمرت أن أعاقب أحدًا بما فعل في الجاهلية لعاقبتك**»(١).

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: (٩/ ٩٣)، تفسير القرطبي: (٧/ ٩٧)..

❁ أمة عجيبة:

لقد كان العرب قبل الإسلام يعبدون الحجارة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام ويسيئون الجوار، ويأكل القوىٰ منهم الضعيف.

✍ **يقول أبو رجاء العطاردي** رضي الله عنه: «كنا في الجاهلية نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا أَخْيَرَ منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا به». (١)

- هذه- نماذج لما كان عليه الجيل الأول قبل الإسلام.. هذا الجيل بهذه الحالة، حين أحسن أفراده استقبال القرآن، والتعرض الصحيح له؛ أحسن القرآن وفادتهم وقام بعمله خير قيام معهم، وأخرجت مدرسته جيلًا فريدًا وبأعداد كبيرة، فانتقلت أمتهم متوثبة من الساقة إلىٰ المقدمة وذلك في سنوات معدودة..

✍ **يقول الشيخ محمد الغزالي** رحمه الله: والأمة التي نزل عليها القرآن فأعاد صياغتها، هي المعجزة التي تشهد للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه أحسن بناء الأجيال، وأحسن تربية الأمم، وأحسن صياغة جيل قدم الحضارة القرآنية للخلق.. فنحن نرىٰ أن العرب عندما قرأوا القرآن، تحولوا تلقائيًّا إلىٰ أمة تعرف الشورىٰ وتكره الاستبداد، إلىٰ أمة يسودها العدل الاجتماعي ولا يعرف فيها نظام الطبقات، إلىٰ أمة تكره التفرقة العنصرية، وتكره أخلاق الكبرياء والترفع علىٰ الشعوب.

---

(١) البخاري: (٤٣٧٦) وجثوة من تراب هي القطعة من التراب تجمع فتصير كوما.

ووجدنا بدويًّا كربعي بن عامر رضي الله عنه يقول لقائد الفرس: جئنا نخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام.. إنهم فتح جديد للعالم، وحضارة جديدة أنعشت الإنسانية ورفعت مكانتها، لأن الأمة الإسلامية كانت في مستوىٰ القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية إنما جاءت ثمرة لبناء القرآن للإنسان..

لذلك بدأت تختفي الآثار الفكرية والنفسية لآداب الفرس، ولفلسفة الروم، لأن القرآن الكريم جاء بجديد: حول الكلام والتوجيه من تجريدات ذهنية نظرية جدلية ـ كما يفعل الفرس واليونان والرومان ـ إلىٰ منطق ملاحظة واستقراء، ومنطق وعي الكون واحترامه، والتعرف علىٰ سننه ومشروعية التعامل معه لعمارة الأرض وبناء الحضارة. فالفكر الإغريقي فكر تجريدي، يرىٰ أن المادة خسيسة، وأن المعنويات هي في الاستعلاء علىٰ المادة. (١)

✍ **لذلك فلقد أصاب الإمام القرافي حين قال:** لو لم يكن لرسول الله ﷺ معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته. (٢)

***

(١) كيف نتعامل مع القرآن: (ص: ٢٨)

(٢) الفروق للقرافي ٤/ ١٧٠.

المطلب الثاني

الوصال بين القلب والقرآن

إننا بعد أن نوقن أن القرآن روح القلوب وقوتها، من المفروض أن نبحث وبِجِد واهتمام كيف يحدث الوصال بين قلوبنا وبين كلام ربنا وخالقنا؟

خصوصًا وأننا ابتعدنا عن القرآن، وتوارثت الأمة - جيلًا بعد جيل- تعاملًا خاطئا مع القرآن، ورسخ في الأذهان مفاهيم خاطئة حول الطريقة المثلىٰ لخدمته، وأن غاية المطلوب منه هو إتقان تلاوته، وحفظ حروفه، وكثرة قراءته لتحصيل الأجر والبركة دون ربط هذا كله بمعانيه.. مع أن النصوص القرآنية واضحة الدلالة بأن المقصود من قراءة القرآن: فهمة وتدبره، والفقه فيه والعمل به، وما التلاوة والسماع والحفظ إلا وسائل للانتفاع بكنوزه، كما قال بعض السلف: نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملا، ولهذا يقول ابن القيم: كَانَ أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمُونَ بِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ. (١)

- إن النصوص الدالة علىٰ مكانة وقيمة القرآن كثيرة، إلا أنها لم تقع

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: (١/ ٣٢٧).

مواقعها الصحيحة في النفوس!!

فما الحل إذن وغالبية المسلمين لم يعودوا يدركون قيمة القرآن الحقيقية، ومقصد نزوله قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

إنه أمر غاية في الصعوبة أن يكون دواء أحدنا في يديه، ثم يُعرض عنه، ليترك المرض يفتك بجسده ويهلكه.

كما أن الكثير منا يشكو مرض قلبه وضعف إيمانه، فإن دللته علىٰ القرآن، فإن الصورة الذهنية التي تقفز للأذهان عند الحديث عن القرآن صورة ناقصة مشوهة لا تُعطي لهذا الكتاب إلا قدسية شكلية فقط، ولا تربط بينه وبين وظائفه الحقيقية في التغيير والشفاء.

۞ الإيمان أولاً:

إذا ما شخَّصنا حالَنَا مع القرآن، وبحثنا عن السبب الرئيس لهذا الوضع الشاذ من عدم إدراك قيمة القرآن الحقيقية لوجدناه نابعًا من ضعف الإيمان بقيمة القرآن وقدرته الفذة علىٰ إنشاء الإيمان وإحداث التغيير.

✍ **ومما يؤكد هذا المعنىٰ قول عبد الله بن عمر**: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحْدَثَنَا يُؤْتَىٰ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ

الْقُرْآنَ»، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ».(١)

- إذن أفاد قولُ ابنِ عمر: «وَأَحَدُنَا يُؤْتَىٰ الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ» أن الإيمان الذي أشار إليه ابن عمر، هو الإيمان بأن القرآن إنما أُنزل لتدبر آياته والعمل بما فيه.

وذلك الإيمان هو الذي دفع الصحابة رضوان الله عليهم لتحقيق النصيحة لكتاب الله علىٰ ذلك الوجه، فكانوا فور نزول السورة أو الآية يبادرون لتعلمها والعمل بها، كما قال ابن عمر في حديثه السابق: وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا.

- وأفاد قول ابن عمر أيضًا: أن سبب التقصير في العمل بكتاب الله يرجع إلىٰ عدم تمكن ذلك الإيمان من القلوب «لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَىٰ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ».

- فالصحابة حين أوتوا الإيمان بقيمة القرآن، لم يكونوا يقرؤونه بقصد الثقافة والاطلاع، ولا بقصد التذوق والمتاع.. لم يكن أحدهم يتلقىٰ القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة فحسب.. وإنما كان يتلقىٰ القرآن ليعرف أمر الله في

(١) المستدرك: (١/ ٩١)، السنن الكبرىٰ للبيهقي: (٥٢٩٠).

خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته.. يتلقىٰ الأمر ليعمل به فور سماعه، كما يتلقىٰ الجندي في الميدان الأمر اليومي ليعمل به فور تلقيه.

❁ نقطة البداية الصحيحة:

إن الإيمان بقيمة الشيء – أي شيء – هو الذي يولد الانبهار به، والاستسلام له، وفتح منافذ الاستماع والتلقي منه، و العكس صحيح فعدم الإيمان بالشيء يدفع لإغلاق منافذ الاستماع له، وعدم الاكتراث به.

بمثل هذا تحدث عيسىٰ عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩].

وهنا نلحظ ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران:٤٩]، فإن لم تكونوا مؤمنين بي كرسول فلن تستقبلوا هذا الآيات استقبالا صحيحًا.

– **وفي قصة طالوت:** ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨].

وهنا نلحظ أيضًا ختام الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٨]، فإن لم يكونوا مؤمنين بنبيهم فلن يستقبلوا هذا الآية استقبالا صحيحًا.

ونفس الأمر بالنسبة للقرآن فإن لم يزدد الإيمان بقيمة القرآن، وبالهدف من نزوله، وبأنه قادر – بإذن الله – علىٰ انتشالنا من الوحل الذي نغوص فيه، فإن أي كلام يقال عن تدبر القرآن، والتمهل في حفظه، وضرورة التخلق بأخلاقه لن يجد الاستجابة الكافية في نفوس مستمعيه..

* **من هنا نقول**: إن نقطة البداية الصحيحة للانتفاع بالقرآن هي العمل علىٰ زيادة الإيمان به في القلوب، فكلما ازداد الإيمان: ازداد التلهف للإقبال عليه، والاستسلام له، والانجذاب نحوه، والانشغال به.

فكيف لنا أن نترجم هذا الكلام النظري إلىٰ واقع عملي، ليحدث الوصال بين القلب والقرآن؟!

هناك ثلاثة محاور ينبغي أن نسير فيها مجتمعة حتىٰ يتحقق لنا – بمشيئة الله – الهدف الذي نصبو إليه.

* **وهذه المحاور هي:**

أولاً: تقوية الرغبة والدافع للانتفاع الحقيقي بالقرآن

الخطوة الأولىٰ في طريق العودة إلىٰ القرآن، وتوجيه القلب نحو أنواره هي زيادة الثقة فيه، والتعرف علىٰ قيمته الحقيقية، وكيف أنه قادر – بإذن الله – علىٰ إحياء قلوبنا وتغيير ما بأنفسنا.

يقول السعدي في قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف:٧]: آيات لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات.(١) فالرغبة في الشيء تولد الشعور بالاحتياج إليه، ومن ثَمَّ الانتفاع به.

المحور الثاني: الإلحاح على الله ﷻ

لا بد أن نوقن أن الذي سيفتح لنا قلوبنا ليحدث الوصال بينها وبين القرآن هو الله وحده لا شريك له قال أعزُّ من قال: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ:٥٠].

فلا بد وأن يصدر أولًا القرار الإلهي بالوصال وإلا سيكون حالنا ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤].

ألم يقل سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٨]؟!

ومع ذلك، وحتىٰ لا يدَّعي أحد بأن الأمر ليس بيده، وأنه منتظر لهداية ربه، فقد ربط سبحانه بين إمداده وعطائه للعبد، وبين مدىٰ حرص هذا العبد واستعداده لتلقي هذا العطاء ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤﴾ [الجن:١٤].

وفي الحديث القدسي يقول تعالىٰ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ،**

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٣٩٤).

فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ».(١)

فالجملة الأولىٰ «**كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ**» تحصر وتقصر الهداية علىٰ الله ﷻ، والجملة الثانية: «**فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**» تبين دور العبد في استجلاب تلك الهداية.

فإن كانت الهداية من الله، فالبداية من العبد يطلبها بلسان حاله أو مقاله.

❁ عون الله للعبد على قدر عزمه:

يقول ابن رجب: عون الله للعبد علىٰ قدر قوة عزيمته وضعفها، فمن صمم علىٰ إرادة الخير أعانه الله وثبته.

علىٰ قدر أهل العزم تأتي العزائم... وتأتي علىٰ قدر الكرام المكارم

ولهذا سمىٰ الله خواصّ الرسل: أولوا العزم.

واعلم أن العزيمة علىٰ الرشد مبدأ الخير، فإن الإنسان قد يعلم الرشد وليس له عليه عزم.

فالخير كله منوط بالعزيمة الصادقة علىٰ الرشد، وهي الحملة الأولىٰ التي تهزم جيوش الباطل، وتوجب الغلبة لجنود الحق، قال أبو حازم: إذا عزم العبد علىٰ ترك الآثام، أتته الفتوح.

ويكفيك مثالًا لهذا ما حدث من عمر بن عبد العزيز عندما دُفن سليمان

---

(١) صحيح مسلم: (٢٥٧٧).

بن عبد الملك قُرِّب إليه موكب الخلافة فتركه وركب بغلته، وصار مستصحبا لتلك العزيمة، فعلم الله صدقه فيها فأعانه عليها.(١)

۞ فهل تريد الانتفاع بالقرآن؟!

ما عليك إذن إلا أن تستصحب عزيمة صادقة في ذلك، ثم تترجم هذه الرغبة والعزيمة في صورة دعاء وطلب من الله ﷻ بأن يبلغك مرادك.

۞ فإذا عزم الأمر:

وهذا هو بيت القصيد: أن نصدق الله في طلب الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

ألم يقل سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد:٢١]، فالأمر قد عزم الآن، ولا يبقىٰ إلا الصدق مع الله، ودوام الإلحاح عليه، وأن يكون حالنا معه – سبحانه – كحال الطفل الذي يريد حاجة من أبيه، فلا تجده ييأس أبدًا من طلب حاجته رغم رفض أبيه المتكرر، ويظل الطفل في إلحاحه المستمر ويظل أبوه يرفضه حتىٰ يتحول الرفض إلىٰ استجابة أمام ذلك السيل من الإلحاح.

ولله المثل الأعلىٰ، فَلْنَصْدُقِ الله في طلبنا، ولنُلِح عليه في الطلب، فإن تأخرت الإجابة فعلينا ألا نيأس، فربنا – سبحانه وتعالىٰ – أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، وهو ينتظر منا أي التفاتة نحوه ليقبل علينا، فإنْ تأخرَّ الإمدادُ، فلحكمة يعلمها هو، ولخير كبير ينتظرنا شريطة ألا نبرح بابه، وأن

(١) مجموع رسائل ابن رجب ١/ ٣٤٣- ٣٤٨ باختصار.

نستمر في الإلحاح عليه، مع إظهار عظيم افتقارنا وحاجتنا إلىٰ جوده.

المحور الثالث: الإكثار من تلاوة القرآن بتفهم وترتيل وصوت حزين

المحور الثالث الذي ينبغي أن يسير جنبًا إلىٰ جنب بجوار المحورين السابقين هو الإكثار من تلاوة القرآن بتفهم وترتيل وصوت حزين.

***

المطلب الثالث

كيفية التغيير القرآني للقلب

إن القلب هو الملك علىٰ جميع الأعضاء، وما من عمل تقوم به الجوارح إلا ويمر من خلال القلب ويأخذ موافقته ورضاه عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام:١١٣].

فالسلوك يبدأ - كما توضح الآية - بإصغاء من القلب لصوت العقل ثم رضا بذلك لتكون النتيجة اقتراف الفعل، وهذا ما يؤكده كذلك قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤]، أي: أنصتت قلوبكما لصوت العقل وارتضته فكانت التوبة.

فالاقتناع العقلي هو نقطة البداية التي لابد أن يتبعها إصغاء من القلب ثم رضًا منه بمقتضياته.. ولكن قد يقتنع العقل بقضية من القضايا لكن القلب لا يستطيع أن يتخذ القرار بتنفيذ مقتضىٰ هذا الاقتناع.. أتدرون لماذا؟!

لغلبة سلطان النفس وهواها وسيطرتها عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠].

❁ فما هو الهوى وما مدى علاقته بالقلب؟

القلب بين الإيمان والهوى:

من تعريفات القلب أنه مجموعة المشاعر والعواطف داخل الإنسان من حب وكُرْه، وفرح وخوف ورجاء، والقلب كما نعلم هو الملك على سائر الأعضاء كما في الحديث: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**».(١)...

هذا القلب يتجاذبه طرفان: إيمان وهوى.

أما الإيمان: فهو تصديق القلب لحقائق العقل، أو بمعنى آخر: اتجاه المشاعر لما قرره العقل من حقائق، فالإيمان محله القلب كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

والإيمان مشاعر كما في الحديث: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».(٢)

وأما الهوى: فهو اتجاه المشاعر لما تميل إليه النفس من شهوات حسية كانت أو معنوية.

وعلى قدر قوة أحد الطرفين - الإيمان أو الهوى - تكون له الغلبة على

---

(١) رواه البخاري: (٥٢)، ومسلم: (١٥٩٩).

(٢) رواه البخاري: (٦٥٤٢)، ومسلم: (١٧٤).

إرادة القلب، ومن ثَمَّ يكون من نصيبه الأمر الصادر من القلب إلي للجوارح.

ففي الحديث: «**لَا يَزْنِي العَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**».(١)

فلحظات الزنىٰ أو السرقة أو القتل عكست انتصار الهوىٰ علىٰ الإيمان، وقوة سيطرته علىٰ المشاعر.

إذن فعندما نرىٰ سلوكًا معوجًا من شخص ما: كمن بدأ يتهاون في أداء الصلاة، أو من يطلق بصره إلىٰ المحرمات، فإن هذا يعكس قوة سلطان الهوىٰ علىٰ مشاعره، ومن ثَمَّ فإن الطريقة الصحيحة لتقويمه ليست بإنكار أفعاله فقط، فهو يعلم جيدًا خطأ ما يفعل، وإنما تكون بالعمل علىٰ زيادة الإيمان في قلبه ليصبح هو الدافع للأعمال. وهذا ما نلحظه في قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

وفي الدعاء: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**»(٢).

مرض القلب وصحته:

معنىٰ مرض القلب: أي عدم صحته، أو بعبارة أخري: اتجاه مشاعره نحو الهوىٰ حتىٰ يسيطر عليه، وبقدر هذه السيطرة يكون المرض، وعندما

(١) أخرجه البخاري: (٦٤٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي: (٣٥٠٢)، وصحيح الجامع: (١٢٦٨).

تتجه المشاعر كلها للهوىٰ يتمكن المرض من القلب وتنتفي عنه الصحة، ويصبح داعي الهوىٰ هو الآمر الناهي المطاع، كما صور ذلك القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

وصور اتباع الهوىٰ كثيرة، وتشمل كل ما تميل إليه النفس، ويجمعها قاعدة واحدة تنطلق منها وهي: حب الدنيا.

* **فمن تلك الصور: اتباع الشهوات،** قال تعالىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

ومنها: طلب العلو في الأرض: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

ومنها كذلك: الخوف علىٰ الرزق والحياة. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص:٥٧].

وفي المقابل فإن عودة القلب إلي صحته تعني: تخلصه مشاعره من سيطرة الهوىٰ واتجاهها إلي الله ﷻ.

قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**». (١)

(١) أخرجه أبو داود: (٤٦٨٣)، وصحيح الجامع: (٥٩٦٥).

القلب الحي:

عندما تتحرر المشاعر كلها من سلطان الهوىٰ وتتجه إلي الله عندئذ يصبح القلب حيًا أبيضًا، يشع النور من جنباته، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.. كما في الحديث: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّىٰ تَصِيرَ عَلَىٰ قَلْبَيْنِ، عَلَىٰ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**».(١)

فإن استغل الشيطان منه غفلة، تذكر الله فعاد إلي ما كان عليه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

وخلاصة القول: إن التغيير المنشود يستلزم بالإضافة إلىٰ إعادة تشكيل العقل:

١- دخول الإيمان في القلب.

٢- تقوية القلب في مواجهة الهوىٰ.

٣- العمل الدائم علي زيادة الإيمان حتىٰ يسيطر تمامًا علىٰ المشاعر ليعيد القلب إلىٰ كامل صحته وحياته.

---

(١) أخرجه مسلم: (١٤٤)، ومربادًا: أي يعلوه السواد، ومجخيًا: أي: مقلوبًا.

فإن كان هذا هو المطلوب للقلب ليحدث التغيير المنشود في السلوك، فكيف يمكن للقرآن أن يفعل ذلك؟!

❁ القرآن ودوره في دخول الإيمان القلب:

دخول الإيمان والنور في القلب نعمة عظيمة من الله ﷻ، كما قال تعالىٰ على لسان نبيه: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ: ٥٠]].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ [المائدة: ١١١].

فالإيمان محض فضل من الله ﷻ يمنحه لمن يجد عنده الرغبة فيه، كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**». (١)

ومما لا شك فيه أن القناعة العقلية هي مبدأ هذه الرغبة.. هذه القناعة لابد لها أن تمتزج بميل قلبي وعاطفة تنتظر اللحظة المناسبة التي يمُنُّ الله فيها عليها. فتتوهج وينشرح صدر صاحبها للإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

❁ وهنا يأتي دور القرآن:

فمن أقبل علىٰ القرآن وهو يبحث فيه عن الهدىٰ وجده.. لماذا؟!

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٥٧٧).

لأنه سيجد فيه ردًّا شافيًا علىٰ ما يتردد في عقله من تساؤلات حول قضية الوحدانية، وقصة الوجود وما بعد الموت و..

لكن هذا كله لا يكفي - كما ذكرنا - فالقناعة العقلية إن لم يصاحبها إصغاء قلبي فستظل حبيسة العقل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦].

وهنا يأتي الدور الآخر للقرآن ألا وهو قدرته علىٰ إثارة المشاعر وتأجيجها، فالقرآن ليس تذكرة للعقول فقط، ولكنه أيضا موعظة تثير المشاعر والعواطف.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

❁ دور الموعظة:

الموعظة كالسياط تهز القلب، وتهيئ للإصغاء إلىٰ صوت العقل فتنشأ الرغبة، ويزداد الشوق إلىٰ الإيمان الذي يدخل نوره القلب في الوقت الذي يحدده الله سبحانه وتعالىٰ.

وهنا أمثلة كثيرة توضح قدرة القرآن علىٰ مخاطبة العقل وإثارة مشاعر القلب في نفس الوقت، مما يُهيئ سامعه للهداية إن استمر في التعامل معه.

وإليك هذا المثال والذي نراه يتمثل في أحد صناديد الكفر -عتبة بن ربيعة - الذي ذهب إلىٰ رسول الله ﷺ ليحاوره، ويعرض عليه ترك دعوته ودينه مقابل ما يُريد من مال أو جاه أو مُلك.

فما كان من رسول الله إلا أن انتظر حتىٰ فرغ من كلامه ثم تلا عليه صدر سورة فصلت حتىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت:١٣].

فلم يستطع عقبة أن يتحمل أكثر من ذلك فوضع يده علىٰ فيِّ رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يسكت، وعاد إلىٰ قومه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله من قبل، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. (١)

والمتأمل للآيات التي قرأها رسول الله ﷺ علىٰ عتبة يجدها تُخاطب العقل وتقنعه بوحدانية الله ﷻ وبملكه التام والمُطْلق لهذا الكون، وفي نفس الوقت فإن الآيات تُثير المشاعر وتهز القلب وتخوفه، فينتج عن هذا امتزاج الفكر بالعاطفة، وهذا ما حدث لعتبة لكنه لم يستثمر الفرصة العظيمة التي سُنحت له.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ٢٩٤).

- وهنا لنا وقفة مع كلام دقيق لابن الجوزي يوضح فيه أحوال الناس مع المواعظ فيقول: قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر، عادت القسوة والغفلة، فتدبرت السبب في ذلك، فعرفته. ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون علىٰ صفته من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها؛ لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها، وإيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلىٰ بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه؛ فإذا عاد إلىٰ الشواغل، اجتذبته بآفاتها، فكيف يصح أن يكون كما كان؟!

وهذه حالة تعم الخلق؛ إلا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر، فمنهم من يعزم بلا تردد، ويمضي من غير التفات، فلو توقف بهم ركب الطبع، لضجوا، كما قال حنظلة عن نفسه: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. (١)

---

(١) روىٰ مسلم «٢٧٥٠» عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ، قَالَ: - وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ - قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَىٰ مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «**وَمَا ذَاكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّىٰ كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا =

ومنهم أقوامٌ يميل بهم الطبع إلىٰ الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدم من المواعظ إلىٰ العمل أحيانا، فهم كالسنبلة تميلها الرياح (١).

وأقوام لا يؤثر فيهم إلا بمقدار سماعه، كماء دحرجته علىٰ صفوان(٢). (٣)

۞ القرآن يمزج الفكر بالعاطفة:

إليك مثال آخر يوضح طريقة القرآن في مزج القناعة العقلية بالعاطفة القلبية.

يقول تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٣].

فهذا خطاب موجَّه للعقل يحمل تحديًّا معجزًا ولكنَّ هذا وحده لا يكفي لحدوث الرضا القلبي، بل لابد من هزِّ القلب، وإثارة مشاعره، وهذا ما نجده في الآيات التالية للآية السابقة: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

=

كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىٰ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَىٰ فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ السُّنْبُلَةِ تَمِيلُ أَحْيَانًا وَتَقُومُ أَحْيَانًا**» رواه أبو يعلىٰ «٢/ ٨٣» وغيره.

(٢) الصفوان: الصخر الأملس

(٣) صيد الخاطر: (٢٣/ ٢٤).

وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤ - ٢٥].

فامتزاج الفكر بالعاطفة هو طريقة القرآن الفريدة في تحويل وجهة القلب إلىٰ الله ﷻ، لينتظر القلب بعد ذلك فضل الله سبحانه وتعالىٰ في إدخال نور الإيمان إليه.

***

الفصل الثالث

زيادة الإيمان بالقرآن

مدخل وتمهيد

إننا في الصفحات السابقة تكلمنا عن علاقة القرآن بالعقل والقلب، وتكلمنا عن التغيير القرآني للقلب، وكيف يقوم القرآن بالتغيير الحقيقي للقلوب، وإذا تغيرت القلوب حقًا ازداد إيمانها، والقرآن كما أن له دورًا في التغيير، فله دور في زيادة الإيمان.

❁ القرآن وزيادة الإيمان:

مع دور الإيمان العظيم في دخول الإيمان للقلب فإنه يعمل كذلك علىٰ زيادته فيه وذلك من خلال ثلاث وسائل:

الأولى: أنه بنفسه يزيد الإيمان:

فكما مرَّ علينا سابقًا أن معاني الإيمان، اتجاه المشاعر إلىٰ الله ﷻ.. معنىٰ ذلك أن الإيمان يزداد في لحظات التجاوب والانفعال القلبي لكل ما هو لله.

والقرآن يقوم بذلك من خلال قدرته علىٰ التأثير في مشاعر قارئه بمواعظه البليغة وسلطان ألفاظه وبخاصة عند ترتيلها والتغني بها.

نعم في البداية قد يكون التجاوب بطيئًا بين العقل والقلب، ولكن بالمدوامة علىٰ القراءة مع يقظة الذهن سيزداد التجاوب والانفعال.. هذا التجاوب يعني زيادة الإيمان في القلب، وكلما استثمر الشخص لحظات التأثر بترديد الآية التي أثرت فيه: ازداد الإيمان في قلبه.

الثانية: الطاقة المتولدة من القرآن:

فاستثارة المشاعر تولد طاقة في نفس صاحبها، فإن استثمر تلك الطاقة بِحُسْنِ تصريفها في أعمال مصاحبة للقراءة كالدعاء أو السجود مثلا: ازداد الإيمان أكثر وأكثر، وهذا ما نجده في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

فعندما ترجم هؤلاء الصالحون شعورهم عند استماعهم للقرآن بالسجود والبكاء، انعكس ذلك علىٰ القلب بزيادة خشوعه وخضوعه لله ﷻ.

الوسيلة الثالثة: الدلالة على أوجه البر:

فالقرآن يدل علىٰ أعمال من شأنها أن تزيد إيمانه كالصلاة والصيام وقيام الليل.

فعلىٰ سبيل المثال: نجد القرآن كثيرًا ما يستحث القارئ علىٰ الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالىٰ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨].

فالإيمان كما نعلم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا ما قام العبد بهذه الأعمال فإن أثرها يعود علىٰ القلب مرة أخرىٰ بزيادة مساحة الإيمان فيه.

القرآن وشفاء القلب:

السبب الرئيسي لمرض القلب هو الهوىٰ، وشفاؤه بالإيمان، وطريقة

القرآن الفريدة في شفاء القلب هو «الإحلال» بمعنىٰ استخدام قوة الإيمان ليحل محل الهوىٰ كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء:١٨].

ويضرب القرآن مثلًا لهذه الطريقة في العلاج، يقول تعالىٰ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد:١٧].

۞ القرآن وحياة القلوب (الولادة الثانية):

بالمداومة علىٰ قراءة القرآن ومع ازدياد فترات تجاوب القلب مع العقل: يزداد الإيمان شيئا فشيئا، ويحل محل الهوىٰ في القلب، إلىٰ أن تأتي لحظة من أجمل لحظات الحياة وهي تحرر القلب بالكامل من الهوىٰ وولادته من جديد: قلبا حيًا، يقظا، نابضًا، يتحرك ويخشع، ويجده صاحبه معه عندما يريده.. هذه اللحظة السعيدة سماها العلماء «الولادة الثانية».

✍ **يقول ابن القيم: «فللروح في هذا العالم نشأتان:** إحداهما النشأة الطبيعية المشتركة، والثانية نشأة قلبية روحانية، يولد بها قلبه وينفصل عن مشيمة طبعه كما وُلد بدنه وانفصل عن مشيمة البطن، ومن لم يصدق هذا فليضرب عنه صفحا وليشتغل بغيره.

✍ **وفي كتاب الزهد للإمام أحمد:** أن المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام قال للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السماوات والأرض حتىٰ تولدوا

مرتين».(١)

وعندما تتم هذه الولادة، ويُولد القلب الحي، عندئذ تبدأ رحلته المباركة في السير إلىٰ الله للوصول إلىٰ معرفته في الدنيا والقرب منه في الآخرة.

۞ القرآن والسير إلى الله:

كما أنَّ لدىٰ القرآن القدرةَ علىٰ تغيير سلوك صاحبه وذلك بالعمل المستمر علىٰ زيادة الإيمان في قلبه وطرد الهوىٰ منه، فإن لديه القدرة كذلك علىٰ السير به إلىٰ الله والاقتراب الدائم منه حتىٰ يصل العبد إلىٰ درجة الصديقية، وهي الدرجة التي تلي الأنبياء في القرب من الله ﷻ وذلك من خلال ما يعرف بـ «أعمال القلوب».

۞ أعمال القلوب:

أعمال القلوب هي العبادات التي ينبغي أن يمارسها القلب عند تعرضه لأحوال معينة.

فعندما يتوجه البدن بطاعة من الطاعات، كالصلاة أو الإنفاق ينبغي أن يصاحب ذلك عبادة قلبية تُسمىٰ الإخلاص لله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:٥].

والعبودية التي ينبغي أن يكون فيها القلب عند ورود النعم عليه: الشكر

(١) مدارج السالكين: (٣/ ١٤٦).

لله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤].

والصبر هو عبودية القلب التي ينبغي أن تلازمه عند ورود المصائب أو الابتلاءات عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحج:٣٥].

والخشوع والخضوع والتواضع هي عبوديته عند ذكره لله ﷻ وتذكّر عظمته وكبريائه مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

وعبادة التوكل علىٰ الله والاستعانة به ينبغي أن تصاحب القلب قبل القيام بأي عمل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والتقوىٰ هي الحال التي ينبغي أن يكون عليها القلب بعد القيام بأي طاعة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

والرضا هو الحال الذي ينبغي أن يستقبل به القلبُ أقدارَ اللهِ ﷻ وبخاصة المؤلمة منها، وعلىٰ قدر القيام بهذه الأعمال تكون عبوديته لربه، ومن ثَم قربه منه.

فإن قال قائل ولكن كيف يمكننا القيام بهذه الأعمال القلبية، وما هو دور القرآن في ذلك؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لابد أن يتطرق الحديث حول منشأ هذه

العبادات والفرق بين الحال والمقام.

❁ الحال والمقام:

عندما تبلغ مسامعَ شخصٍ ما، أخبارٌ سارةٌ فإنه يعيش في حالة من الفرح والسرور، وعكس ذلك يكون عند تلقِّيه أخبارًا محزنة.

هذه الحالة تزول بعد فترة من تعرضه للمؤثرات التي أثرت فيه، فإذا ما كان المؤثر شديدًا، أو استمر في تعرضه له لفترة طويلة، فإن هذه الحالة الشعورية التي انتابته ستلازمه لفترة أطول من الزمن، وهذا ما يُسمَّىٰ بالمقام، أي أنه أقام في هذه الحالة واستمر عليها.

فالحال إذن هو الحالة الشعورية الطارئة التي تنتاب الشخص عند تعرضه لمؤثر ما، ولا يصبح هذا الحال مقامًا إلا إذا عاش فيه ولازمه وأقام فيه، فقد تتلقىٰ امرأةٌ خبرًا بوفاة زوجها الذي هو في نفس الوقت شقيقًا لواحد من الناس وابن عم لواحد آخر.. بلا شك سيعيش الجميع في حالة من الحزن عند وقت تلقيهم النبأ، هذه الحالة ستزول عند ابن العم في وقت أقصر منه عند الأخ، أما الزوجة ففي الغالب أنَّ حالةَ الحزن ستلازمها وقتًا طويلًا فتظل في مقام الحزن.

هذا من ناحية المشاعر، أما من ناحية السلوك فعلىٰ قدر استثارة المشاعر تكون القوة الدافعة للعمل، فعلىٰ قدر قوة المؤثر يكون العمل المُصاحب، وعلىٰ قدر الاستمرار أو المقام في الحالة الشعورية المستثارة يكون الاستمرار في العمل المصاحب.

فالبكاء مثلًا عمل مصاحب لمشاعر الحزن عندما تتمكن من القلب

وسرعة استدعائه مرتبطة ببقاء هذه المشاعر في حالة من التوهُّج.

فإذا ما اتضح هذا الأمر فما علينا إلا أن نُسقطه علىٰ عبادات القلوب.

- فالشكر عبادة قلبية تنتج من استثارة مشاعر الحب لله ﷻ، هذه الحالة الشعورية قد تكون طارئة فيعيش القلب شاكرا لله ﷻ في لحظات معدودة، وقد تستمر الحالة فترة طويلة فيستمر القلب في مقام الشكر مما يدفعه إلىٰ القيام بأعمال تُعبِّر عن هذه العبادة القلبية كسجود الشكر، وقيام الليل، وكثرة حمد الله ﷻ باللسان وذكر نعمه والتحدث عنها.

- والشعور بالاحتياج إلىٰ الله ﷻ يستدعي عبودية الاستعانة به سبحانه وتعالىٰ، وعلىٰ قدر قوة الحالة الشعورية يكون العمل المُصاحب والذي يمثله الدعاء إلىٰ الله ﷻ بإلحاح وصدق. واستمرار هذه العبودية وهذا العمل مرهون ببقاء تلك الحالة الشعورية.

- وعندما تهيج مشاعر الحياء من الله ﷻ يعيش القلب في عبودية المراقبة والإخلاص والتي قد تصل إلىٰ الإحسان المذكور في حديث جبريل المشهور أي أن تعبد الله كأنك تراه.

- وعندما ينتاب الشخصَ شعورٌ بالعجز والانكسار لله ﷻ يعيش قلبه في عبودية الاستسلام والخضوع لله ﷻ.

- وعندما تتأجج مشاعر الخوف من الله ﷻ في القلب فإنه يعيش عبودية التقوىٰ له سبحانه.

أما عبودية الإنابة والتوبة فيتجه إليها القلب عندما تستثار مشاعر الرغبة

والطمع فيما عند الله ﷻ.

هذه الأحوال المختلفة التي قد تطرأ علىٰ مشاعر العبد تجعل قلبه يتقلب في ألوان من العبودية لله ﷻ بقدر ما تمكث هذه الأحوال، وما من مؤمن بالله ﷻ إلا وعاش فيها ولو للحظات، ولكنه لا يلبث أن يعود إلىٰ سابق عهده من الغفلة بعد ذهاب المؤثر القوي.

❁ الطريق إلى العبودية:

إذن لكي يصبح القلب في عبودية تامة ودائمة لله ﷻ يجب أن تكون مشاعره متوجهة إلىٰ الله ﷻ وبصورة مستمرة مما يجعل استثارة أي منها تتم بأدنىٰ مؤثر، فيؤدي ذلك إلىٰ توجه القلب إلىٰ العبادة المناسبة للمشاعر المُثارة وبصوة تلقائية، فإن أصابته سرَّاء شكر وإن أصابته ضراء صبر، وإن عزم علىٰ أمر توكل علىٰ الله، وكلما توجه القلب إلىٰ العبودية المناسبة فإنه بذلك يسير إلىٰ الله ويقترب منه.

ولكن كيف يمكننا أن نصل إلى هذه الحالة القلبية من خلال القرآن؟

الطريق الذي يسلكه القرآن للوصول بصاحبه إلىٰ هذه الحالة يتلخص في قدرة القرآن علىٰ إنشاء الأحوال المختلفة التي يعيشها القلب وذلك بتنوع مؤثراته عليه **فتارة** يُخوفه بذكر يوم الحساب وما فيه من أهوال، ويذكره النار وما تحتويه من ألوان العذاب، وبعاقبة المكذبين من الأمم السابقة..

- **وتارة** يُرغبه بذكر الجنة وما فيها من ألوان النعيم.
- **وتارة** يستثير فيه مشاعر الحب بكثرة ذكر النعم.

- **وتارة** يستثير مشاعر الاحتياج إلىٰ الله بعرض جوانب الفقر إليه..

هذه الأحوال التي ينشئها القرآن في القلب تتحول بمرور الأيام إلىٰ مقامات ثابتة يعيشها القلب، وذلك من خلال كثرة استثارته للمشاعر المختلفة ودوام الضغط عليها حتىٰ تتمكن الأحوال الطارئة من القلب فتصبح مقامات ثابتة.

❁ أهمية الانشغال بالقرآن:

ولكي يصلَ المرء إلىٰ هذه الحالة لابد له من كثرة قراءة القرآن ودوام التفكر في الآيات.. لابد أن تأخذ آيات القرآن وقتها الكافي مع القلب لتستقر الأحوال التي تثمرها فيه، فتنتج هذه الأحوال عبادات قلبية.. هذه العبادات ستدفع صاحبها للقيام بالأعمال الصالحة التي تعبر عنها. وهذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون عشر آيات فقط من النبي ﷺ فيعيشون معها بكل جوارحهم فتحدث لهم أبلغ الأثر من تغيير في عقولهم، وتعبيد قلوبهم لله ﷻ، وتدفعهم لسرعة الاستجابة والمبادرة للقيام بأي عمل صالح يُعبر عن عبوديتهم التامة لربهم.. ثم ينتقلون بعد ذلك إلىٰ غيرها.

تأمل معي حالهم وقد امتلأت قلوبهم حبًّا لله ﷻ نتيجة لتفاعلهم مع آيات القرآن التي لا تخلو من بيان كرمه سبحانه علىٰ عباده وإنعامه عليهم...

تأمل معي وقد هاج عليهم هذا الحب وتأثرت به قلوبهم، فذهبوا إلىٰ رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك ويقولون له: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا، فأنزل ﷻ قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١].

من أجل ذلك كانوا يظلون فترة طويلة في حفظ السورة من القرآن، فلقد أتم عمر بن الخطاب حفظ سورة البقرة في اثني عشر عاما، أما ابنه عبد الله فقد أتمها في ثماني سنين.

إن حفظ سورة البقرة لا يستغرق عدة أسابيع أو شهور إن كان الأمر يقتصر علىٰ حفظ ألفاظها فقط، أما إذا كان الأمر مرتبطا بتأثير القرآن علىٰ العقل ليعيد تشكيله، وعلىٰ القلب لِيُعَبِّدَهُ لله ﷻ، فالأمر بلا شك سيختلف، وسيحتاج إلىٰ سنين كما فعل عمر ابن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما.

❁ نماذج إيمانية:

إننا بعد هذه المقدمة لابد لنا أن نقف وقفات نذكر فيها نماذج إيمانية نتعلمها، عسىٰ أن تكون لنا عونًا علىٰ بناء اليقين الصحيح في عقولنا، وتشييد صرح الإيمان في قلوبنا، ولكل واحد أن يضيف ما يريد ترسيخه في عقله، قياسًا علىٰ ما سنذكره من نماذج، فالقرآن ملئ بالحقائق والمعاني الإيمانية التي لا تتسع أعمارنا لإحصائها قال تعالىٰ: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص:٨٨].

والآن إلىٰ هذه النماذج التي نذكرها في هذه المباحث ونستمد من الله العون.

***

المبحث الأول

الإيمان بالغيب

إن الإيمان بالغيب معناه أن نؤمن بوجود كون غيبي لا تراه أعيننا، وأهم ما فيه أن نؤمن بوجود الله، ونؤمن كذلك بوجود المخلوقات التي لا تراها أعيننا كالملائكة والجن، كما يجب أن نؤمن بوجود أحداث سوف يمر بها الإنسان بعد الموت من حياة برزخية، وبعث ونشور وحساب ثم الجنة أو النار.

❁ أهمية الإيمان بالغيب:

إن الإيمان بالغيب هو الباب الأعظم الذي من خلاله تتصل الأرض بالسماء ويؤمن الناس بالله، والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلىٰ مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوىٰ المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير.

كما أنها بعيدة الأثر في حياته علىٰ الأرض فليس من يعيش في الحيز

الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ويتلقىٰ أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه، ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود. وأن وراء الكون ظاهره وخافيه، حقيقة أكبر من الكون، هي التي صدر عنها، واستمد من وجودها وجوده.. حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ولا تحيط بها العقول.

وعلىٰ قدر اليقين بالإيمان بالغيب يستقيم أمر العباد، فمن يعلم أن الله يراه ويراقبه، ويعلم أن هناك ملائكةً تحصي عليه أعماله وتسجلها في صحيفته، وأن هناك بعثًا بعد الموت، وحسابًا علىٰ تلك الأعمال فإن هذا من شأنه أن يدفعه للاستقامة وفعل ما ينفعه وترك ما يضره في الدنيا والآخرة.

ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ١ - ٦]

- لو كان هؤلاء المطففون يوقنون بالبعث والحساب أمام الله ﷻ هل كانوا سيفعلون ما فعلوه من تطفيف الميزان.

- **إذن نستطيع أن نقول بيقين**: إن الإيمان بالغيب هو البداية التي ينبغي أن نبدأ بها رحلة الإيمان، ولم لا ونحن من خلالها سنغلق الباب بأمر الله ومشيئته أمام وساوس الشيطان حول وجود الله والبعث والحساب، فهو لا يكاد يترك أحدًا إلا ويوسوس له بهذه الوساوس حتىٰ تفتر عزيمته ويترك العمل والاجتهاد، ويرتكب المعاصي التي تتسبب في هلكته، ومن ثَمَّ يلحق

به في النار.

- ولنتأمل هذه الآيات التي تصف حال عباد الله المخلصين الذين سيدخلون الجنة ثم يدور بينهم هذا الحوار قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات: ٥٠ - ٦١].

إن هؤلاء العباد المخلصين، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم، أقبل بعضهم علىٰ بعض يَتَساءَلُونَ فيما بينهم عن ذكرياتهم، وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه- من باب التحدث بنعمة الله:

﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ **أي**: إني في الدنيا كان لي صديق ملازم لي، ينهاني عن الإيمان- بالبعث والحساب، ويقول لي- بأسلوب التهكم والاستهزاء:

﴿ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾ **أي**: أإنك- أيها الرجل- لمن المصدقين بأن هناك بعثًا وحسابًا، وثوابًا وعقابًا، وجنة ونارًا.

ثم يضيف إلىٰ ذلك قوله: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ وانتهت حياتنا في هذه الدنيا، ووضعنا في قبورنا ﴿ وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ﴾ **أي**: وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية.

﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ **أي**: أإنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلىٰ الحياة مرة أخرىٰ، ومجزيون بأعمالنا. فقوله- تعالىٰ-: لَمَدِينُونَ من الدين بمعنىٰ الجزاء، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤] والاستفهام: للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب.

وهنا يعرض هذا المؤمن علىٰ إخوانه، أن يشاركوه في الاطلاع علىٰ مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصافات:٥٤] أي: هل أنتم مطلعون معي علىٰ أهل النار لنرىٰ جميعا حال ذلك القرين الذي حكيت لكم حاله؟ والاستفهام للتخصيص، أي: هيا صاحبوني في الاطلاع علىٰ هذا القرين الكافر.

فَاطَّلَعَ ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه علىٰ أهل النار. فرآه في سواء الجحيم، أي: فرأىٰ ذلك الرجل الذي كان قرينه وصاحبه الملازم له في الدنيا، ملقىٰ به في «سواء الجحيم» أي: في وسط النار، وسمىٰ الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلىٰ باقي الجوانب.

✍ **قال الآلوسي**: واطلاع أهل الجنة علىٰ أهل النار، ومعرفة من فيها، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله- تعالىٰ- فيهم حدة النظر، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه.

ولعلهم- إن أرادوا ذلك- وقفوا علىٰ الأعراف. فاطلعوا علىٰ من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار. وقيل: إن لهم طاقات في الجنة ينظرون منها من علو إلىٰ أهل النار، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار، لأنه كان منكرًا للبعث.

ثم يحكي القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه في الدنيا بعد أن رآه في وسط الجحيم فيقول: ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات: ٥٦- ٥٧].

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ ﴾ قسم فيه معنىٰ التعجب، وإِنْ مخففة من الثقيلة.

واللام في قوله: ﴿لَتُرۡدِينِ ﴾ هي الفارقة بين إن المخففة والنافية، والجملة جواب القسم، وتردين:

أي تهلكني يقال: أردىٰ فلان فلانًا إذا أهلكه.

وردىٰ فلان- من باب رضىٰ- إذا هلك.

و ﴿ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ من الإحضار، يقال: أحضر المجرم ليلقىٰ جزاءه، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق في الشر، إذ يدل علىٰ السوق مع الإكراه والقسر.

أي: قال الرجل المؤمن لقرينه الملقىٰ في وسط جهنم. وحق الله - تعالىٰ - لقد كدت أيها القرين أن تهلكني بصدك إياي عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربي عليّ، حيث عصمني من طاعتك، ووفقني للإيمان... لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك، ولساقني ملائكة العذاب إلىٰ هذا المصير الأليم الذي أنت فيه اليوم، فحمدًا لله- تعالىٰ- علىٰ الإيمان والهداية.

وقوله- تعالىٰ-: ﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات:٥٨-٥٩] بيان لما يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين

معه في الجنة، وبعد أن انتهىٰ من كلامه مع قرينه.

وهذا الكلام يقوله علىٰ سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم.

والاستفهام للتقرير، والفاء للعطف علىٰ مقدر يستدعيه المقام، والمعطوف عليه محذوف.

والمعنىٰ: أنحن مخلدون في هذا النعيم، ولن يلحقنا موت مرة أخرىٰ بعد موتتنا الأولىٰ التي لحقتنا في الدنيا، ولن يصيبنا شيء من العذاب كما أصاب غيرنا؟

إننا لنشعر جميعًا بأننا لن نموت مرة أخرىٰ، وسنبقىٰ في هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته.

وبعضهم يرىٰ أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت.

✍ **قال القرطبي**: قوله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ [الصافات:٥٨-٥٩]: هو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت، ويقال: «يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

والإشارة في قوله- تعالىٰ-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الصافات:٦٠] لما سبق الإخبار به من نفىٰ الموت والعذاب عن أهل الجنة.

وهذا القول- أيضًا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه في الجنة، أي: إن هذا النعيم الدائم الذي نحن فيه- يا أهل الجنة- لهو الفوز العظيم، الذي لا يدانيه فوز، ولا يقاربه فلاح.

ثم يقول لهم- أيضا-: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٦١] أي: لمثل هذا العطاء الجزيل، والنعيم المقيم، فليعمل العاملون، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية. (١)

❁ كيف نؤمن بالغيب؟

إن دلائل وجود الله، ومن ثَمَّ صدق ما أخبر به، موجودة في كل مكان، بل هي أكثر من أن تحصىٰ قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [المجادلة:٦].

ومع ذلك فلقد أرسل رسولًا لعباده هذا الرسول هو محمد بن عبد الله ﷺ وجاء ﷺ يبلغ رسالة الله لخلقه، وهذه الرسالة فيها تعريف الخلق بالله، وبالغيب الذي لا يرونه، وبما سيحدث لهم بعد الموت.

- إذن الرسالة لها دور هو ربط الأرض بالسماء، واليقين بصحة الغيبيات مثل اليقين بصحة ما يشاهدونه بأعينهم.

فإن آمن الناس بهذه الرسالة، وأنها حق لا ريب فيه، وليست من تأليف البشر، وأنها من عند الله، فمعنىٰ ذلك أنهم سيؤمنون بكل ما جاء فيها وما أخبرت عنه.

- إذن نقطة البداية الصحيحة للإيمان بالغيب التصديق بأن القرآن من

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٢/ ٨٥-٨٧).

عند الله، فإن تمَّ ذلك تمَّ الإيمان بما تضمنه، لذلك نجد أن كفار مكة كانوا يحاولون دومًا التشكيك في صدق القرآن بوسائلَ كثيرةٍ حتىٰ لا يؤمنوا بما فيه من غيب، وكانت أهمَّ أساليبهم في ذلك التشكيكُ في شخص الرسول ﷺ بوسائلَ كثيرةٍ فادَّعوا أنه ساحر أو كاهن أو مجنون أو أنه اقتبس القرآن من أساطير الأولين، كل ذلك لكي يجدوا لأنفسهم مبررًا لعدم التصديق بالقرآن وما أخبر عنه من غيب قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٠ - ٣٤].

❁ كيف نوقن بأن القرآن حق؟

إن الإيمان بأن القرآن حق، وأنه رسالة من عند الله هو حجر الزاوية في مسألة الإيمان بالغيب نجد أن القرآن يثبت ذلك بأدلة كثيرة، وما علينا إلا أن نعيش معها في رحلتنا مع كتاب ربنا تبارك وتعالىٰ، وأن نعمل علىٰ تجاوب المشاعر مع ما تقرره في العقل من حقائقَ راسخةٍ، ليصبح الإيمانُ بالغيب جزءًا أصيلًا من إيماننا.

- وينبغي أن نعلم أن الآيات التي تخدم هذه الفكرة، لها محاور تدور حولها وتَسْبَحُ في فلكها، وبيانها كالتالي:

❁ أولاً: التحدي:

لقد دعا الله المشككين في القرآن إلىٰ أن يأتوا بمثله فقال أعزُّ من قال:

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤]، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بعشر سور قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود:١٣]، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله قال تعالىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة:٢٣]، ويستمر التحدي إلىٰ الآن وإلىٰ قيام الساعة كأقوىٰ دليل علىٰ أن هذا الكتاب حق، ومن ثم يؤمن الناس بكل ما أخبر به قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

- **ومن صور التحدي به كذلك**: تحديهم لإظهار أخطاء فيه قال أعزُّ من قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء:٨٢]، وهذا أمر عظيم كفيل بإثبات صحة القرآن، فلا يوجد كتاب من تأليف البشر يدعي صاحبُه أنه بلا أخطاء، كما أنه لا يوجد كتابٌ من تأليف البشر يتحدىٰ صاحبُه من يأتون من بعده لأنه لا يعلم الغيب، أما الله الذي يعلم الغيب يقول: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ دليل قاطع علىٰ صدق القرآن وأنه كلام الله.

❁ ثانيًا: إخبار القرآن عن أمور وأحداث وهذا له صور:

١ - الإخبار عن الماضي:

* قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص:٤٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص:٤٥].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص:٤٦].

- ولقد جاء القرآن الكريم بآيات تبيِّن، وتوضِّحُ التاريخ البشري بدقةٍ متناهية؛ ففي مصر مثلًا كان هناك فراعنة، وفي حقبةٍ قصيرةٍ جدًا حكمَ مصرَ ملوكٌ.

ونلحظ أن الحاكم الذي عاصر سيدنا يوسف جاء ذكره في القرآن بلفظة الملك فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٥٠]، أما الذي عاصر سيدنا

موسىٰ كان فرعونًا: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ﴾ [الزخرف:٥١] هذه الدقة البالغة تؤكد أن القصص من إعجاز القرآن الإخباري.

- والإعجاز في الإخبار كثير في كتاب الله مثال: قصة فرعون مع سيدنا موسىٰ، وقصة سيدنا يوسف مع ملك مصر، وقصة أقوامِ عادٍ وثمود جاءت بتفصيلٍ شديد ودقةٍ شديدة، وكل هذا ليعلم الناس أن هذا القرآن وحي الله، كما أنه تأكيد لنبوة النبي ﷺ.

٢ - الإخبار عن الحاضر البعيد مكانيًا عن رسول الله:

قال تعالىٰ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ [الروم: ٢ - ٤] وفعلًا في بضع سنين تزيد عن الثلاثة وتقِلُّ عن التسعة غلب الرومُ الفرسَ في أدنىٰ الأرض. (١) وفي هذا إخبارٌ عن الحاضر البعيد مكانيًّا عن رسول الله ﷺ.

---

(١) في الآية إعجازان: إعجاز إخباري كما ذكرت، وكذلك فيها إعجاز علمي، فبعد اختراع أشعة الليزر ـ أمكن قياس الأبعاد بدقةٍ متناهية، فاكتُشف أن أعمق نقطةٍ في الأرض اليابسة غور فلسطين، وقد جاءت الروايات التاريخية تشير إلىٰ أن المعركة الشهيرة التي جرت بين الروم والفُرس كانت في غَوْر فلسطين، وقد قال الله ﷻ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢ - ٤]، ولم يكن أحدٌ يعلم قبل عشرات السنين أن غور فلسطين أخفض نقطةٍ في الأرض.

٣ - الإخبار عن المستقبل:

- قال أعزُّ من قال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥]. لو أن أبا لهب - فكَّر في هذه السورة، وانطلق إلىٰ النبي ﷺ يعلن إسلامه ظاهرًا، فإنه بهذا يكون نقض الآية لو فعل، لكنَّ إرادةَ اللهِ طليقةٌ، وعلم الله سابق، والأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله ﷻ.

- وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة:٥٤]، ومسيلمة الكذاب ارتد عن الدين، وكتب إلىٰ محمد ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلىٰ محمد رسول الله، أما بعد: فإن الأرض نصفان، نصفها لي، ونصفها لك. فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: من محمد رسول الله إلىٰ مسيلمة الكذاب، سلام علىٰ من اتبع الهدىٰ....

- وقال تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢]، فالله وصفهم بأنهم سفهاء، وسوف يقولون كذا وكذا، فلو أنهم صمتوا لأبطلوا الآية، لكنَّ إرادةَ اللهِ طليقةٌ، والأمر بكل تفاصيله وأصوله بيد الله ﷻ.

- ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨].

- ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ

أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ [الفتح:١١]. وغير ذلك من الآيات.

- كما أخبر القرآن أن رسولنا سيعود بإذن الله تعالىٰ إلىٰ مكة بعد أن أخرجه قومه منها ولقد عاد بالفعل قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾ [القصص:٨٥].

- وأخبر أن اليهود بعد تشتتهم في الأرض سيجتمعون مرة أخرىٰ في مكان واحد، وقد حدث هذا بالفعل في عصرنا باحتلالهم فلسطين وتجمعهم فيها قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٤].

۞ ثالثًا: إخباره عن كنه أشياء لم يكن لأحد من البشر أن يعلمها وقت نزول القرآن:

وأثبتها العلم الحديث في هذا العصر، مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت:٥٣].

فالله ﷻ أخبر في هذه الآية أن الله سبحانه سَيُرِي الخلقَ أشياء أخبر عنها في القرآن فيتأكدون من خلال رؤيتها أن القرآن حق، وأنه ليس من صنع البشر فيؤمنون بما فيه، ولقد أُتيحت لنا في هذا العصر رؤية هذه الآيات أكثر من غيرنا في القرون السابقة بسبب تقدم العلم الحديث واكتشافاته غير المسبوقة، ومن ذلك:

١- أطوار نمو الجنين في الرحم.

٢- كيفية نزول المطر.

٣- اتساع الكون.

٤- ضيق الصدر عند الصعود للسماء.

٥- الجلد هو مكان الإحساس والشعور بالألم، لذلك فإن الكفار في النار يتم استبدال جلدهم بجلد جديد كلما تهتك ليشعروا بالعذاب قال الملك سبحانه وتعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦].

❁ رابعًا: التأكيد على صدق الرسول ﷺ وأنه مبعوث من رب العالمين:

إن الرسول ﷺ أميٌّ لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف يمكنه إذن أن يؤلف القرآن أو ينقله عن غيره، وقد كان مع قومه قبل ذلك، واحدًا منهم، ولم يدَّع طوال سنين عمره قبل بعثته أنه رسول من الله قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس:١٦].

- ولو كان القرآن من عند الرسول ﷺ لما أوصل لنا في بعض مواضع القرآن خطاب الله الشديد له كقوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

- ولو كان القرآن من عند الرسول ﷺ ما تأخَّر عن إجابةِ الكافرين عن فتية أهل الكهف ولا الخضر ولا ذي القرنين، وما انتظر شهرًا كاملًا حتىٰ يبرئ زوجته التي اتهمت في عرضها من قبل المنافقين في حادث الإفك.

ومما يثبت أنه رسول الله، إخباره ﷺ عن أشياء ستحدث في المستقبل وحدثت بالفعل وحيًا من الله إليه قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ - ٤]، كوعده لسراقة بسوار كسرىٰ، ووعده بالفتوحات، ووعده بفتح القسطنطينية، وغير ذلك الكثير، ولقد تحققت جميعًا.

***

المبحث الثاني

الإيمان بالله الواحد الأحد

هذا الجانب الإيماني هو أهم الجوانب علىٰ الإطلاق، ولابد أن يهتم كل منا بترسيخه في يقينه وتعميق إيمانه به، ولم لا وهو البوابة التي تلج منها أعمال العبد إلىٰ الله، فمهما عمل العاملون، وأحسن المحسنون، لابد لهم أولًا من توحيد الله فيفردونه بالتوجه والعبادة والاستعانة وإلاَّ خابَ سعيُهُم، وضاعَ مجهُودُهُم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء:١١٦].

❁ اهتمام القرآن بتقرير وحدانية الله:

- لقد اهتم القرآن اهتمامًا بالغًا بتقرير وحدانية الله، واستخدم في ذلك أساليب شتىٰ، وبدأ فيها من أول نقطة: هل للكون إله؟....من هو؟.... وما الذي يثبت أنه الإله الحق؟..... وهل معه شريك؟... هل له ولد؟..... وماذا عن ادعاءات البعض بوجود شركاء مع الله؟

كل هذه النقاط وغيرها أفاض القرآن في ذكرها، وكررها في كثير من السور، وخاطب من خلالها العقل والقلب، ومزج الفكر بالعاطفة ليرسخ

مدلولها في يقين العبد، وتتشابك مع إيمانه وتشكل جزءًا هامًا من مشاعره ليكون النتاج: إخلاصًا تلقائيًا لله ﷻ في كل الأمور والأحوال مع دوام الاستعانة به فيردد دائمًا: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

❁ محاور الإيمان بالوحدانية:

لقد تناولت آياتُ القرآن موضوعَ الوحدانية، وتحدثت عن كل المحاور السابقة بأدلة تخاطب العقل والعاطفة وهذا طرف من هذه الآيات:

أولًا: مسألة وجود إله وخالق للكون:

يطرحها القرآن في عدة مواضع منها قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

ثانيًا: من هو الإله الحق:

* قال أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ﴾ [الأعراف: ٥٤].

* وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [يونس: ٣]

* وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ

فَٱعْبُدْهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام:١٠٢].

ثالثًا: ما الذي يثبت أن الله هو الإله الحق:

* قال أعزُّ من قال: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان:١١].

* وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر:٤٠].

* وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف:٤].

رابعًا: إنزال القرآن يثبت أن الله هو الإله الحق:

ومما يثبت أن الله هو الإله الحق أنه أرسل كتابًا أثبت فيه صحة نسبته إليه بل دعا سبحانه في كتابه كل المشككين في القرآن إلىٰ أن يأتوا بمثله قال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤].

* فإن لم يستطيعوا فليأتوا بعشر سور قال أعزُّ من قال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٣- ١٤].

* فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله قال أعزُّ من قال: ﴿ وَإِن

﴿كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٣].

* ويستمر التحدي إلىٰ الآن وإلىٰ قيام الساعة كأقوىٰ دليل علىٰ أن هذا الكتاب حق، ومن ثم يؤمن الناس بكل ما أخبر به قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء:٨٨].

ومن صور التحدي به كذلك: تحديهم لإظهار أخطاء فيه قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وهذا أمر عظيم كفيل بإثبات صحة القرآن، فلا يوجد كتاب من تأليف البشر يدعي صاحبه أنه بلا أخطاء.

خامسًا: تفنيد القرآن لادعاءات الكافرين بوجود آلهة أخرى:

لقد ادَّعىٰ الكافرون وجودَ آلهةٍ أخرىٰ، وهذه الدعاوىٰ فنَّدَها القرآنُ في مواضعَ كثيرةٍ منها قوله عزَّ شأنه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء:٢٢]، وقال عزَّ من قائل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:٩١].

كما فنَّد القرآن عدم وجود واسطة بين الله وعباده، أو وجود من يملك نفع العباد وضرهم سواه قال أعزَّ من قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر:٣٨].

وقال عزَّ شأنه: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس:٢٣].

- ومع تقرير القرآن لعدم وجود إله آخر أو شريك مع الله أو زوجة أو ولد فإنه أفرد مساحة كبيرة للحديث عن عيسىٰ ابن مريم عليه السلام، وأنه عبد لله مثل باقي البشر، وبَسَطَ سبحانه القولَ في بيان ذلك بالأدلة العقلية قال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٥- ٧٦].

- كل ذلك وغيره يثبته القرآن بالدليل العقلي الدامغ الذي لا لبس فيه ولا غموض، مع مزج ذلك بخطابه الموجه إلىٰ المشاعر وما يحمله من تخويف وترهيب للعباد من الوقوع في أي صورة من صور الشرك، ولنتأمل هذه الآيات وما فيها من خطاب يخاطب العقل فيقنعه والمشاعر فيرهبها قال أعزُّ من قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٠ - ١٩٥].

❁ أعمال يفضل القيام بها تثبت الإيمان بوحدانية الله تعالى:

١- أن نقرأ القرآن في رحلة أو أكثر من رحلاتنا المباركة معه، ونتتبع المواضع التي تثبت أن للكون إلهًا، وأن هذا الإله هو الله ﷻ الواحد، وأنه لا يوجد إله غيره، ولا شريك له، ولا ولد، ولا صاحبة.....، ولا يوجد من يملك النفع والضر للعباد سواه مهما كان صلاحه ومنزلته عند الله.

٢- التفكر في مظاهر وحدانية الله سبحانه وتعالىٰ في الكون

✍ قال الشاعر:

ولله في كل تحريكة ... وتسكينة في الورىٰ شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل علىٰ أنه الواحد

✍ وقال آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلىٰ آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... وأزهار كما الذهب السبيك
علىٰ قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

فنعيش مع آيات الله في السموات والأرض من شجر وحجر ودواب، ونتفكر فيها ونثبت بعقولنا من خلالها أن خالقها هو الله الواحد.

- **فعلىٰ سبيل المثال:** عندما نتفكر في ثمار البرتقال ونجد أن الثمرة في مصر هي نفسها الثمرة في الشام أو في الهند أو في المغرب، وأن ما تُسْقَىٰ به

هنا وهناك هو الماء، هذا يدل علىٰ أن الخالقَ واحدٌ وإلا لاختلف الشكل الخارجي أو التقسيم الداخلي للثمرة.

- انظر إلىٰ الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار وإلىٰ دقة نظامها.... فإذا كان هناك إله مع الله فهل يمكن للكون أن يسير بنظام واحد، أم سيحدث اضطراب وخلل؟

وإذا كان لله ولد أو صاحبة - حاشاه سبحانه - هل سيستمر هذا النظام بهذه الدقة؟

من هنا ندرك أهمية عبادة التفكر في ملكوت السموات والأرض وربطها بالقرآن والاستدلال من خلالها علىٰ الله الواحد لتكون الثمار: يقينًا في العقل، وإيمانًا في القلب يصل بالعبد إلىٰ مرحلة الإحسان بأن يعبد الله كأنه يراه قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٣- ٤].

٣- ومما يؤكد هذه الحقائق، ويرتفع سريعًا ببناء الإيمان واليقين: استصحاب بعض الأذكار التي تشير إلىٰ هذه المعاني والمداومة عليها، ومن هذه الأذكار ذكر: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**».

وذكر: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».(١)

***

(١) صحيح البخاري: (٦٣٣٠).

المبحث الثالث

الإيمان بالله الوهاب

إن المستهدفَ من الإيمان بالله الوهاب، التعرف عليه سبحانه وعلىٰ صفاته وبخاصة صفة الإنعام، وهذا من شأنه أن يُمَكِّنَ لحبِّه في القلب، ويدفع العبد للعمل الدائم علىٰ شكره.

- والإيمان بالله الوهاب يستدعي معرفة ما وهبه الله لعباده من نعم كثيرة، وكلما توسع العبد في معرفتها بعقله، وتجاوب معها بقلبه ازداد حبه لربه، ولم لا وقد جبلت القلوب علىٰ حب من يحسن إليها، وكلما زاد الحب ازدادت المسارعة للطاعة بتلقائية ولذة وشوق.

معنىٰ ذلك أن نقطة البداية للوصول إلىٰ هذه النتائج الباهرة من حب وطاعة، وأنس وشوق إلىٰ الله هي التعرف علىٰ النعم ومشاهدتها ودوام ذكرها، ولقد أفاض القرآن في بيان أهمية تذكر نعم الله، وتحدثت الكثير من آياته عن أنواع تلك النعم قال تعالىٰ: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف:٦٩].

ويمكن تقسيم النعم إلىٰ عدَّة أقسام ليسهل من خلال ذلك استخراجها من القرآن، ووضعها في المحور الذي يناسبها ومن ذلك:

۞ أولاً: نعم الخلق والإيجاد:

إن الله ﷻ هو الذي أوجدنا، وخلقنا من العدم قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [الأنعام:٩٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود:٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ ﴾ [النجم:٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك:٢٣].

هل تدري عدد خلايا جسمك التي أوجدها الله ﷻ فيك؟

إنها تبلغ عدة تريليونات.... كل خلية منها لها وظيفة أو وظائف محددة.

هل تعلم أن الله سبحانه قد أوجد لك كليتين يوجد بالواحدة منها حوالي مليون مصفاة لتصفية الدم من السوائل والسموم، وذلك عدة مرات في اليوم الواحد.

وهل تعلم أن القلب قد أوجده سبحانه وتعالىٰ في جسدك ليقوم بدور خطير في ضخ الدم المحمل بالأكسجين إلىٰ سائر أنحاء الجسم لتستمر الحياة.

وإذا نظرت إلىٰ الكبد والرئتين وأنظمة الجسم المختلفة مثل نظام الهضم والامتصاص والإخراج فما عليك إلا أن تُسَبِّح هذا الإله المقتدر الذي أوجد هذا كله من العدم قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ

لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

۞ ثانيًا: نعم الإمداد:

إن الله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يمدنا ويمد الكون كله بأسباب ومقومات الحياة لحظة بلحظة وآنًا بآن قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ﴾ [الروم:٢٥].

فالله يمدنا بالماء والغذاء، ويمد أجهزة الجسم بالقدرة علىٰ القيام بوظائفها، ويمد اللسان بالقدرة علىٰ الكلام، والعين بالقدرة علىٰ الرؤية، والأنف بالقدرة علىٰ الشم، والأذن يمدها بالقدرة علىٰ السمع، واليد بالقدرة علىٰ البطش، والرجل بالقدرة علىٰ المشي وحمل الجسم، والقلب بالقدرة علىٰ ضخ الدم حوالي سبعين مرة في الدقيقة، يمد جهاز المناعة بالقدرة علىٰ مقاومة الأمراض، يمد كل خلية في كل لحظة بأسباب حياتها وبالقدرة علىٰ القيام بوظائفها.

وسبحانه يمد النار بالقدرة علىٰ الإحراق، والماء بالقدرة علىٰ الإرواء، والدواء بالقدرة علىٰ الشفاء لحظة بلحظة، فنحن مِنَ الله خلقًا وإيجادًا، وبالله إمدادًا، وإلىٰ الله مرجعًا ومآبًا قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ ﴾ [يونس:٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الملك:٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٤].

❁ ثالثًا: نعم التسخير:

خلق الله الإنسان وكرَّمه علىٰ جميع خلقه، وأسجد الملائكة لأبيه آدم، وخلق الكون وسخره له، بل وجعل الجسد خادمًا مسخرًا له يأتمر بأوامره، كل هذا الفضل كي يتفرغ للقيام بالمهمة العظيمة التي خُلِق من أجلها ألا وهي عبادة الله ﷻ.

وإذا أردنا النظر إلى نعم التسخير لوجدناها لا تُعد ولا تحصى منها:

- تسخير الشمس بنظامها الدقيق لتصبح خادمة للإنسان تمده بالضياء والطاقة.

- تسخير القمر ليساعده علىٰ معرفة الأيام.

- تسخير الليل ليكون مبعثًا علىٰ السكون والراحة، بعد نهار مسخَّر للعمل والسعي.

- تسخير الهواء ليمدنا بالأكسجين.

- تسخير النبات لإمدادنا بشتىٰ أنواع الأطعمة، فلم تمتنع الأشجار يومًا عن طرح ثمارها للبشر، ولم تمتنع الدواب يومًا عن حملنا أو إعطائنا لحومها.

أما داخل الجسم فنعم التسخير ظاهرة مشاهدة في كل شيء:

فالعين مسخرة لرؤية الأشياء، واللسان مسخر للتعبير عما نريد، واليد للكتابة والبطش، والرجل للحركة والذهاب للمكان الذي نريده، وسخر سبحانه وتعالىٰ المخ للتفكير واتخاذ القرار قال تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٣].

رابعًا: نعم الحفظ:

إننا مع نعم الإيجاد والإمداد والتسخير، نشاهد نعم الحفظ أيضًا، حفظ الكون بما فيه، وحفظ الجسم وما يحتويه.

- فالله يحفظ السماء أن تقع علىٰ الأرض قال تعالىٰ: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج:٦٥].

- ويحفظ الشمس أن تخرج من مدارها أو تقترب من الأرض فتحرقها، أو تبتعد عنها فتتجمد قال تعالىٰ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠].

- ويحفظ ربنا نسب الغازات في الهواء، ويحفظ التوازن البيئي، فسبحان الله القائل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].

- ويحفظ سبحانه وتعالىٰ الجسم من الأمراض، فسبحانه يحفظ عدة تريليونات من الخلايا كل طرفة عين من أن تفقد خلية منها وظيفتها فتتحول

إلىٰ خلية سرطانية.

- ويحفظنا عند النوم، ويحفظ أولادنا، ويحفظ ويحفظ.....

﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٦٤]، ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الانفطار:١٠].

۞ خامسًا: نعم الأمن والستر:

- فالله يحفظنا من الحوادث والحرائق وقطاع الطرق، ويحفظنا من التقلبات الجوية، والظواهر الكونية: كالزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف.....

۞ سادسًا: نعم الهداية:

- فالله هو الذي يهدينا إلىٰ الإسلام وإلىٰ الإيمان، و كفىٰ بها من نعم قال تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ [الحجرات:٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

۞ سابعًا: نعم الثبات:

- فالله هو الذي يثبِّت علىٰ الحق...علىٰ الإسلام...علىٰ الإيمان...علىٰ حب البذل والتضحية والفداء...علىٰ حب الإنفاق....علىٰ حب الصلاة في المسجد قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء:٨٣]، وقال تعالىٰ مبينا مِنَّته علىٰ رسوله ﷺ: ﴿ وَإِن

كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٤].

❁ ثامنًا: نعم التيسير والتوفيق والسداد:

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٣].

❁ تاسعًا: نعم العصمة:

- فالله يعصمنا من الفجور والذنوب والكفر والظلم وأكل الحرام و..... قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١].

❁ عاشرًا: نعم الإمهال:

- فالله يمهلنا ولا يأخذنا وقت معاصينا بل يعطينا فرصة تلو فرصة للتوبة إليه سبحانه.

❁ حادي عشر: نعم الاجتباء وسبق الفضل:

- قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج:٧٨]، فنحن لم نختر الزمان الذي وجدنا فيه، ولا المكان، ولا الأبوين.

تخيل لو كنتَ ابنًا لرجلٍ بوذيٍ أو هندوسيٍ أو مجوسيٍ أو صليبيٍ أو شيوعيٍ ماذا كنتَ فاعلًا؟

وتخيّـل لـو كنـتَ في بيئـة تتحـدث لغـة غيـر اللغـة العربيـة كيـف سـتفهم القرآن؟

وتخيّل أنك ولدتَ مع آل فرعون، أو مع قوم لوط أو في زمن الفترة.

وتخيل أنك وُجِدتَ في بيئة مليئة بالفسق والفجور...

تخيل ثم تخيل..... لتستشعر غَرَقَكَ في نعم الله وفضله.

***

المبحث الرابع

الإيمان بالله القيوم

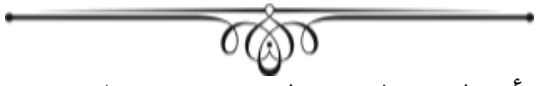

معنىٰ القيوم: أي القائم بذاته، والقائم بشئون خلقه، سبحانه وتعالىٰ.

- والمستهدف من هذا الجانب العظيم من جوانب الإيمان أن نوقن بعقولنا، ونؤمن بقلوبنا أنه لا يوجد لدينا أو لدىٰ أي مخلوق من مخلوقات الله شيء ذاتي أو قدرة ذاتية يمكنه من خلالها الاستغناء عن الله، وهنا نشاهد ونشهد أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

- معنىٰ ذلك أننا لن ننطق إلا إذا أمدنا الله بالقدرة علىٰ النطق، ولن نضحك إلا إذا أمد سبحانه عضلات الفكين بالقدرة علىٰ الانقباض والانبساط، والمشاعر بالتوهج والفرح، والمخ بالفاعلية وإلا لما ضحكنا ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم:٤٣].

- لن نرتوي إذا شربنا الماء إلا إذا أمده الله بفاعلية الإرواء، وأمدنا بالشعور بالريِّ، وإلا لشربنا وشربنا دون جدوىٰ.

- فنحن بدون الله لا نساوي شيئا، وإلا فانظر إلىٰ جهاز معقد كالحاسب الآلي مثلًا، والذي يزخر بالإمكانات والقدرات، ماذا يكون حاله عند انقطاع التيار عنه... ما قيمته...وما قيمة ما فيه من إمكانات؟!

۞ ونحن أيضًا لا قيمة لنا لو انقطع عنا المدد الإلهي.

- تأمل الطفل الرضيع وسل نفسك كم يحتاج إلىٰ أمه ظاهريًا لكي تقوم حياته، وماذا لو تركته.... كيف سيأكل أو يشرب؟ كيف سينظف نفسه؟ كيف سيرتدي ملابسه؟ ماذا يملك أن يفعل سوىٰ البكاء؟

هذا هو حال الطفل الرضيع مع أمه وهو يحتاج إلىٰ أمور محدودة، فكيف يكون حالنا مع الله ﷻ ونحن نحتاج إليه أكثر بملايين وملايين المرات من هذا الطفل إلىٰ أمه؟

أتعلم أن الله ﷻ يتولىٰ شئوننا كلها.... يمد أعيننا بالقدرة علىٰ الإبصار في كل لحظة، وكذلك الأذن بالقدرة علىٰ السمع، والعقل علىٰ التفكير، والقلب علىٰ ضخ الدم، والكلية علىٰ تنقيته، و.....

.... لو تخلىٰ عنا سبحانه طرفة عين لهلكنا ولم لا، والدم سيتوقف عن الجريان والمخ عن إصدار الأوامر، والرئتان عن الشهيق والزفير، و.....

ولسنا فقط الذين نحتاج إلىٰ الله ﷻ احتياجًا ماسًا ومطلقًا ومستمرًا بل الكون كله كذلك، فكل المخلوقات تستمد فاعليتها وقدرتها علىٰ القيام بوظائفها من الله ﷻ لحظة بلحظة، وآنًا بآن..... فهو سبحانه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وهو سبحانه الذي يرفع السماوات بغير عمد، ويمسكها أن تقع علىٰ الأرض، ولو تركها طرفة عين أو أقل لسقطت ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم:٢٥].

۞ أهمية المشاهدة والإيمان بالله القيوم:

إن هذا الجانب الإيماني له أهمية قصوىٰ في تربية الفرد علىٰ العبودية لله ﷻ، فمن خلاله يدرك أنه لا قيمة له إلا بالله، وهذا من شأنه أن يبعد عنه داء الإعجاب بالنفس والفرح بها.

وله دور كبير في تحقيق الإخلاص لله ﷻ وعدم الشرك به، فعندما يدرك العبد مدىٰ رعاية ربه له وقيامه علىٰ شئونه، وأن مفاتيح الخير كلها بيده، فإنه لن يستعين بغيره، ولن يتوجه إلا إليه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

والإيمان الصادق بهذا الجانب له كذلك دور كبير في تعظيم قدر الله في النفس، فمن الطبيعي أننا كلما اكتشفنا مدىٰ الرعاية والتعهد والإمداد المتوالي الذي يمدنا الله به فإن هذا من شأنه أن يُعظِّم قدره داخلنا، ويزيد حبنا له لما يفعله من أجلنا، وتزداد كذلك خشيتنا من أن يحرمنا شيئًا من إمداداته لنا، وتزداد استعانتنا به وتوكلنا عليه فيما نريد تحقيقه، ويقل الطمع بل وينقطع عما في أيدي الناس.

إن المشاهدة لهذا الجانب الخطير يجعلنا نعيش في حقيقة فقرنا الذاتي والمطلق لله ﷻ، ويصغر في أعيننا الأسباب والإمكانات التي تتوافر لدينا لتصبح ستارًا نرىٰ من خلالها عظيم فضل الله علينا، وأننا به سبحانه لا بأنفسنا.

❁ كيفية المشاهدة والإيمان بالله القيوم:

لكي يصبح هذا الجانب الإيماني يقينًا راسخًا في العقل وإيمانًا عميقًا في القلب، لابد من تكرار عرض صوره المختلفة علىٰ الفكر والعاطفة ليتمكن من إحداث التغيير المطلوب، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة وجود أعمال تشيِّد بنيان الإيمان بهذا الجانب العظيم.

... نعم، إن هذا البنيان لابد أن يُقام علىٰ قاعدة راسخة ثابتة، وهنا يأتي دور القرآن، الذي يقوم بتأسيس القاعدة الإيمانية لهذا الجانب العظيم وغيره من جوانب الإيمان.

ولقد أفاضت آيات القرآن في التحدث عن صفة القيومية وآثارها وصورها المختلفة وهذه بعض الصور:

❁ قيومية الخلق:

الله ﷻ خالق جميع الموجودات من العدم كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرعد:١٦]، وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر:٦٢]، وهو سبحانه الذي يتولىٰ نموها من طور إلىٰ طور، فعلىٰ سبيل المثال خلق الإنسان قال أعزُّ من قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، فهل شاهدت أيها القارئ الكريم هذه الصورة العظيمة للقيومية؟

- والنبات كذلك يجب أن نشاهد ونتأمل في خلقه قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩].

❁ قيومية الإمداد:

إننا يجب أن نشاهد هذه الحقيقة التي لا ينكرها عاقل، فالله ﷻ يمد الكون كله بأسباب قيامه وحياته وإلاَّ لكان عدمًا قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٣٢- ٣٣].

- والله يمد الإنسان بكل ما يكفل له استمرار حياته يطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه ولنقرأ ونتأمل ما قاله الخليل عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١].

وقال أعزُّ من قال: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢]، وتأمل لفظ ﴿ فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ لتعلم مدىٰ تعاهد الله لنا وقيوميته علينا.

- وليس الأمر مقصورًا علىٰ هذا فحسب، فكل خلايانا وأجهزتنا

وعضلاتنا تستمد قوتها منه سبحانه وتعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس:٢٢].

۞ قيومية الحفظ:

الله ﷻ قائم علىٰ الكون كله يحفظه علىٰ الحالة التي خلقه من أجلها، فالشمس خُلقت لإمداد الناس بالضياء والدفء، ولمعرفة الأيام، وحركة الليل والنهار، والفصول الأربعة.

هذه الشمس تحتاج إلىٰ أن تسير بانتظام في مدارها، لا ينبغي لها أن تتوقف أو تتحرك أقرب أو أبعد مما هي عليه، فلو حدث هذا لهلك الناس والدواب وكل شيء، فمن الذي يتولىٰ حفظها في مدارها وتسييرها كل يوم عبر ملايين السنين؟

إنه الله القيوم القدير قال تعالىٰ: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

- أما السماء التي جعلها الله ﷻ سقفًا يحفظ الأرض ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٢]، فقد خلقها سبحانه بلا أعمدة ترفعها، ويتولىٰ بنفسه حفظها ورفعها منذ أن خلقها، ولو تركها طرفة عين لسقطت علىٰ الأرض قال أعز من قال: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:٦٥].

هذه الصورة من صور القيومية تنطبق علىٰ جميع الموجودات بما فيها الإنسان، فهو سبحانه يتولىٰ حفظ القلب ليستمر في ضخ الدم بسرعة معينة لو زادت أو نقصت لحدث اضطراب شديد في الجسم... ويتولىٰ حفظ جميع خلايا الجسم وإفرازاتها بنسب محددة قال أعز من قال: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء:٤٢].

۞ قيومية العلم والإحاطة بكل شيء:

الله سبحانه وتعالىٰ يعلم كل شيء عن كل شيء، يحيط إحاطة كاملة ودائمة بجميع خلقه قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١].

۞ قيومية القدرة:

ومع قيومية العلم تأتي قيومية القدرة المطلقة لله ﷻ والمحيطة بجميع خلقه، فقد كان سبحانه مع موسىٰ عليه السلام عندما واجه السحرة، وأوجس خيفة في نفسه لما رأىٰ حبالهم وعصيهم تسعىٰ..... فماذا فعل الله له في هذه اللحظات ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٨- ٦٩].

وعندما قرر موسىٰ عليه السلام وقومه الفرار من فرعون وبطشه وانطلقوا إلىٰ البحر يعبرونه إذا بفرعون وجنوده يقتربون منهم ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢] فماذا حدث؟ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

فالله ﷻ يحيط بجميع خلقه ويملك القدرة المطلقة علىٰ تنفيذ ما يريد في الوقت الذي يريد.

❁ قيومية الهداية:

يجب أن نشاهد مشاهدة حقيقية أنه لا طاقة لأحد من البشر بنفسه الأمَّارة دومًا بما يحقق شهواتها الظاهرة والخفية قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١].

ليس من الممكن لأحد من البشر أن يصلي أو يصوم أو ينفق أو يحج إلا بهداية وإعانة من الله ﷻ ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ:٥٠].

لن يؤمن أحد، ولن يهتدي أحد إلا بإعانة من الله ﷻ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة:١١١].

معنىٰ ذلك أن كل صلاة نصليها فهي بقيومية الإعانة والهداية الإلهية، ولو تخلىٰ عنا سبحانه وتعالىٰ لما صلينا ولا صمنا ولقد أكَّد هذا المعنىٰ رسولُ الله ﷺ عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الخَنْدَقِ، حَتَّىٰ أَغْمَرَ بَطْنَهُ، أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ، يَقُولُ: «**وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا، إِنَّ الأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا**» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: «**أَبَيْنَا أَبَيْنَا**».(١)

وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

❁ قيومية العصمة:

إن الله يتعهد عباده المؤمنين بإمدادهم وتحبيبهم في العبادة، ومع ذلك يعصمهم من الوقوع في المعاصي والزلات، فيصرف رغبتهم عنها، ويشغلهم بأشياء أخرىٰ، و..... وإن لم يفعل سبحانه ذلك لهلكنا ولوقعنا في المعاصي بأنواعها المختلفة... صغائرها وكبائرها.

ولبيان هذا المعنىٰ حريٌّ بنا أن نتأمل قول إبراهيم عليه السلام وهو يناجي ربه تعالىٰ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥]، فسيدنا إبراهيم يخشىٰ علىٰ نفسه وأبنائه من عبادة الأصنام لماذا؟

لأنه يوقن بأن الله ﷻ لو تركه لنفسه لعبد الأصنام، أليس هو القائل

(١) صحيح البخاري: (٤١٠٤).

لقومـه: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ [الأنعام:٨٠]، وهنا يجب أن نقف لنفقه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ﴾ [الأنعام:٨٠]، لنـدرك أن أي معصـية تحـدث في الأرض ولا تفعلهـا فهي محض عصمة من الله لك، ألم يقل يوسف الصديق لربه: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف:٣٣].

❁ قيومية التثبيت:

الله ﷻ قائم علىٰ قلوبنا يثبتها علىٰ الإيمان ويربطها علىٰ ذلك، ولو تركها طرفة عين أو أقل لزاغت إلىٰ الهوىٰ، ألم يقل الله لرسوله ﷺ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٤].

- وحتىٰ ندرك معنىٰ التثبيت، وأنه من عند الله وحده لا شريك له يجب أن نتأمل هذه الآية قال تعالىٰ: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص:١٠].

- **إذن نستطيع أن نقول بيقين وبمشاهدة:** إن الثبات من عند الله ولو تركنا لزاغت قلوبنا ولَحِدْنَا عن كل خير قال أعزُّ من قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم:٢٧].

❁ قيومية الولاية والحماية:

إن الله سبحانه هو الذي يتولىٰ حفظ أوليائه من كل سوء قال تعالىٰ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦].

- فهو سبحانه الذي حفظ يوسف عليه السلام ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف:٢٤].

- وهو سبحانه الذي حفظ محمدًا وحماه ونجاه من المشركين عندما هموا بقتله قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة:٤٠].

- وهو الذي تولىٰ حفظ إبراهيم عليه السلام وحمايته عندما ألقاه قومه في النار قال أعزُّ من قال: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٨].

أي: يمنع من السوء من شاء، ولا يمنع منه من أراده بسوء، يقال: أَجَرْتُ

فلانًا: أي: حميته، وأجرتُ عليه: أي: حميت عنه.(١)

✍ **ويقول الشعراوي**: استجار بفلان فأجاره يعني: استغاث به فأغاثه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ...﴾ [الأنفال:٤٨] والإنسان لا يستجير بغيره إلا إذا ضعُفَتْ قوته عن حمايته، فيلجأ إلىٰ قوي يحميه ويدافع عنه.

إذن: هذه المسألة لها ثلاثة عناصر: مجير، وهو الذي يقبل أن يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك.

ومُجَار: وهو الضعيف الذي يطلب الحماية. ومُجَار عليه: وهو القوي الذي يريد أن يبطش. ومن المعروف أن رسول الله ﷺ في رحلته إلىٰ الطائف وبعد أنْ فعلوا به ﷺ ما فعلوا استجار، ودخل في حمىٰ كافر.

فالحق - سبحانه وتعالىٰ - يجير مَنِ استجار به، ويغيث مَن استغاثة لكن ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ...﴾ [المؤمنون:٨٨] لأن الذي يجيرك إنما يجيرك من مساوٍ له في القوة، فيستطيع أن يمنعك منه، ويحميك من بطشه، فَمنْ ذا الذي يحميك من الله؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك؟!

لذلك يقول سبحانه في مسألة ابن نوح: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ...﴾ [هود:٤٣] فالله - ﷻ - يجير علىٰ كل شيء، ومن أصبح وأمسىٰ في جوار ربه فلا خوف عليه.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٢٦٩).

وتلحظ هنا العلاقة بين صَدْر هذه الآية وعَجُزها: فالله تعالىٰ بيده وفي قبضته سبحانه كل شيء، والأمر كله إليه، فإياك أنْ تظن أنك تلفت من قبضته بالنعمة التي أعطاك؛ لأنه سبحانه قادر أن يسلبك إياها، وساعتها لن يجيرك أحد، ولن يغيثك من الله مغيث، ولن يعصمك من الله عاصم.(١)

❁ قيومية القرب والإجابة:

إن الله ﷻ قريب من عباده جميعًا، إذا سألوه أجابهم، وإذا استنصروه نصرهم، وإذا استنقذوه أنقذهم قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة:١٨٦].

فإذا ما وسوس لنا الشيطان وحاول إغواءنا فما علينا إلا أن نهرع إلىٰ الله ونستعيذ به: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

- وإذا حاق بنا خطر ما فما علينا إلا أن نستغيث بالله كما فعل يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت قال تعالىٰ: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧- ٨٨].

---

(١) تفسير الشعراوي: (١٦/ ١٠١٢٦/ ١٠١٢٧).

- هذه القيومية تشمل جميع البشر قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

۞ قيومية العطاء والمنع:

الله ﷻ يحب عباده، فما من مشيئة منه إلا ووراءها حكمة تصب في مصلحتهم...فهو سبحانه قائم عليهم جميعًا، يعلم ما يصلح كلًا منهم فيعطي هذا ويمنع هذا قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإسراء:٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى:١٢].

۞ قيومية الجزاء:

من صور قيومية الله علىٰ عباده أنه عليم بهم، قريب منهم، يعلم سرائرهم وعلانيتهم وأفعالهم الحسنة والسيئة، فيجازي المحسن علىٰ إحسانه، والمسيء علىٰ إساءته، يعفو عمن يشاء ويُعاقب من يشاء.

يرانا سبحانه إذا ما كذبنا أو اغتبنا أو أطلقنا أبصارنا فيما لا يحل لنا.. فإذا ما أراد عقابنا عاقبنا قال تعالىٰ: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة:٥٩].

وهو سبحانه سريع الحساب قال تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

❁ قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين:

الله سبحانه يتعاهد المؤمنين بألوان من التربية التي من شأنها إن أحسنوا التعامل معها أن تضعهم في قالب العبودية له سبحانه، وعلىٰ سبيل المثال نذكر ما حدث في غزوة حنين عندما قال بعض الصحابة: لن نهزم اليوم من قلة ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

- وفي حادث الإفك تتجلىٰ التربية الربانية لعباده ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النور: ١٦ - ١٨].

***

الفصل الرابع
كيف ننتفع بالقرآن

كيف ننتفع بالقرآن

- إن الإنسان في حياته بتراكم الخبرات يتعلم كيف ينتفع بما في يده من متاع، وإن لم يبحث كيف ينتفع بما عنده من عطايا ومنح فلن يكون سعيدًا بل سيكون محرومًا من حيث لا يدري، وإن الإنسان المسلم يجب أن يعلم كيف ينتفع بأعظم شيء في هذه الدنيا وهو كتاب الله، وإلا سيعيش محرومًا، بل ويموت محرومًا!!، لأنه لم يدخل أعظم جنة في هذه الدنيا، هي جنة معرفة الله.

✍ **يقول ابن القيم**: اعْلَمْ أَنَّ الْقَلْبَ يَسِيرُ إِلَىٰ اللهِ ﷻ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، وَيَكْشِفُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنَهْجِهِ، وَآفَاتِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ، وَقِطَاعِ الطَّرِيقِ بِنُورِهِ وَحَيَاتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَصِحَّتِهِ وَعَزْمِهِ، وَسَلَامَةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَغَيْبَةِ الشَّوَاغِلِ وَالْقَوَاطِعِ عَنْهُ، وَهَذِهِ الْخَمْسَةُ تُطْفِئُ نُورَهُ، وَتُعْوِرُ عَيْنَ بَصِيرَتِهِ، وَتُثْقِلُ سَمْعَهُ، إِنْ لَمْ تَصُمَّهُ وَتُبْكِمْهُ وَتُضْعِفُ قُوَاهُ كُلَّهَا، وَتُوهِنُ صِحَّتَهُ وَتُفَتِّرُ عَزِيمَتَهُ، وَتُوقِفُ هِمَّتَهُ، وَتُنْكِسُهُ إِلَىٰ وَرَائِهِ، وَمَنْ لَا شُعُورَ لَهُ بِهَذَا فَمَيِّتُ الْقَلْبِ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامٌ، فَهِيَ عَائِقَةٌ لَهُ عَنْ نُبْلِ كَمَالِهِ. قَاطِعَةٌ لَهُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لَهُ. وَجُعِلَ نَعِيمُهُ وَسَعَادَتُهُ وَابْتِهَاجُهُ وَلَذَّتُهُ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

فَإِنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ وَلَا لَذَّةَ، وَلَا ابْتِهَاجَ، وَلَا كَمَالَ، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَالطُّمَأْنِينَةِ بِذِكْرِهِ، وَالْفَرَحِ وَالِابْتِهَاجِ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقِ إِلَىٰ لِقَائِهِ، فَهَذِهِ جَنَّتُهُ

الْعَاجِلَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَا نَعِيمَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا فَوْزَ إِلَّا بِجِوَارِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ الْآجِلَةِ، فَلَهُ جَنَّتَانِ لَا يَدْخُلُ الثَّانِيَةَ مِنْهُمَا إِنْ لَمْ يَدْخُلِ الْأُولَىٰ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ: إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ، أَقُولُ: إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذَا، إِنَّهُمْ لَفِي عَيْشٍ طَيِّبٍ.

وَقَالَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ: مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ذَاقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، قَالُوا: وَمَا أَطْيَبُ مَا فِيهَا؟ قَالَ: مَحَبَّةُ اللهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ. (١)

✍ **قلت (محمد)**: ومَحَبَّةُ اللهِ، وَالْأُنْسُ بِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ لن يكون هذا كله إلا بعد الانتفاع بالدليل إلىٰ الله وهو كتاب الله سبحانه.

- ومن هنا مستعينًا بالله أجيب علىٰ هذا السؤال: **كيف ننتفع بالقرآن؟**

والجواب علىٰ هذا السؤال يكون في هذه المباحث بأمر الله تعالىٰ.

***

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٥٢).

المبحث الأول

الأهداف الأساسية للقرآن

إن من يريد الانتفاع بالقرآن حقًا، فإنه يجب عليه أن يعرف الأهداف الأساسية للقرآن حتىٰ يسعىٰ إلىٰ تحقيقها فيه وفي من حوله.

- ومن الملاحظ أن كثيرًا من المسلمين يخطئون في تسجيل أغراض القرآن وأهدافه، حيث إنهم يسجلون له أغراضًا وأهدافًا ثانوية فرعية، أو لا يريدها القرآن ولا يهدف لها بحال..

- فالقرآن عند بعضهم نزلَ للأمواتِ وليس للأحياء، فلا يلتفتون إليه إلّا عندما يموت الميت، فتصدح أجهزة التسجيل في البيوت بالقرآن لعدة أيام، ويحضر القراء إلىٰ البيوت والمقابر في مناسبات الموت وذكريات الموتىٰ.

- أما أن يتعامل الأحياء مع القرآن، ويبحثوا عن أغراضه وأهدافه ليحققوها فيهم وفي مجتمعاتهم، فهذا ما لم يفكر فيه هذا الصنف من الناس!!

- والقرآن عند بعضهم نزل للبركة، حيث يحولونه إلىٰ حجب وتمائم ورقىٰ يضعونها علىٰ الأجساد أو البيوت أو السيارات، استحضارًا للبركة ودفعًا للضرر، ويفتتح هؤلاء كلماتهم ومؤتمراتهم ولقاءاتهم وجلساتهم واحتفالاتهم وإذاعاتهم بآيات من القرآن، من باب التيمن والتبرك، وتعطير الأجواء بذكره، أو من باب العرف والعادة، ولكنهم لا يريدون أن يفتحوا

للقرآن نفوسهم ومشاعرهم وقلوبهم وكيانهم ليحييهم بما فيه من حياة.

- فما هي الأهداف الأساسية للقرآن، حتىٰ نقف عليها في كل آياته وسوره، وحتىٰ ندع لهذا القرآنِ الفرصةَ ليحققها فينا وفي حياتنا.

إن أهداف القرآن الأساسية لا تكاد تخرج عن أربعة:

١ -الهداية إلى الله سبحانه وتعالى:

الهداية الرشيدة الأصيلة الهادفة القاصدة الواصلة بالإنسانية كلها إلىٰ ربها سبحانه وتعالىٰ.

* قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، فالهداية في الآية عامة شاملة، والحياة القيمة التي يدعو إليها كذلك عامة شاملة.

* وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى:٥٢]، فالقرآن روح ولن يهديَ إلّا ذا روح، والقرآن نور والله هو الذىٰ يهدي بهذا الروح، ويهدي بهذا النور، وهو الذي كلَّف رسوله عليه الصلاة والسلام ليهديَ بهذا القرآن إلىٰ صراط الله المستقيم، وهو الذي كلَّف كلَّ مؤمنٍ مهتدٍ بهذا الهدىٰ القرآني أن ينتقل إلىٰ الآخرين ليهديهم إلىٰ ما اهتدىٰ هو إليه..

* قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

٢ -إيجاد الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة:

يكاد يوجدها من العدم، ويلتقطها من الواقع الجاهلي الآسن، الذي تضيع فيه النفوس وتفنىٰ فيه العقول وتعطل فيه المدارك والحواس والمذاهب.. يلتقطها من هناك ثم يبدأ معها بسهولة ويسر وتأن وتدرج وملاحظة وتعهد.

يغرس الإيمان في هذه النفس، ويضيء لها جوانبَ حياتِها بالنور الهادي، وينمي لها الخير والصلاح فيها، ويوظف لها ما وهبها الله من قدرات ومواهب وطاقات توظيفًا نافعًا خيرًا، ليحقق الهدف والغاية، ويمدها بالوسائل والمناهج التي تعينها علىٰ رسالتها وتساعدها علىٰ الاستمرار في أدائها، ويضع في يديها من القواعد والأسس ما يمكنها من العطاء والإبداع.

- وقد نجح القرآن نجاحًا بارزًا في تحقيق هذا الهدف في **حياة الصحابة الكرام**، الذين كان الواحد منهم قرآنيًا، يعيش بالقرآن وفيه وله، كما أنتج في العصور اللاحقة رجالًا قرآنيين في صفاتهم الإسلامية القرآنية..

- والنماذج المعاصرة من هؤلاء الرجال موجودة وافرة تتوزع رقعة شاسعة من عالمنا المعاصر..

- وما زال القرآن جاهزًا وقادرًا بإذن الله علىٰ العطاء والإخراج، ومستعدًا لأداء هذا الهدف وتحقيق هذا الغرض، بشرط أن يلحظ القارئ فيه هذا، وأن يلتفت إليه، وأن يحسن التعامل معه والتلقي عنه، وأن يتجاوب معه

في الإيجاد والتنشئة والتربية..

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

فالناس بدون القرآن أموات في قلوبهم وحواسهم ومشاعرهم وحياتهم ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

فالقرآن لا يدركه إلّا الحي ولا يتفاعل معه إلّا الحي كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩- ٧٠].

٣ - إيجاد المجتمع الإسلامي القرآني الأصيل:

وهو المجتمع المكون من الأفراد القرآنيين (١)- الذين أنشأهم القرآن- بناء هذا المجتمع علىٰ منهج القرآن وأسسه ومبادئه وتوجيهاته، وإرساء

(١) ليس المراد الذين يسمون أنفسهم قرآنيين وهم ينكرون سنة رسول الله ﷺ فمعاذ الله أن يكون هذا قصدي، لأن القرآنيين حقًا هم الذين يحافظون علىٰ سنة الرسول ﷺ ويلتزمون بما جاء عن رسول الله ﷺ تطبيقًا لقول الله تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [الحشر:٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. وغير ذلك من الآيات.

أسس هذا المجتمع ومناهج حياته، وتزويده بكل ما يحتاجه من هذا كله.

وعندما ينبثق المجتمع من نصوص القرآن، وينمو في جو القرآن، ويتقلب في أنوار القرآن، يكون مجتمعا حيًّا حياة عزيزة كريمة حرة سعيدة.

- لقد أوجد القرآن مجتمع الصحابة الأول- **المجتمع القرآني الرائد الفريد**- وهو قادر علىٰ إيجاد المجتمعات وبنائها وتعاهدها إذا صدقت في الإقبال عليه والتفاعل معه والحياة به.

قال الله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]، فالقرآن هو دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وهو دعوة إلىٰ الحياة اللائقة ببني الإنسان، الحياة القرآنية في كافة مجالاتها وجوانبها ومظاهرها.

ومن رفض هذه الدعوة فقد رفض الحياة، وحكم علىٰ نفسه بالموت، الموت المعنوي(١) الذي لا يشابه الموت المادي المحسوس، قال تعالىٰ:

---

(١) إن رب العالمين يجعل العبد في ميزان الأموات إذا مات داخليا وأصبح لا يستشعر ما يبث فيه من المعاني الروحية ولا يسمع عن الله شيئًا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر:١٩-٢٣].
كما يؤكد الله لنا أننا أموات، ولن نحيا إلا إذا طبقنا تعاليم الإسلام علىٰ النحو الذي أراده الله، وفق ما جاء في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ =

=

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

عقاب من كان في ميزان الله ميتًا:

- إن من كان في ميزان الله ميتًا يعيش كالأنعام قال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، والسبب في ذلك أنه يعيش وفق رغباته هو ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد:١٢]، فلا يلتفت إلىٰ النور الذي يرتقي به كعبد لله فيبعث في الجوارح نور العمل الصالح الذي يرتفع بالعبد من شهواته التي تتصادم مع الفطرة السليمة بل يقف أمام الرغبات والشهوات التي تجعل الإنسان ينزل من مستوىٰ إنسانيته إلىٰ أقل من مستوىٰ الحيوان.

السبب في التدني إلىٰ هذه المستويات:

والسؤال الآن لماذا يصبح العبد هكذا بتلك المستويات المتدنية إلا من رحم الله؟

إن السبب كما وضَّح القرآن الكريم هو التكبر علىٰ آيات الله قال تعالىٰ: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الجاثية: ٨- ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: ٣١- ٣٢].

والسبب أيضًا في الإعراض عن آيات الله قال أعزٌّ من قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأنعام:٤].

والسبب كذلك في الاستهزاء بآيات الله قال أعزٌّ من قال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية:٣٥].

=

=

فهذه هي نتيجة الإعراض والاستكبار عن آيات الله تعالىٰ: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

من الذي ينتفع بالقرآن:

إن الذين يفهمون هذه المعاني ويعيشون بها كضوابط وقيم في حياتهم، ويعملون بهذا القرآن هم الأحياء حقًّا، وهم الذين تنزل علىٰ قلوبهم آيات القرآن الكريم، فإذا بها كالأرض الجدباء أصابها الماء فاهتزت وربت، يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٦٩- ٧٠].

وهؤلاء المؤمنون بالقرآن والسائرون علىٰ منهاجه حين يأتيهم الموت لا يعتبرون أمواتًا، ولكنهم نقلوا فقط من دار الفناء إلىٰ دار البقاء، ومن دار الغرور إلىٰ دار الخلود، قال أعزُّ من قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٥٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٨- ١٦٩]. إلىٰ غير ذلك من الآيات الكريمات التي تؤكد أن أصحاب هذه المبادئ لم يموتوا، وإنما الميت هو الإنسان الذي يعيش في هذه الحياة مقطوع الصلة بالله، ليس له هدف، ولا يؤدي رسالة، وإن عاش بين الناس بجسده.

الفارق بين المعيشة والحياة:

إن القرآن الكريم يحدثنا عن أهل الكفر، الذين جعلوا همّهم ملء بطونهم، وترف معيشتهم دون شيء آخر، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [محمد:١٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ

=

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥].

هذا وتستعمل الحياة- في الأسلوب القرآني- علىٰ أوجه ستة، ذكرها الإمام الراغب في مفرداته، وأورد الأدلة عليها والنماذج لها من آيات القرآن الكريم.

- **الأول**: القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠].

- **الثاني**: القوة الحساسة، وبه سُميَ الحيوان حيوانًا: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢].

- **الثالث**: القوة العاملة العاقلة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

=

مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]. فسمىٰ ما فيه الكفار معيشة ولم يسمّها حياة، وبيّن في الآيات الكريمات سوءَ مصيرهم ومنقلبهم، وأكّد في آية أخرىٰ علىٰ أن ما هم فيه من نعيم إنما هو ظاهر فقط، أما حقيقة الأمر فإنهم بهذا النعيم معذبون، وفي هذا يقول ربنا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

- **الرابع**: ارتفاع الغم، وعليه يحمل قوله تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

- **الخامس**: الحياة الأخروية الأبدية، وذلك يتوصل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر: ٢٣ - ٢٤].

- **السادس**: الحياة التي يوصف بها البارئ سبحانه، فهو حي معناه لا يصح عليه الموت. قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر:٦٥].

٤- قيادة الأمة المسلمة في معركتها اللازمة:

مع أعدائها المتربصين بها، الذين لا يرقبون فيها إلّا ولا ذمة، ولا يتركون في حربها أسلوبا ولا وسيلة.

- فالقرآن يأخذ بيد هذه الأمة إلىٰ ميدان المعركة، ويوقفها فيه، ويمدها بوسائل النصر وأسلحة القتال وأساليب الجهاد، ويعرفها علىٰ سبب شن الأعداء الحرب عليها، وعلىٰ هدفهم من حربها، وعلىٰ اجتماعهم علىٰ قتالها، وعلىٰ استخدامهم كل ما يقدرون عليه لإفنائها، وعلىٰ شخصياتهم ونفسياتهم، وعلىٰ أساليبهم ومكائدهم، وعلىٰ مكرهم ومراوغتهم، وعلىٰ شبهاتهم ودعاياتهم، وعلىٰ أسلحتهم وأدواتهم.. ويضع أيديها علىٰ عدة النصر وزاد الطريق وقوة المواجهة، بحيث يربطها بحبل ربها ويوثق صلتها بإسلامها.. فتخرج من معركتها المفروضة عليها- بقيادة القرآن وتوجيهاته وهدايته- منتصرة عزيزة حرة كريمة.. وهذا ما فعله القرآن مع الصحابة

الكرام في جهادهم، وهذا ما فعله مع المسلمين عند ما أقبلوا وسعوا إلىٰ تحقيق هذا الهدف.

وهو ما زال مستعدًّا وجاهزًا وقادرًا بعون الله، فأين المقبلون عليه؟ الحاملون له؟ المتحركون به؟ المواجهون للأعداء من خلاله وعلىٰ هديه؟؟

قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان:٥٢].

وهذا توجيه رباني للرسول عليه الصلاة والسلام، وللأمة من بعده، أن تجعل القرآن الكريم أداة ووسيلة تستعين بها في جهاد أعدائها، وتعتبره السلاح الأول والأساسي والفعال في هذا الجهاد.

وليعلم كل مسلم أن من حارب القرآن فقد حارب الله ، ومصير كل من حارب الله معروف في التاريخ، وصدق الله: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٨- ٩].

***

المبحث الثاني

الخطوات المتدرجة لفهم القرآن والتعامل معه

بعد معرفة الأهداف الأساسية للقرآن، تأتي معرفة الخطوات المتدرجة لفهم القرآن، التي من خلالها يسهل التعامل مع القرآن، فيعرف المرء كيف يتعامل مع القرآن ويتلقىٰ عنه ويعيش به. فما هي هذه الخطوات؟

١ - أن يلاحظ آداب التلاوة وأن يراعيها ويلتزمها ويطبقها، حتىٰ يحسن الدخول إلىٰ عالم القرآن، والعيش في جو القرآن، واستحضار معانيه وحقائقه، واستقدام دلالاته ولطائفه، واستشعار ظلاله وإيحاءاته.. ومن لم يلتزم تلك الآداب فكيف يتلقىٰ عن القرآن؟

٢ - التلاوة للسورة أو الجزء أو المقطع بتأن وخشوع وتدبر، وباسترسال وبطء وانفعال.. وأن لا يكون همُّه نهايةَ السورة أو خاتمةَ الجزء، ولا غرضه كم صفحة قرأ وكم آية تلا، وكم حسنة جمع، وأن لا تخايل له هذه الأمور، حتىٰ لا تتحول إلىٰ حجاب بينه وبين التدبر، وحاجز سميك يحجز عنه أنوار القرآن ولطائفه..

٣ - الوقوف أمام الآية التي يقرؤها، وقفة متأنية فاحصة مكررة، ليستخرج منها بعض ما يمنّ الله عليه من كنوزها وعلومها ومعارفها ومعانيها.. وأن لا يقرأها بعينه فقط، أو يسمعها بأذنه فقط، بل يقرأها بكل

كيانه، ويسمعها بكل مشاعره وأحاسيسه، وأن يعيشها بكامل كينونته الإنسانية، وأن ينفعل بها ويتأثر لها، ويفتح لها حياته كلها.

عليه أن يمعن النظر في الآية، وأن يعيد قراءتها مرة ومرات، ولا يسأم من ذلك ولا يمل، حتىٰ لو استمرت وقفته أمامها دقائق أو ساعات، وحتىٰ لو أعادها عشرات المرات.. وكثير من علماء القرآن كانوا يطيلون الوقفة أمام الآية الواحدة، ويقومون بها ليلتهم كلها، ولا يقطعون تلاوة الآية وترديدها إلّا عند الفجر..

٤ - النظرة التفصيلية في صياغة الآية: تركيبها وسياقها ومعناها، ونزولها وغريبها وإعرابها، وملاحظة معانيها ودلالاتها وظلالها.. بحيث لا يغادرها إلىٰ غيرها، إلّا بعد أن يكون قد ألمَّ بطرف من ذلك كله، ووقف علىٰ تفسيرها وفهمها..

٥ - ملاحظة البعد الواقعي للآية، انطباقها علىٰ الواقع ومعالجتها له، بحيث يجعل من الآية منطلقا له ليعالج حياته وواقعه، وميزانا يزن به من حوله وما يحيط به، ونورًا يضيء له طريقه.. ولو أحسن إدراكَ هذا وتذوقَه واستخراجَه من الآية لوقف علىٰ كنزٍ لا ينفد، وزادٍ عظيمٍ من القرآن العظيم..

٦ - العودة إلىٰ فهم السلف- وبخاصة الصحابة الكرام- للآية، وتدبرهم لها وحياتهم بها، والوقوف علىٰ استقبالهم لها وتعاملهم معها، وملاحظة الأحوال والملابسات والظروف والحاجات التي عالجتها ولبَّتها، والتأمل والتدبر في ما رُوي لهم من عبارات في فهمها وتفسيرها..

٧ - الاطلاع علىٰ آراء بعض المفسرين في الآية، واختيار التفاسير ذات

القيمة العلمية، والأصالة والريادة والمنهجية والتوثيق.. وذلك حتىٰ يقوّم ما لاحظه في الآية، وما خرج به من أحكام ومعان ودلالات وإيحاءات، فيستبعد ما تعارض مع الأصول العلمية التي قررها علماء القرآن...

❁ ثلاثة أوراد يومية قرآنية:

لعل كلامنا عن الخطوات المتدرجة للتعامل مع القرآن يطيل الفترة الزمنية التي يختم فيها القارئ القرآن، ويكلفه الكثير من الوقت والجهد والبحث والتدبر.. مع اعتقادنا أن هذا مطلوب لا بدّ منه، وأنه هو الثمرة المرجوة من التلاوة، والمقصد الأساسي من القراءة..

ولكننا من باب حرصنا علىٰ إفادة القارئ الكريم، وتقديم النصح له- نشير إلىٰ ضرورة أن يكون لكل منا مع القرآن الكريم ثلاثةُ أورادٍ يومية، ووظائف لازمة، لا يتخلف عنها يوما من الأيام، مهما كثرت شواغله وازدحمت الواجبات عليه.

الورد الأول: ورد التلاوة:

ولا ينقص ورده اليومي هذا عن جزء من أجزاء القرآن، بحيث يختمه في كل شهر قمري مرة.. - وهو الحد الأدنىٰ الذي وضعه رسول الله عليه الصلاة والسلام لقارئ القرآن- ولن يأخذ هذا الوردُ من وقته أكثرَ من ساعة، بل قد ينقص إلىٰ نصفها!.

الورد الثاني: ورد الحفظ:

بحيث يحرص علىٰ أن يحفظ كل يوم آية أو آيتين أو ثلاثا، ويكرر حفظها ويحسنه يوميًّا، بحيث ما تمر عليه سنوات إلّا وقد حفظ القرآن كاملًا

بإتقان وضبط ملحوظين..

الورد الثالث: ورد التدبر:

وهو المقصود بالخطوات المتدرجة السابقة، بحيث يطبق تلك الخطوات يوميا علىٰ آية أو آيتين أو ثلاث، ولا يزيد علىٰ ذلك، وأن يعيشها بحياته وكيانه كله، لن تمر عليه سنوات حتىٰ يكون قد أحسن تدبر القرآن والتعامل معه وتفسيره وفهمه وفقهه.(١)

***

(١) مفاتيح للتعامل مع القرآن (ص: ٦٦).وما بعدها. باختصار.

المبحث الثالث

القرآن هو سرُّ نهضتنا

إننا بعد معرفتنا للأهداف الأساسية للقرآن، والتي لا غنىٰ لنا عنها، نستطيع أن نقول إن هذه الأهداف الأساسية تؤكد لنا أن القرآن هو سرُّ نهضتنا.

وهذا القول لا يأتي من فراغ، بل تُؤيده شواهد وأسباب كثيرة نذكرها - لعلها تشحذ الهمم وتقوي العزائم للانطلاق الصحيح نحو هذا الكنز المهجور، وهي كالآتي:

۞ أولاً: القرآن هو اختيار الله لعباده أجمعين:

الله ﷻ هو الرب الذي يُربِّي عباده ويتعاهدهم، ويمدهم بما يحتاجون إليه من سائر الإمدادات كالطعام والشراب والهواء والحفظ والرعاية قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل:١٠-١١].

هذا الرب العظيم يحب عباده جميعًا ويريد لهم الخير والنجاح في الاختبار الذي نزلوا إلىٰ الأرض لتأديته... يريد لهم جميعًا دخول الجنة قال

تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [البقرة:٢٢١].

فرب العالمين، المربي للبشر جميعًا هو الذي أنزل لهم القرآن.

فالقرآن هو اختيار الله لعباده أجمعين قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧]].

❁ ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة:

القرآن دون غيره من الكتب السماوية السابقة يجمع بين أمرين عظيمين: الرسالة والمعجزة..

فالرسالة القرآنية شأنها شأن الكتب السابقة تدل الناس علىٰ الله، وتهديهم إلىٰ الطريق الموصل إليه، وتبين لهم العقبات والمنعطفات التي قد تقابلهم وكيف يتجاوزونها قال تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥].

ولقد كانت هذه وظيفة الإنجيل أيضًا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة:٤٦].

وكذلك التوراة وسائر الكتب قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة:٤٤].

ولكن هل معرفة الطريق وحدها تكفي لسلوك المرء له، أليس هناك عقبات داخل الإنسان تحول بينه وبين السير في طريق الهدىٰ؟

أليس الهوىٰ وسطوته علىٰ القلب له دور كبير في تثبيط الإنسان وإقعاده عن السير في طريق الله؟

من هنا تظهر عظمة القرآن وأفضليته علىٰ سائر الكتب السابقة، فلقد أودع الله فيه معجزة خارقة، أعظم بكثير من معجزات عيسىٰ وموسىٰ وصالح وسائر الرسل والأنبياء السابقين عليهم أفضل الصلوات والتسليم.

إن المعجزة القرآنية الخارقة ليست فقط في بلاغته وخلوده وحفظه من التحريف، وليست فقط في صلاحية القرآن لكل زمان ومكان، بل إنها فوق ذلك بكثير، فَسِرُّ المعجزة القرآنية يكمن في قدرته الفذة - بإذن الله - علىٰ التغيير، وبث الروح والحياة الحقيقية، وتوليد الطاقة فيمن يحسن الإقبال عليه قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

المعجزة القرآنية تقوم بتوصيل تيار الحياة إلىٰ القلب فيفيق من غفلته، ويحيا بعد موته، وينطلق إلىٰ ربه قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ولئن كانت الرسالة القرآنية توضح للناس الطريق الموصل إلىٰ الله، فإن المعجزة القرآنية تقوم بأخذ أيديهم إلىٰ هذا الطريق، وتسير بهم، وتقودهم، وتتولىٰ إخراجهم من الظلام الذي يعيشون فيه إلىٰ نور الله المبين في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وهناك العديد من الآيات التي تبين هاتين الوظيفتين، منها ما جاء في

سورة المائدة قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فهنا توضح الآيةُ الكريمةُ وظيفةَ القرآنِ كرسالةٍ هاديةٍ، أما وظيفته كمعجزة فتوضحها بقية الآية قال تعالىٰ: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٦].

فالإخراج من الظلام... من المكان الذي ألفه الإنسان يحتاج إلىٰ قوة دافعة، وطاقة تتولد داخله تُيسِّر له اتخاذَ قرارِ النهوض والخروج مما تعود عليه... وهذه هي وظيفة المعجزة القرآنية، والتي اختصه الله بها... قال ﷺ: **«مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. (١)

❁ ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد:

من عجائب القرآن التي ينفرد بها عن غيره أنه يخاطب الفكر والعاطفة معًا وفي آن واحد، يخاطب العقل فيقنعه بما يريد إقناعه به، وفي نفس الوقت يتسرب هذا الخطاب إلىٰ المشاعر فيستثيرها ويدفعها للتجاوب معه فتتحول القناعة العقلية إلىٰ إيمان قلبي، وهذا لا يمكن حدوثه مع أي خطاب آخر.

اقرأ مثلًا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ

(١) صحيح البخاري: (٤٥٩٨).

بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة:١٧٨].

وانظر: الاستدراج إلىٰ الطاعة في افتتاح الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وانظر: ترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ وقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾.

وانظر: الامتنان في قوله تعالىٰ: ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

وانظر: التهديد في ختام الآية. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم انظر في أي شأن يتكلم؟ أليس في فريضة مفصلة وفي مسألة دموية؟

وتتبع هذا المعنىٰ في سائر آيات الأحكام حتىٰ أحكام الإيلاء والظهار.

ففي أي كتاب من كتب التشريع تجد مثل هذا الروح؟!

بل في أي لسان تجد هذا المزاج العجيب؟!

تالله لو أن أحدًا حاول أن يجمع في بيانه بين هذين الطرفين ففرق همه ووزع أجزاء نفسه، لجاء بالأضواء المتنافرة ولخرج بثوب بيانه رقعًا ممزقة.(١)

---

(١) النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز ١٤٣ - ١٤٦ بتصرف.

ومن نماذج الخطاب المتكامل الذي لا يقدر عليه إلا الله والذي يخاطب العقل والوجدان، ويتعرض لقضية غاية في الحساسية دون جرح مشاعر قارئها ذَكَرًا كان أو أنثىٰ قوله تعالىٰ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة:٢٢٣].

❁ رابعًا: القرآن لديه القدرة بإذن الله على الاستثارة الدائمة للمشاعر والضرب على أوتار القلوب وتوليد الطاقة والقوة الروحية:

أودع الله في القرآن خاصية عجيبة تساعده علىٰ تفعيل معجزته، والقيام بدوره الخطير في توليد القوة الروحية الدافعة للعمل بما يدل عليه، هذه الخاصية هي قدرته الفذة - بإذن الله - علىٰ الاستثارة الدائمة للمشاعر.

فالبيان القرآني يحمل شتىٰ أنواع الأساليب التي تخاطب العاطفة، وتضرب علىٰ أوتار القلوب فتستثيرها وتأخذ بمجامعها وَتَرُجُّهَا رجًّا عنيفًا، فيحدث التفاعل وتتولد الطاقة والقوة الروحية وتقوىٰ العزيمة، وتشتد الإرادة للقيام بما تحمله الآيات من توجيهات...

فتجد القرآن مليئًا بأساليب الترغيب والترهيب، والتشويق، ولفت الانتباه، وضرب الأمثال، والقصة، والتخيير، والاستدراج، والترقيق، والتنفير، والتحذير، والتشجيع، والإشهاد، والاستشهاد، وإثارة مشاعر الغيرة والتنافس....

هذا وغيره تجده بسهولة عند قراءتك لبضع آيات من القرآن، فإذا ما

اجتمع في القراءة الترتيل الصحيح حيث التأثر بالنظْم والجرْس، مع التدبر والفهم حيث التأثر بالمعنىٰ.. تولدت القوة الروحية التي ننشُدُهَا ونبحث عنها.

فإن أردت مثالًا لتأثير التلاوة الصحيحة في المعنىٰ، وما يحدثه من أثر في القلب، وبعد ذلك البدن في الحركة فاقرأ -إن شئت- قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١، ٢]، وكذلك قوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣].

وقل مثل ذلك علىٰ إيحاءات ألفاظ: «سارعوا» - «سابقوا» - «خروا سجدًا وبكيًّا»، وأثر ذلك علىٰ القلب والبدن.

❁ خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم

من المزايا العظيمة للقرآن أنه ميسر للذكر قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:٩٧].

ففي أي وقت بالليل أو النهار، وفي أي مكان طاهر يستطيع المرءُ أن يلتقيَ مع القرآن.

كان من الممكن أن تكون قراءةُ القرآن مقصورةً علىٰ أزمنةٍ محددةٍ أو أماكنِ معينةٍ كالمساجد مثلًا. لكنَّ الله ﷻ جعل تناوله بهذا التيسير لتتاح الفرصة للجميع أن يلتقوا به في الوقت الذي يروق لهم، وهذا - بلا شك - يعطي للقرآن مزية عظيمة في استيعابه لجميع الأفراد باختلاف ظروفهم

وأحوالهم.

خطاب للعامة وخطاب للخاصة:

ومع تيسر القرآن للقراءة في أي وقت وأي مكان فإنه كذلك ميسر للفهم، فخطابه موجه للعامة والخاصة.

ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنىٰ لك - إن أردت أن تُعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرىٰ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال.

أما أنَّ جملة واحدة تُلقىٰ إلىٰ العلماء والجهلاء، وإلىٰ الأذكياء والأغبياء، وإلىٰ السوقة والملوك، فيراها كل منهم مُقَدّرة علىٰ مقاس عقله، وعلىٰ وفق حاجته، فذلك ما لا تجده علىٰ أتمه إلا في القرآن الكريم.

فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفىٰ كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسنَ كلامٍ وأقربَه إلىٰ عقولهم، لا يلتوي علىٰ أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلىٰ ترجمانٍ وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة علىٰ السواء. ميسر لكل من أراد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر:١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان:٥٨].

القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

من وسائل تيسير القرآن للقراءة أنه كتاب موجز مع أنَّ ما يحتويه من معانٍ عظيمةٍ يحتاج عرضها إلىٰ الكثير من المجلدات الضخمة.

ولنا هنا أن نتخيل شيئًا: لو كان القرآن يملأ عدة مجلدات...

هل سيقبل عليه الناس؟

هل سيتسنىٰ لهم قراءته من أوله إلىٰ آخره أم سيهابون ذلك ويتكاسلون عن إتمامه؟!

- إن هذا الإيجاز المعجز يجمع بين القصد في اللفظ والوفاء بالمعنىٰ، وهذان ضدان لا يمكن أن يجتمعا في أي كلام غير القرآن كما يقول د. دراز: فالذي يعمد إلىٰ ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا علىٰ حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف علىٰ المعنىٰ قليلًا أو كثيرًا... فالحذر يأخذه من الإكثار والإسراف... يبذل جهده في ضم أطرافه وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق، ووسائل التقرير والتثبيت، وما إلىٰ ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان، حتىٰ يخرجه ثوبًا متقلصًا يقصر عن غايته، أو هيكلًا من العظم لا يكسوه لحم ولا عصب... ورب حرف ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه، ويكسف شمس فصاحته.

القرآن إيجاز كله:

القرآن إيجاز كله، سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله، والقرآن يستثمر دائمًا برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني... أجل، تلك ظاهرة بارزة فيه كله، يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب، ولذلك نسميه إيجاز كله... فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنىٰ.

۞ سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من الأمة:

لا يمكن لعاقل أن يُنكر الخلافات الموجودة بين أبناء الأمة الإسلامية، فمن خلاف بين السنة والشيعة، إلىٰ خلاف بين أبناء السنة أنفسهم.

والخلاف بين الناس أمر واقع ما له من دافع، لاختلاف البيئات والأفهام والثقافات.

وهو محمود لو كان اختلافَ تنوع بين الطوائف والمذاهب المختلفة حين يسعىٰ الجميع لتكميل بعضهم البعض.

وهو محمود لو كان خلافًا في المساحة التي يمكن الخلاف فيها، فالصحابة والسلف اختلفوا فيما بينهم، ولكن لم يختلفوا في الكليات والأصول، بل في الفرعيات.

وهو محمود كذلك لو لم يصاحبه تعصب واعتداد بالرأي وتسفيه وانتقاص للمخالفين واحتقار جهودهم أو الحط من شأنهم.

ولكن الواقع يقول غير ذلك، فالأمة ليست علىٰ قلب رجل واحد، فبعض الخلافات تجاوزت المساحة المسموح بها بكثير.

وبعض الخلافات انتقل أصحابها من الناحية الموضوعية إلىٰ الناحية الشخصية، فعمدوا إلىٰ تجريح الأشخاص والهيئات والتشهير بهم...

ومما يدعو للأسف أن الكل يعتقد أنه علىٰ صواب، وأن طريقته هي الطريقة المثلىٰ.

فما هو الحل لهذا الوضع الذي لا يُرضي الله ﷻ، والذي بسببه تتعرض

الأمة للخذلان والحرمان قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولقد ذهبت ريحنا بالفعل، وأصبحنا معرَّة الأمم، ومضرب المثل في التخلف والانحطاط.

الكلمة السواء:

لحل هذه المشكلة المعقدة لابد أن يكون هناك شيء يجتمع عليه الجميع... يرضون به حكمًا يحل هذا الخلاف ويصوب للجميع مواقفهم، فما هو هذا الشيء الذي يمكنه أن يجمع حوله أمة تجاوز عددها المليار وثلث المليار؟!

لو بحثنا في كل شيء تحت أيدينا فلن نجد إلا شيئًا واحدًا يوافق الجميع علىٰ الاحتكام إليه... ألا وهو القرآن.

والعجيب أن الله سبحانه وتعالىٰ سماه بالحبل، وكأنَّ قدره ووظيفته أن ينتشل الجميع ويرفعهم ويوحدهم قال تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ومما يؤكد هذا المعنىٰ قوله ﷺ: «**كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الأَرْضِ**».(١)

فالقرآن حين يقبل عليه المرء إقبالًا صحيحًا نازلًا به علىٰ هواه، وليس نازلًا بهواه إليه، فإنه يزيد الإيمان ويُنقص الهوىٰ في قلبه، وهذا من شأنه أن

(١) تفسير الطبري: (٥/ ٦٤٦)، وصحيح الجامع: (٤٤٧٣).

يُنهي جزءًا كبيرًا في موضوع الخلاف.

والقرآن كذلك يوضح ويبين الكثير من الأمور المختلف فيها، ويرسم في الأذهان خريطة الإسلام بنسبها الصحيحة دون تفريط ولا إفراط، فيُعطي كلَّ ذيِ حقٍّ حقَّه.

والقرآن يبني العلاقة الصحيحة مع الله، ومع النفس، ومع الرسل، ومع الملائكة، ومع الصالحين، ومع عالم الغيب وعالم الشهادة، و... وحين تنبني العلاقة الصحيحة بهذه الأمور يزول الكثير من أسباب الخلاف بين أبناء الأمة.

۞ سابعًا: القرآن عبادة متجددة لا تُمل:

القرآن لا يبلىٰ من كثرة الرد، ففيه الجديد دائمًا لقرائه، ولو نهل البشر جميعًا من نبعه لما انقطع أبدًا عن التدفق، ولما شعر أحدهم بالملل أو التكرار أو عدم وجود جديد، بل العجب أننا سنفاجأ يوم القيامة بأننا ما أخذنا إلا رشفات وقطرات يسيره من نهر القرآن العظيم الفياض بالخير، وصدق من قال: إن القرآن لا يزال بكرًا.

اقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة:٢١٢]، وانظر هل ترىٰ كلامًا أبين من هذا في عقول الناس. ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة، فإنك لو قلت في معناها:

١ - إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسِب يحاسبه ولا سائلٍ يسأله لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ويقدره علىٰ هؤلاء، أصبت.

٢ - ولو قلت: إنه يرزق بغير تقتير ولا محاسبة لنفسه عند الإنفاق خوف

النفاذ، أصبت.

٣ - ولو قلت: إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب، أصبت.

٤ - ولو قلت: إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له علىٰ عمله، أصبت.

٥ - ولو قلت: يرزقه رزقًا كثيرًا لا يدخل تحت حصر وحساب، أصبت.(١)

تقرأ فتؤجر:

وفوق هذا كله فالقرآن عبادة يُتعبد من خلالها ويُتقرب إلىٰ الله ﷻ بها، مما يدفع بالمسلم إليه ويحببه دومًا في التعامل معه كباب للأجر والثواب، وقربة إلىٰ الله، وهذا لا يتوافر في أي كتاب آخر.

تأمل هذا القول لرسول الله ﷺ وما يمكن أن يثيره من رغبة لقراءة القرآن: «**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ إِذَا رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ فِيهِ ثَلَاثَ خَلِفَاتٍ عِظَامِ سِمَانٍ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَثَلَاثُ آيَاتٍ يَقْرَأُ بِهِنَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثِ خَلِفَاتٍ عِظَامٍ سِمَانٍ**».(٢)

ثامنًا: القرآن وسيلة ودواء مُجرب

ومما يؤهل القرآن ليكون بدايةً صحيحةً لنهضة الأمة، أنه قد جُرِّب من قبل... استعمله الجيل الأول علىٰ حقيقته فصاروا من خلاله - بإذن الله -

(١) النبأ العظيم، ١٤٦، ١٤٧. باختصار.
(٢) صحيح مسلم: (٨٠٢).

خير أمة، وتبدل ترتيبهم بين الأمم من الذيل إلىٰ المقدمة في سنوات معدودة.

لقد كان حالُ أمة العرب قبل الإسلام أسوأَ بكثير من حالنا الآن، ومع ذلك فقد نفع معهم القرآن وأثَّر فيهم، وغيَّرهم، وأصلح حالهم، وأعاد صياغتهم من جديد، وهذا - بلا شك - يعطينا الأمل بأن القرآن يصلح معنا - بإذن الله - ويقدر أن يفعل بنا مثل ما فعل بهم.

ويكفيك في هذا أنَّ حزنَهم الشديد علىٰ وفاة رسول الله ﷺ لم يكن فقط علىٰ فراقه، بل كان علىٰ انقطاع نزول القرآن، وانفصال الأرض عن السماء، كيف لا، وقد ذاقوا حلاوة الإيمان من خلاله، وأدركوا قيمته وقدرته التغييرية الفذة، وأنه كان يرفعهم ويرقيهم في مدارج الإيمان، ويزيدهم معرفة بالله، وارتباطًا به....

تأمل معي هذه الواقعة التي تؤكد هذا المعنى:

- عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ: «انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءِ. فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا».(١)

أَوَلَا يكفينا القرآن؟!

- عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ جَعْدَةَ، قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِكِتَابٍ فِي كَتِفٍ فَقَالَ: «**كَفَىٰ**

(١) صحيح مسلم: (٢٤٥٤).

بِقَوْمٍ حُمْقًا أَوْ ضَلَالَةً أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ أَوْ كِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [العنكبوت:٥١] الْآيَةَ». (١)

- وفي لفظ: جَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِكُتُبٍ قَدْ كَتَبُوهَا، فِيهَا بَعْضُ مَا سَمِعُوهُ مِنَ اليهود، فقال النبي ﷺ: «**كَفَىٰ بِقَوْمٍ حُمْقًا أَوْ ضَلَالَةً، أَنْ يَرْغَبُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ نَبِيُّهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ غَيْرُهُ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ**» فَنَزَلَتْ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [العنكبوت:٥١] الْآيَةَ». (٢)

- عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، مَرَّ بِرَجُلٍ يَقْرَأُ كِتَابًا، فَاسْتَمَعَهُ سَاعَةً فَاسْتَحْسَنَهُ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: اكْتُبْ لِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، قَالَ: نَعَمْ، فَاشْتَرَىٰ أَدِيمًا فَهَيَّأَهُ، ثُمَّ جَابَهُ إِلَيْهِ، فَنَسَخَ لَهُ فِي ظَهْرِهِ وَبَطْنِهِ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَجَعَلَ يَقْرَأُهُ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَلَوَّنُ، فَضَرَبَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيَدِهِ الْكِتَابَ، وَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرَىٰ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُنْذُ الْيَوْمَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ فَاتِحًا وَخَاتَمًا، وَأُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَفَوَاتِحَهُ**». «**وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا، فَلَا يَهْلِكَنَّكُمُ الْمُتَهَوِّكُونَ**». (٣)

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٣٠٧٢)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور: (٦/ ٤٧١).
(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني: (٤/ ٢٤١).
(٣) انظر: نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني: (٣٦٧).

من هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أنَّ رسولَ الله ﷺ لم يكن يعتمد شيئًا في تربية الصحابة غير القرآن، وسنته المطهرة، باعتبارها شارحة له.

ومن هنا توثق ارتباط الناس بالقرآن في العهد النبوي، ارتباطًا عمق صلة القلوب بربها، إلىٰ درجة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتتبعون الوحي، تتبع الملهوف، الحريص علىٰ الترقي في مدارج المعرفة بالله والسلوك إليه سبحانه. (١)

لقد قام النبي ﷺ بمنهجه القرآني بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه فتغير ما حوله في دنيا الناس، فتغيرت المدينة ثم مكة ثم الجزيرة ثم بلاد فارس والروم في حركة عالمية تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

- إن التغيير الذي قاده النبي ﷺ بمنهج الله تعالىٰ بدأ بالنفس البشرية وصنع منها الرجال العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل الناس من الظلمات إلىٰ النور، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن التخلف إلىٰ التقدم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة. (٢)

❁ تاسعًا: القرآن هو المنقذ - بإذن الله:

والمُخرج من الفتن الذي دلنا عليه رسول الله ﷺ أخبرنا رسول الله ﷺ بأنه ستكون هناك فترات انكسار وهزيمة وفتن ستمر بها الأمة الإسلامية، وأن

(١) التوحيد والوساطة، ص (٤٢).
(٢) التوحيد والوساطة، ص (٤٢).

الأمم الأخرىٰ ستتكالب عليها وتهزمها، وأخبرنا ﷺ بأن السببَ وراء ذلك هو حب الدنيا وكراهية الموت، أو بمعنىٰ آخر ضعف الإيمان وسطوة الهوىٰ علىٰ القلب، عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَىٰ عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَىٰ الْأَكَلَةُ عَلَىٰ قَصْعَتِهَا**». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**». قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**».(١)

ولقد أخبرنا ﷺ بأن المخرج من هذه الفتن وهذا الوَهْن هو القرآن، لأنه سيعالج السبب الذي من أجله ضعفت الأمة وهانت علىٰ الله، عن الحارث الأعور قال: مَرَرْتُ فِي المَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَخُوضُونَ فِي الأَحَادِيثِ فَدَخَلْتُ عَلَىٰ عَلِيٍّ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ النَّاسَ قَدْ خَاضُوا فِي الأَحَادِيثِ، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**». فَقُلْتُ: مَا المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا**

(١) مسند أحمد: (٢٢٣٩٧)، سنن أبي داود: (٤٢٩٧)، والسلسلة الصحيحة: (٩١٨).

يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّىٰ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢]، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».(١)

ولقد أَكَّدَ رسولُ الله ﷺ علىٰ هذا المعنىٰ في حديثه لحذيفة بن اليمان حين أخبره بالاختلاف والفرقة بعده، عَنْ نَصْرِ بْنِ عَاصِمٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ الْيَشْكُرِيَّ فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي لَيْثٍ فَقَالَ: «مَنِ الْقَوْمُ؟» قُلْنَا: بَنُو لَيْثٍ فَسَأَلْنَاهُ وَسَأَلْنَا ثُمَّ قُلْنَا أَتَيْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ قَالَ: «أَقْبَلْنَا مَعَ أَبِي مُوسَىٰ قَافِلِينَ وَغَلَتِ الدَّوَابُّ بِالْكُوفَةِ فَاسْتَأْذَنْتُ أَنَا وَصَاحِبٌ لِي أَبَا مُوسَىٰ فَأَذِنَ لَنَا فَقَدِمْنَا الْكُوفَةَ» فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: إِنِّي دَاخِلُ الْمَسْجِدِ فَإِذَا قَامَتِ السُّوقُ خَرَجْتُ إِلَيْكِ قَالَ: «فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا فِيهِ حَلْقَةٌ يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ حَدِيثِ رَجُلٍ فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَامَ إِلَىٰ جَنْبِي» فَقُلْتُ لَهُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ: «أَبَصْرِيٌّ أَنْتَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: «قَدْ عَرَفْتُ لَوْ كُنْتَ كُوفِيًّا لَمْ تَسَلْ عَنْ هَذَا» هَذَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَأَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ وَعَرَفْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَنْ يَسْبِقَنِي» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ؟

(١) سنن الدارمي: (٣٣٧٤)، سنن الترمذي: (٢٩٠٦)، والسلسلة الضعيفة: (٦٣٩٣).

قَالَ: «**هُدْنَةٌ عَلَىٰ دَخَنٍ وَجَمَاعَةٌ عَلَىٰ أَقْذَاءٍ فِيهَا**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: يَا حُذَيْفَةُ «**تَعَلَّمْ كِتَابَ اللهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ النَّارِ، وَأَنْ تَمُوتَ يَا حُذَيْفَةُ، وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَىٰ جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ**».(١)

***

(١) سنن أبي داود: (٤٢٤٦)، وسنن النسائي: (٧٩٧٨). واللفظ له. والسلسلة الصحيحة: (٢٧٣٩).

المبحث الرابع

لماذا لم ننتفع بالقرآن؟!

في الصفحات السابقة ذكرنا أمورًا تؤكد أن القرآن هو سر نهضتنا، لكننا للأسف إذا ألقينا نظرة علىٰ حالنا سنجد أننا لم ننهض!! والسبب أننا بعيدون بعدًا كبيرًا عن القرآن ولم ننتفع به!! فلماذا لم ننتفع بالقرآن؟

إننا لم ننتفع بالقرآن الانتفاع المطلوب منَّا لعدَّة أسباب وهي كالآتي:

۞ أولاً: الصورة الموروثة عن القرآن

بعد أن ينزل الجنين من بطن أمه، ويبدأ في النمو شيئًا فشيئًا، ثم يدخل مرحلة الإدراك، فإنه يرىٰ أمورًا كثيرة تحدث من حوله.. هذه الأمور تقع في ذاكرته، فإذا ما تكرر بعضها أمامه فإنها تنتقل إلىٰ منطقة اللاشعور في عقله لتشكل معتقدًا لديه.

فعلىٰ سبيل المثال: عندما كان يشعر بالعطش كانوا يحضرون له شيئًا كل مرة، فاستقر في يقينه – مع الوقت – أن هذا الشيء هو الذي يدفع عنه العطش، ثم بعد ذلك يعلم اسم هذا الشيء، فيطلبه بتلقائية عند عطشه.

وعندما يجد أبويه يتوقفان عن الكلام عند سماع شيءٍ مَا يَصِلُ إلىٰ مسامعه عدة مرات في اليوم، فإن ذاكرته تختزن هذه الصورة من الاحترام (للأذان).

وهكذا في سائر الأمور التي يجدها في بيئته الأولىٰ، فكل ما يُقَّدس في بيته، يُقَدسَّ عنده، والعكس صحيح، فهو لا يأبه بالأمور التي لا يهتم بها أهل بيته.

وماذا عن الصورة الموروثة عن القرآن؟!

إن كانت أغلب المفاهيم والقيم – سواء كانت صحيحة أم خاطئة – تغرس في يقين الطفل في سنوات عمره الأولىٰ، فماذا يتكون لديه من مفاهيم حول القرآن؟!

– في البداية الطفل لا يعرف القرآن، لكنه يرىٰ شيئًا موضوعًا في مكانٍ ما بالمنزل، تمر الأيام والأيام ولا يقترب منه أحد، وإذا ما حدث وأمسك به أحد أبويه فإنه يُقبله، وينظر فيه قليلًا ثم يتركه في مكانه.

– كما يجد الطفلُ أمَّه تقوم بتشغيل المذياع فيخرج منه صوت له نغمة ليست كسائر النغمات التي يسمعها، ثم يجد أمه تترك مكان المذياع الذي ينبعث منه الصوت وتذهب لمكان آخر.. أو تتحدث مع والده، أو في الهاتف، أو تقرأ في مجلة.. كل هذا في وجود الصوت المنبعث من المذياع!!.

– يرىٰ والده ووالدته يشاهدان التلفاز باهتمام، فإذا ما جاء الصوت الذي تعود علىٰ سماعه مع أمه وبنفس النغمة، يجد أبويه وقد ذهب اهتمامهما فأغلقا الجهاز، أو تركاه يبث الصوت دون أن يستمع إليه أحد.

– يسير مع أبويه فيجد أناسًا يجلسون في مكان كبير، ويسمع نفس الصوت، ويجد الناس –في الغالب– يتحدثون فيما بينهم، ولا يعبأون بما يسمعون..

- يركب مع والده السيارة، فيجده قد أدار زرًا فيها، وانبعث نفس الصوت، ثم يجد أباه يتحدث مع أمه في وجود الصوت الذي تعود علىٰ سماعه دون أن يهتم به أحد..

فماذا تظن أن يرسخ في يقين هذا الطفل - الذي ما هو إلا أنا وأنت - عن القرآن؟!

هل سيرث من أبويه ومن البيئة المحيطة أهمية القرآن، وأنه للقلب كالروح للجسد، أم سيرث التقديس الشكلي له، وعدم الاهتمام بفهم خطابه؟!

- وعندما يكبر الأولاد ويكونون في سن المدرسة، فإن بعض الآباء يأخذ بأيديهم إلىٰ مراكز تعليم القرآن، فيزداد الأمر رسوخًا لديه بأن المطلوب مع القرآن هو: ألفاظ تقرأ أو تحفظ بلا وعي ولا إدراك..

الصورة الذهنية:

إن الصورة التي طبعت في أذهاننا، في مراحل الطفولة للقرآن أنه لا يُستدعي للحضور إلا في حالات الاحتضار والنزع والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاة.(١)

ويقول الإمام محمد عبده رحمه الله: معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالىٰ أول ما يُلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالىٰ هو اسم (الله) تبارك وتعالىٰ،

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص ١٧.

يتعلمه بالأيمان الكاذبة، والصادقة: (والله لقد فعلت كذا وكذا، والله ما فعلت كذا).

وكذلك القرآن: يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالىٰ، ولا يعقل معنىٰ ذلك، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين تربىٰ بينهم وذلك بأمرين:

أحدهما: اعتقاد أن آية كذا إذا كُتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفىٰ، وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ويبارك له في كذا وكذا إلىٰ غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة أكثر مما هو معروف للخاصة.

ثانيهما: الهزَّة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن إذا كان القارئ رخيم الصوت، حسن الأداء، عارفًا بالتطريب علىٰ أصول النغم.

والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم، بل أقوىٰ سبب لذلك هو بُعد السامع عن فهم القرآن.. وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليبُ القرآنِ بعجائبها، وتملكه مواعظُها فتشغله عما بين يديه مما سواه.(١)

ورثنا القرآن:

لقد ورثنا القرآن فيما ورثناه عن السابقين.. ورثناه ككتاب مقدس تقديسًا

(١) مقدمة تفسير الفاتحة ص ١٩، ٢٠، باختصار.

شكليًا: نُقبِّله.. نفتتح به الحفلات والمناسبات.. تكتب آياته في تابلوهات أنيقة تزين الجدران، أو تدق علىٰ مصكوكات من الذهب والفضة لتتزين بها النساء.

۞ ثانيًا: طول الإلف:

إن وجود الشمس، وشروقها وغروبها كل يوم آيات عظيمة تدل علىٰ القدرة المطلقة للخالق – سبحانه وتعالىٰ- وعلىٰ قيوميته علىٰ جميع خلقه، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم... هذه الآيات التي نشاهدها كل يوم: صباحًا ومساءً لماذا لا تؤثر فينا؟!

الجواب هو: لأننا أَلِفْنَا وجودَها منذ الصغر.

فطبيعة النفس البشرية إذا أَلِفت الشيء خفي عليها أسراره، وصرفها هذا الإلف عن التفكر فيه ثم اكتشاف ما فيه.(١)

فإذا ما انتقلنا للقرآن الكريم فإننا نجد أن (طولَ الإلف) له دور كبير في عدم انتفاعنا به..

فمنذ الصغر ونحن قد ألفنا القرآن يُتلىٰ بنغمة وتراتيل معينة، لا تظهر هذه النغمة في كلام آخر سواء كان شعرا أو نثرا أو أغانٍ.

وباستمرار سماع هذه النغمة تعودت الأُذن عليها، وأَلِفتها دون محاولة الإصغاء إلىٰ معنىٰ الكلام الذي يصاحبها.

---

(١) التعبير القرآني ص١٣٦.

ومما ساعد علىٰ عدم الإصغاء للخطاب القرآني أن المستمع في الغالب يكتفي بجو الروحانية، والشعور بالارتياح الذي ينشأ عند سماع أصوات المقرئين ينساب في المكان وكما أسلفنا فإن هذا الارتياح ناشئ عن جرس القرآن وجماله التوقيعي الذي لا نظير له، ولكنه للأسف لا ينُشئ إيمانًا، فالإيمان يحتاج إلىٰ يقظة العقل وإدراكه للمعنىٰ، مع استثارة العاطفة مع هذا المعنىٰ ليستقر مدلوله في القلب فينشأ بذلك الإيمان.

القراءة بالألحان المحدثة:

ومما ساعد علىٰ إلف القرآن، وعدم الانصراف إلىٰ المعنىٰ هو القراءة بالألحان المحدثة التي ابتدعها بعض المقرئين.

يقول ابن رجب: هذه الألحان تهيج الطباع، وتلهي عن تدبر ما يحصل له من الاستماع، حتىٰ يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة، والأصوات المطربة، وذلك يمنع المقصود من تدبر معاني القرآن.

وإنما وردت السنة بتحسين الصوت بالقرآن، لا بقراءة الألحان، وبينهما بون بعيد.(١)

فالقارئ يتفنن في النغم والتلحين، ويخرج عن سنن الترتيل، وقواعد التجويد، ويعيد الآية عند استحسان السامعين للنغمة وطلبهم الإعادة، والسامع يستخفه الطرب لا من معاني القرآن، بل من حسن التوقيع، وأفانين

(١) مجموع رسائل ابن رجب ٢/ ٤٦٣.

الألحان [1]، فيصيح في نهاية الآيات بكلمات الاستحسان، والثناء علىٰ

(١) **قلت:** (محمد): إن القارئ شاء أم أبىٰ سيقرأ علىٰ مقام أو وزن معين وهو ما استقرت له مسميات الآن من البياتي والراست والسيكا والحجاز و.....

ولكن أقول: إن الأصل أن يهتم القارئ بالأحكام والوقف والابتداء وأن يتدبر كلام الله وأن يعلم عظمة القرآن الكريم فإن استطاع القارئُ الأداءَ بصورة صحيحة بعيدة عن الأخطاء التجويدية، وكذلك تجنب ما فيه تلاعب بالوقف والابتداء فله أن يضبط المقام الذىٰ تَجُودُ به سليقته دون تكلف ولا زيغ ولا خروج بالأداء القرآني إلىٰ الغناء والتطريب خصوصًا من جعلوا القرآن كالغناء في الإتيان بالمقامات الفرعية وخلطوا بين أجناس المقامات ليخرجوا بمقام جديد يطربون به. فهل هذا يليق بكلام الله؟

ومن خرج بالقرآن إلىٰ التطريب والتلاعب فهذا حرام شرعًا لأن الرسول ﷺ حذر من التلاعب بالقرآن بل وأخبر بمن سيأتي يتلاعب بالقرآن الكريم.

روىٰ الطبراني في الأوسط: عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُحُونِ الْعَرَبِ وأَصْوَاتِها، وَإِيَّاكُمْ ولُحُونَ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَأَهْلِ الْفسقِ، فَإِنَّهُ سَيَجِيئُ بَعْدِي قَوْمٌ يُرَجِّعُونَ بِالْقُرْآنِ تَرْجِيعَ الْغِنَاءِ وَالرَّهْبَانِيَّةِ وَالنَّوْحِ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، مفتونةٌ قُلُوبُهُمْ، وقلوبُ مَنْ يُعْجِبُهُمْ شَأْنُهُمْ**». والحديث وإن كان في سنده ضعف إلا أن معناه صحيح لا سيما وأننا رأينا من لا عمل له إلا التلحين والتطريب للقرآن الكريم.

ثم أهمس همسة في أذن كل قارئ لكتاب الله، والهمسة من كلام الإمام القرطبي حيث يقول رحمه الله في مقدمة تفسيره وهو يرد علىٰ من ادعىٰ التلحين في القرآن: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّىٰ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ**». قَالَ الطَّبَرِيُّ وَلَوْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ لَمْ يَكُنْ لِذِكْرِ حَسَنِ الصَّوْتِ وَالْجَهْرِ بِهِ مَعْنًىٰ. قُلْنَا قَوْلَهُ: «**يَجْهَرُ بِهِ**» لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ وَفِيهِ بُعْدٌ، فَهُوَ دَلِيلٌ =

=

عَلَىٰ عَدَمِ التَّطْرِيبِ وَالتَّرْجِيعِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: يُطَرِّبُ بِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: يَجْهَرُ بِهِ: أَيْ يُسْمِعُ نَفْسَهُ وَمَنْ يَلِيهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ ﷺ لِلَّذِي سَمِعَهُ وَقَدْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالتَّهْلِيلِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا**....» الْحَدِيثَ، وَسَيَأْتِي.

وكذلك إِنْ كَانَ مِنْ صَحَابِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ فَلَا حُجَّةَ فِيهِ عَلَىٰ مَا رَامُوهُ، وَقَدِ اخْتَارَ هَذَا التَّأْوِيلَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا فَقَالَ: وَهَذَا أَشْبَهُ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ وَوَالَىٰ بِهِ غَانِيًا، وَفِعْلَهُ ذَلِكَ غِنَاءً وَإِنْ لَمْ يُلَحِّنْهُ بِتَلْحِينِ الْغِنَاءِ. قَالَ: وَعَلَىٰ هَذَا فسره الصحابي، وهو أعلم بالمقال وأقعد بالحال. وقد احتج أبو الحسن لِمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ فَقَالَ: وَقَدْ رَفَعَ الْإِشْكَالَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ قَالَ حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وغنوا به واكتبوه فو الذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الْمَخَاضِ من العقل**». قال علماؤنا: وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ صَحَّ سَنَدُهُ فَيَرُدُّهُ مَا يعلم علىٰ القطع والبتات من قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ بَلَغَتْنَا مُتَوَاتِرَةً عَنْ كَافَّةِ الْمَشَايِخِ، جِيلًا فَجِيلًا إِلَىٰ الْعَصْرِ الْكَرِيمِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَيْسَ فِيهَا تلحين وَلَا تَطْرِيبٌ، مَعَ كَثْرَةِ الْمُتَعَمِّقِينَ فِي مَخَارِجِ الْحُرُوفِ وَفِي الْمَدِّ وَالْإِدْغَامِ وَالْإِظْهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَيْفِيَّةِ الْقِرَاءَاتِ.

ثُمَّ إِنَّ فِي التَّرْجِيعِ وَالتَّطْرِيبِ هَمْزَ مَا لَيْسَ بِمَهْمُوزٍ وَمَدَّ مَا ليس بممدودٍ، فترجيع الألف الواحدة ألفات والواو الواحدة واوات والشبه الْوَاحِدَةُ شُبَهَاتٍ، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَىٰ زِيَادَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَذَلِكَ مَمْنُوعٌ، وَإِنْ وَافَقَ ذَلِكَ مَوْضِعَ نَبْرٍ وَهَمْزٍ صَيَّرُوهَا نَبْرَاتٍ وَهَمْزَاتٍ، وَالنَّبْرَةُ حَيْثُمَا وَقَعَتْ مِنَ الْحُرُوفِ فَإِنَّمَا هِيَ هَمْزَةٌ وَاحِدَةٌ لأغير، إِمَّا مَمْدُودَةٌ وَإِمَّا مَقْصُورَةٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ رَوَىٰ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُغَفَّلٍ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ سُورَةَ «الْفَتْحِ» عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ فَرَجَّعَ فِي قِرَاءَتِهِ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ وَقَالَ فِي صِفَةِ التَّرْجِيعِ: آء آء آء، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. قُلْنَا: ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَىٰ إِشْبَاعِ الْمَدِّ فِي مَوْضِعِهِ، ويحتمل أن

=

القارئ، والدعاء له، وطلب الإعادة منه.(١)

=

يكون صَوْتِهِ عِنْدَ هَزِّ الرَّاحِلَةِ، كَمَا يَعْتَرِي رَافِعَ صوته إذا كان راكبا من اضغاط صَوْتِهِ وَتَقْطِيعِهِ لِأَجْلِ هَزِّ الْمَرْكُوبِ، وَإِذَا احْتَمَلَ هَذَا فَلَا حُجَّةَ فِيهِ. وَقَدْ خَرَّجَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْغَنِيِّ بْنُ سَعِيدٍ الْحَافِظُ مِنْ حديث قتادة عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدَّ لَيْسَ فِيهَا تَرْجِيعٌ وَرَوَىٰ ابن جريح عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُؤَذِّنٌ يُطَرِّبُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَ الْأَذَانَ سَهْلٌ سَمْحٌ فَإِذَا كَانَ أَذَانُكَ سَمْحًا سَهْلًا وَإِلَّا فَلَا تُؤَذِّنْ**». أَخْرَجَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي سُنَنِهِ فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ مَنَعَ ذَلِكَ فِي الْأَذَانِ فَأَحْرَىٰ أَلَّا يُجَوِّزَهُ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي حَفِظَهُ الرَّحْمَنُ، فَقَالَ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: «﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩]». وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

قُلْتُ: وَهَذَا الْخِلَافُ إِنَّمَا هُوَ مَا لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَىٰ الْقُرْآنِ بِتَرْدِيدِ الْأَصْوَاتِ وَكَثْرَةِ التَّرْجِيعَاتِ، فإن زاد الأمر علىٰ ذلك لَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ فَذَلِكَ حَرَامٌ بِاتِّفَاقٍ، كَمَا يَفْعَلُ الْقُرَّاءُ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ أَمَامَ الْمُلُوكِ وَالْجَنَائِزِ، وَيَأْخُذُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأُجُورَ وَالْجَوَائِزَ، ضل سعيهم، وخاب عملهم، فيستحلون بِذَلِكَ تَغْيِيرَ كِتَابِ اللهِ، وَيُهَوِّنُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ الِاجْتِرَاءَ عَلَىٰ اللهِ بِأَنْ يَزِيدُوا فِي تَنْزِيلِهِ مَا لَيْسَ فِيهِ، جَهْلًا بِدِينِهِمْ، وَمُرُوقًا عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِمْ، وَرَفْضًا لِسَيْرِ الصَّالِحِينَ فِيهِ مِنْ سَلَفِهِمْ، وَنُزُوعًا إِلَىٰ مَا يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فَهُمْ فِي غَيِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَبِكِتَابِ اللهِ يَتَلَاعَبُونَ، فإنا لله وإنا إليه راجعون! لكن أَخْبَرَ الصَّادِقُ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ، فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ ﷺ. انظر: تفسير القرطبي (١/ ١٥) وما بعدها. انتهىٰ كلام القرطبي رحمه الله فليتدبره كل متدبر، ونسأل الله السلامة لديننا كما نسأله سبحانه أن يرزقنا تلاوة القرآن علىٰ الوجه الذي يرضيه عنا.

(١) هجر القرآن: (١٠٠).

ولطالما طرقت أَذاننا ونحن نسير في الشوارع والطرقات أصوات بعض المقرئين وهم يقرؤون بهذه الألحان المحُدثة، والقراءات المختلفة لنفس الآية، ولطالما سمعنا كلمات الاستحسان التي تلقىٰ إليهم والآهات التي تخرج من أفواه السامعين..

سمعنا هذا ولا نزال نسمعه حتىٰ ألفناه، وانصرفت عقولنا عن إدراك المعاني..

۞ ثالثًا: نسيان الهدف الذي من أجله نزل القرآن

إن الإنسان هو موضوع القرآن، بمعنىٰ أن الهدف الأسمىٰ لنزول القرآن هو هداية الإنسان وإصلاحه والسير به في الطريق المؤدي إلىٰ رضا الله وجنته..

ومن أجل تحقيق هذا الهدف جعلها الله رسالة موجزة مقارنةً بما تحتويه من معانٍ عظيمة، ليسهل حملها وقراءتها وحفظها.

ولكونها رسالةً موجزةً، وفقراتها قليلة الكلمات ثقيلة المعاني، كان من الضروري قراءتها بتأنٍ وتؤدة حتىٰ يتمكن القارئ والسامع من فهم المقصود منها ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦].

ولأن وظيفتها في الهداية والتغيير تتطلب الزيادة المستمرة للإيمان في القلوب، كان الأمر الإلهي بترتيلها والتغني بها لتستثير بذلك العاطفة ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:٤].

ولأنها تخاطب الناس جميعًا، فقد يسرها الله للقراءة، فلا تحتاج إلىٰ

أماكنِ محددةٍ، أو أزمنة خاصة لتقرأ فيها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧].

ولأن مستويات الناس وثقافاتهم ومداركهم مختلفة فقد جعل الله عباراتها مرنة تستوعب الزمان والمكان والأشخاص أيًا كان مستواهم.

ولأن الإنسان من طبيعته النسيان، وكذلك لتعرضه المستمر للمغريات والملهيات خلال يومه وليلته؛ كان من الأهمية بمكان أن يداوم علىٰ قراءة القرآن لتحدث له دوام التذكرة والتبصرة، وليُعَوِّض بالقرآن ما فقده من إيمان، وليس ذلك فحسب بل وليمد قلبه بالروح التي تجعله دومًا في إقبال علىٰ الله.

من هنا كانت التوجيهات النبوية المتعددة بكثرة تلاوة القرآن، وتعاهده كل يوم، وحتىٰ لا تمل النفس كان رصد الجوائز والأجر العظيم لكل من قرأ حرفًا من القرآن ليستمر الحافز والدافع لديها للقراءة.. كل ذلك ليتحقق المقصود من اللقاء بالقرآن.

تأمل معي هذا الحديث النبوي الذي يربط بين الأمرين.. بين قيمة القرآن، وبين ثواب قراءته، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ، فَتَعَلَّمُوا مِنْ مَأْدُبَةِ اللهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ. إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، لَا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّمُ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا يَخْلَقُ مِنْ رَدٍّ. اتْلُوهُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَأْجُرُكُمْ بِكُلِّ حَرْفٍ [مِنْهُ] عَشْرَ**

حَسَنَاتٍ. لَمْ أَقُلْ لَكُمْ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ». (١)

ولأن الهداية لن تحدث إلا بفهم المراد من الخطاب كان الأمر بتدبر القرآن لتحقيق المقصود من نزوله ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

ولأن البعض قد لا يتيسر له وجود المصحف بجواره في كل الأوقات، ولأن الصلاة تتطلب قراءة القرآن كانت فضيلة حفظه.. كله أو بعضه.

إذن فهي منظومة متكاملة من الوسائل التي شُرِعت، وندب إليها لتحقيق الهدف العظيم من نزول القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

فكثرة قراءة القرآن، وتعلم أحكام تلاوته، وترتيله، وحفظ آياته، وتدبره، وقراءته بصوت مسموع وحزين.. كل هذه وسائل لتحقيق الهدف.

معنىٰ ذلك أن أهل القرآن هم أهل الانتفاع به، والوصول من خلاله إلىٰ الهدف الذي أنزل من أجله.

✍ **من هنا ندرك كلام ابن القيم**: أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمُ الْعَالِمُونَ بِهِ، وَالْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يَحْفَظُوهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَأَمَّا مَنْ حَفِظَهُ وَلَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٥٠، وفي مجمع الزوائد (٧/ ١٦٤)، والدارمي (٣٣١٦) عن عبد الله بن مسعود.

بِمَا فِيهِ، فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ أَقَامَ حُرُوفَهُ إِقَامَةَ السَّهْمِ.(١)

ماذا يحدث لو نُسي الهدف؟!

فإذا ما نُسي الهدف من نزول القرآن، وبالتالي لم يحدث ربط الوسائل بهذا الهدف، فمن المتوقع أن يتعامل الكثير مع النصوص الواردة في فضل وأهمية «الوسائل» (كفضل القراءة والترتيل والحفظ وقراءة الليل..) علىٰ أنها «غايات» و «أهداف».

فيُصبح هم المرء حفظ القرآن كهدف ومن ثم لا يُعطي اهتمامًا يُذكر للقراءة المتأنية الواعية المدركة لمعاني الآيات فضلًا عن التأثر بها.

وينصرف الهم كذلك إلىٰ تحصيل أكبر قدر من الحسنات من خلال القراءة السريعة، وينصرف الهم أيضًا إلىٰ استغراق الأوقات في تعلم أحكام الترتيل والتعمق فيها، والتشديد علىٰ المتعلمين في أمور قد لا تكون أساسية في الترتيل.

- كل ذلك وغيره من المتوقع أن يحدث لو نُسىٰ الهدف من نزول القرآن.

ولقد حدث ذلك بالفعل.. نعم، لم يحدث ذلك بين يوم وليلة، بل بدأ نسيان الهدف من نزول القرآن يحدث بالتدريج بعد الجيل الأول.

يقول ابْنُ مَسْعُودٍ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيَعْمَلُوا بِهِ فَاتَّخَذُوا دِرَاسَتَهُ عَمَلًا، إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقْرَأُ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِ مَا يُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا وَقَدْ أَسْقَطَ الْعَمَلَ

(١) زاد المعاد: (١/ ٣٢٧).

بِهِ».(١)

✍ **ويقول الحسن البصري**: إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملا، فأنتم تركبونه وتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار.(٢)

✍ **ويقول الحسن البصري**: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوله، قال الله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. وما تدبر آياته إلا اتباعه لعلمه، والله يعلمه.

أما والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتىٰ إن أحدهم ليقول: قد قرأت القرآن كله فما أُسقط منه حرفًا، وقد أسقطه كله، ما بدا له القرآن في خلق ولا عمل، حتىٰ إن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد.

والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة، ومتىٰ كانت القراء تقول مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هذا.(٣)

- وكلام الحسن ﷺ خيرُ توصيفٍ للحال مع القرآن حين يُنسَىٰ الهدفُ من نزوله.

ابن تيمية يؤكد على هدف نزول القرآن:

✍ **يقول ابن تيمية** ﷺ: ولا يخفىٰ علىٰ أولىٰ الألباب أن المقصود

(١) موعظة المؤمنين: (٧٦: ٧٧).
(٢) المحرر الوجيز: (١/ ٣٩)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: (١/ ١٣٤).
(٣) أخرجه الفريابي في فضائل القرآن برقم (١٧٧).

بنزوله اتباعه، والعمل بما فيه، إذ العاملون به هم الذين جُعلوا من أهله، وأن المطلوب من تلاوته تدبره، وفهم معانيه، لذلك **أمر الله** بترتيله والترسل فيه ليتجلىٰ أنوار البيان من مشارق تبصرته، ويتحلىٰ بآثار الإيمان من حقائق تذكرته.(١)

هل نقرأ لنفهم أم نقرأ لنقرأ؟!

وللشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – كلام دقيق يؤكد هذا المعنىٰ، فيقول في كتاب «كيف نتعامل مع القرآن؟»: «حال المسلمين مع القرآن الكريم تستدعىٰ الدراسة المتعمقة، ذلك أن المسلمين بعد القرون الأولىٰ، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلىٰ ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمُدود، وما إلىٰ ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ علىٰ تواتره كما جاءنا، أداءً وأحكامًا -أقصد أحكام التلاوة- لكنهم بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم، صنعوا شيئًا ربما لم تصنعه الأمم الأخرىٰ.. فإن كلمة «قرأت» عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها، تعني: أن رسالة جاءته أو كتابًا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه.. فمن حيث الدلالة لا أجد فكاكًا بين الفهم والقراءة، أو بين السماع والوعي.

أما الأمة الإسلامية، فلا أدري بأية طريقة فصلت بين التلاوة، وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة، كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعي لمغازيها، يفيد أو هو المقصود.

---

(١) قاعدة في فضائل القرآن ص ٥٤.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف في هذا التصرف، أجد أنه مرفوض من الناحية الشرعية، ذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩] يعني: الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنىٰ، أو إدراك للمقصد».(١)

❁ رابعًا: الانشغال بفروع العلم والتبحر فيها

كان ﷺ يحرص علىٰ عدم انشغال الصحابة بغير القرآن حتىٰ يتمكن القرآن في القيام بعمله علىٰ أكمل وجه..

وتوفي الرسول ﷺ بعد أن ترك جيلًا عظيمًا تفخر به البشرية حتىٰ الآن..

ولقد كان أبناء هذا الجيل حريصين علىٰ تبليغ نفس الرسالة لمن بعدهم، ولقد مر علينا سابقًا الكثير من المواقف التي تؤكد هذا المعنىٰ..

ولكن بعد أن اتسعت الفتوحات، واختلط المسلمون بالأجناس الأخرىٰ وبما كانوا يحملونه من ثقافات حدث الانبهار بها والتفكير في نقلها وأسلمتها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ فإن الانشغال بتدوين الحديث، وتتبع رجاله استنفذ جهدًا عظيمًا من الأجيال التالية لجيل الصحابة.

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن ص٢٧. وقد سبق معنا هذا الكلام في مقدمة الكتاب، وأعدته هنا لأهميته ولاحتياج السياق إليه.

هذا العمل العظيم الذي قام به هؤلاء العلماء الصالحون كان ضروريًّا لحفظ سنة رسول الله ﷺ، ولكن كان من الأولىٰ ألا يكون هذا العمل علىٰ حساب القرآن، بمعنىٰ أن يسير الاهتمام بالحديث وتدوينه جنبًا إلىٰ جنب مع الاهتمام بالقرآن كمصدر متفرد للهداية والتغيير، ولكن لم يحدث هذا علىٰ الوجه المطلوب، وبدأ دور القرآن يتراجع قليلًا في النفوس، ولقد تعالت صيحات من بينهم تنبههم لضرورة التوازن، حتىٰ لا يكون الاهتمام بالحديث علىٰ حساب القرآن، ومن ذلك ما قاله شعبة بن الحجاج رحمه الله لأصحاب الحديث: «يَا قَوْمُ إِنَّكُمْ كُلَّمَا تَقدَّمْتُمْ فِي الحَدِيثِ تَأَخَّرْتُمْ فِي الْقُرْآن». (١)

وليت الأمر قد اقتصر علىٰ الاهتمام بالسنة، فالسنة هي صنو القرآن، وشارحة لما أجمل فيه، والذي يهتم بها اهتمامًا صحيحًا فسيجدها تدعوه دومًا إلىٰ الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

وليت الأمر قد اقتصر كذلك علىٰ العلوم التي استقاها العلماء من الكتاب والسنة والتي تُعرف الناس بربهم وبالطريق الموصل لبلوغ رضاه وجنته، وبأحكامه التي افترضها عليهم، وبما ينفعهم وبما يضرهم في الدارين.

لم يقتصر الأمر علىٰ ذلك، بل بدأ التوسع في فروع العلم المختلفة كعلوم الآلة (النحو -البلاغة- الصرف..) والتي من المفترض أنها وسائل مُعينة لخدمة العلم الأساسي النافع ألا وهو معرفة الله ﷻ وما يحبه ويرضاه،

(١) فتح الرحمن في بيان هجر القرآن: (ص: ٤٧)، حياة التابعين (ص: ١١٥٧).

ومعرفة أحكامه، ومعرفة ما ينفع وما يضر، كل ذلك كان علىٰ حساب الاهتمام بالقرآن.

ومما ساعد علىٰ الانجراف في هذا الأمر النسيان التدريجي للهدف من نزول القرآن، وعدم أخذ تحذيرات الصحابة مأخذ الجد، واجتهاد البعض في تأويلها علىٰ أنها تعني فقط عدم خلط القرآن بغيره وهو لا يزال غضا طريًا.

النبع لم يعد واحدًا:

إذن فتطور الفكر الإسلامي بهذا الشكل كان له مردود سلبي علىٰ الاهتمام بالقرآن، والدليل علىٰ ذلك أن المساحة اتسعت بين الجيل الأول والأجيال المتتالية.

خامسًا: غياب أثر القرآن:

ومن العوامل التي أدت إلىٰ ضعف الإيمان بالقرآن غياب أثره في حياة الكثير من المنشغلين به.

نعم، هناك نماذج قرآنية تظهر بين الحين والآخر، ولكن نسبتها قليلة بالمقارنة بالمجموع.

وعندما يرىٰ عمومُ الناسِ أن أخلاقَ غالبيةِ أهل القرآن لا تختلف عن أخلاق غيرهم، بل علىٰ العكسّ!!

فقد يرىٰ الناس من البسطاء أخلاقًا وسلوكيات قد لا يجدوها من المنشغلين بالقرآن... وهذا من شأنه أن يؤثر علىٰ نظرتهم للقرآن تأثيرًا سلبيًا، لتزداد مكانته انحصارًا في النفس، ويدخل في نطاق التقديس الشكلي

المحض.

فإذا ما حدثتهم عن ضرورة الانتفاع بالقرآن كما انتفع به الجيل الأول، قفزت إلىٰ أذهانهم الأمثلة التي يعرفونها ويحتكون بها من المنشغلين بالقرآن، و التي لا يرون فيها النماذج الصحيحة، لذلك فإن كلماتك – في الغالب – لن تجد لها صدىً إيجابيًا في نفوسهم.

والأمثلة علىٰ هذا الكلام للأسف الشديد موجودة في كل مكان – إلا من رحم الله. **نسأل الله العافية.**

***

نتائج عدم التغيير بالقرآن

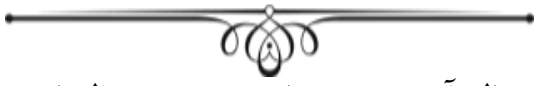

إن عدم التغيير بالقرآن نتج عنه نتائج سيئة، ومن المناسب التذكير بها حتىٰ نحذر منها:

۞ ١ - استمرار الفرقة بين المسلمين:

إن أسباب الفرقة والاختلاف إما شبهات وإما شهوات، إما جهل بالحق، وإما شح مطاع وهوىٰ متبع وإعجاب المرء برأيه كما قال الرسول ﷺ: عَن أَنَس؛ أَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٍ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًىٰ مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ**». (١)

والقرآن قادر بأمر الله تعالىٰ أن يغير كل هذا وأن يجمع الأمة تحت رايته، كما حدث مع جيل الصحابة الكرام قال تعالىٰ: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا** ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ،**

(١) مسند البزار: (١٣/ ٤٨٦). والسلسلة الصحيحة: (٣٢٣٧).

فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا». (١)

۞ ٢ - استمرار الذل والهوان:

إن رفعة الأمة مرتبطة بأمرين اثنين:

- **أولًا**: أن يتمثل أبناؤها رسالة الإسلام قال تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

- **ثانيًا**: قيام الأمة بواجبها العظيم تجاه البشرية، وهو إقامة الحق والعدل فيها والتمكين للدعاة إلىٰ الله أن يبلغوا دعوته لجميع الناس دون ضغوط من أحد قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

- والأمة عندما تترك القرآن، ولا يدخل أفرادها إلىٰ دائرة تأثيره فإنهم لن يتغيروا، ولن تتمثل فيهم صفات أصحاب الرسالة، ومن ثَمَّ يحدث العكس، فيتصارع الناس علىٰ الدنيا وعلىٰ تحصيل أسبابها، تاركين التضحية والبذل في سبيل الله، فيحق عليها العذاب من الله ﷻ بالذل والهوان.

- إننا عندما ننتفع بالقرآن في التغيير يرفعنا الله إلىٰ مكان القيادة في الأرض، وعندما نتركه ستجري علينا سنَّتُه التي لا تحابي أحدًا، فيحق علينا الخذلان والذل والهوان، وهذا ما أخبرنا به رسولنا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا**

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٦/ ١٢٥) واللفظ له، صحيح ابن حبان: (١٢٢) والسلسلة الصحيحة: (٧١٣).

الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».(١)

۞ ٣ - ضياع البشرية:

إن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لنا، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وهو الدين الخاتم، وهو رسالة الله الأخيرة للناس، ولقد كلف سبحانه أمة الإسلام في كل زمان ومكان أن تقوم بتبليغه إلىٰ جميع البشر علىٰ وجه الأرض لإقامة الحجة عليهم قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]، واستنقاذ كل من بداخله خير مخبوء ممن لا يمنعهم عن الإسلام إلا الجهل به.

- ولقد كلف الله سبحانه أمة الإسلام كذلك بقيادة البشرية، وأن تقيم فيها ميزان الحق والعدل: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وعندما تترك الأمة وظيفتها فماذا تظن أن يحدث للبشرية؟ أليس الضياع والشقاء والبؤس واستعلاء الظلم والفساد!! وهذا هو الحادث الآن، لذلك كل يوم يمر والمسلمون في غفلة عن دينهم تخسر البشرية فيه خسارة فادحة، ويزداد شقاؤها وتعاستها، ونسأل الله السلامة والنجاة.

---

(١) صحيح مسلم: (٨١٧).

٤ - غياب الربانية:

إن الربانية تعني الاتصال الدائم المستمر بالله ﷻ، والتعلق التام به، فينعكس ذلك علىٰ مشاعرنا وعقولنا، فتكون قلوبنا ملتفتة إليه سبحانه عند التعرض للشدائد والمضايقات.

- كما أن الربانية تعني الربط الدائم لأحداث الحياة بالله ﷻ، وتعني كذلك الحضور القلبي الدائم معه سبحانه، وهي شرط الولاية والعزة للفرد والأمة قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦].

وأفضل وسيلة لتحقيقها هي القرآن قال تعالىٰ: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩]. (١)

فإن لم ننتفع بالقرآن وندخل إلىٰ دائرة تأثيره، وإن لم تَحُل روحه في قلوبنا فستغيب عنا معاني الربانية، وسيقِلُّ بشكل مفزع وجود الربانيين في الأمة، وستعلو رايات المادية وسترتفع قيمها الفاسدة، ويزداد الانجذاب نحو الأرض والطين.

٥ - القلق والاضطراب النفسي:

إن القرآن يجمع همَّ القلب، ويوجهه نحو الله، وعندما يبتعد القلب عن

(١) انظر تفصيل صفات الربانيين في كتابي: العبد الرباني في المفهوم القرآني.

القرآن تتفرق الهموم، ويزداد الشعور بالغم، والقلق والاضطراب، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٥].

- إن أول علاج للاضطراب النفسي والقلق هو القرآن وكيف لا والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت:٤٤].

***

الفصل الخامس

كيف نعود إلى القرآن؟

المبحث الأول

معركة الشيطان مع القرآن

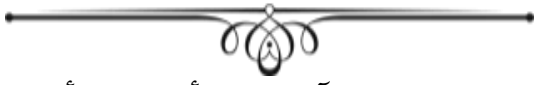

إننا إذا أردنا العودة إلىٰ القرآن، فلابد أن نعرف أمرًا هامًا وهو عداوة الشيطان لنا وللقرآن، ومن هنا أقول: إن لله سنةً في الكون مذ خلق السماوات والأرض إلىٰ أن يرث الأرض ومن عليها، هذه السنة هي الصراع بين الحق والباطل.

ومن المعلوم أن معاداة الباطل للحق، ومعاداة الحق للباطل، بدأت بإبليس – وهو الباطل بعينه حيث ناصب لعنه الله الحقَّ وأهلَه العداءَ، وأعلن عليهم حربَ الجبناء، حربًا يذكيها استكبارًا وعلوًا، استكبارٌ بالباطل، وعلوٌ لا محالة زائل، ولقد كان الحق – علىٰ مرّ العصور – أبدًا منتصرًا، وإن خبا صوته للحظات، أو ضعف أهله فترات، وحتىٰ يتسنىٰ لنا الرجوع والعودة إلىٰ القرآن، فواجب أن نعلم أن عداوة الشيطان لنا وللقرآن عداوة لها خصوصية عنده.

إن إبليس – الذي أقسم بعزة الله بأن يعمل علىٰ غواية البشر وسوقهم معه إلىٰ النار – ما كان ليترك هذه الأمة ليلتقي أبناؤها بالقرآن فيتزودوا منه بالإيمان، وبالتالي يتحصنون من كيده، ويلتزمون صراط الله المستقيم، فيدخلون الجنة.

وكيف يتركهم وقد رأىٰ التأثير العظيم الفذ للقرآن علىٰ جيل الصحابة، ومن ثَّم فإن استمرار وجود القرآن بين المسلمين من شأنه أن يُفسد مخططاته، ويغلق الأبواب أمامه.

وفي الوقت ذاته فإن الشيطان لا يمكنه تحريف القرآن لأن الله ﷻ قد تكفل بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

ولا يمكنه كذلك دعوة المسلمين لنبذ كتابهم وإبعاده من بينهم لأنه رسالة نبيهم.

❁ فماذا فعل الشيطان مع القرآن؟!

استطاع الشيطان أن يستدرج المسلمين، ويبعدهم شيئًا فشيئًا عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن، وفي الوقت ذاته تركهم يتصلون بالقرآن، ويتعاملون معه ولكن من الناحية الشكلية فقط.

*** فيجتمع له بذلك أمران:**

الأول: أن يصبح القرآن موجودًا بين المسلمين من الناحية الشكلية اللفظية.

الثاني: أن يكون غائبًا من الناحية الحقيقية الجوهرية.

فيخمد باجتماع هذين الأمرين أي تأنيب للضمير في نفوس المسلمين بهجر كتابهم، ومن ثمَّ لا يمكن لأحد أن يفكر بأن القرآن بات غائبًا مهجورًا.

فعندما تنتشر المصاحف في كل مكان، وتبث الإذاعات آياته ليل نهار، وتُخرِّج المدارس والحلقات والكليات عشرات الآلاف من حفاظه، وينكَبُّ

المسلمون علىٰ قراءته في رمضان، ويتنافسون علىٰ ختمه مرات ومرات بُغية تحصيل أكبر قدر من الحسنات..

عندما يكون هذا وغيره من مظاهر الاهتمام الشكلي بالقرآن هو السائد بيننا، فإن الدعوة إلىٰ العودة الحقيقية إليه، والانتفاع بمعجزته، وقدرته الفذة علىٰ إنشاء الإيمان والتغيير لن تجد آذانا مصغية بين المسلمين، بل سيصبح من المتوقع أن يقال لصاحب هذه الدعوة: وماذا عسانا أن نفعل مع القرآن أكثر مما نفعل؟! ألا يكفي هذا الجهد المبذول معه؟!

۞ تلبيس إبليس:

لقد نجح الشيطان نجاحًا كبيرًا في استدراج الأمة وإبعادها عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن، وهذا لم يتم في يوم وليلة، بل كان استدراجًا هادئًا بطيئًا عبر القرون المتعاقبة حتىٰ وصل إلىٰ الحال الذي وصل إليه الآن.

وكانت أبوابه الرئيسة التي يدخل منها علىٰ المسلمين هي باب الجهل، وباب الهوىٰ، ومن كل منهما تتفرع أبواب كثيرة تناسب كل الحالات، وتؤدي في النهاية إلىٰ تحقيق هدفه.

والجدير بالذكر أن الشيطان ليس له سلطان مباشر علىٰ أحد من الناس، ولكن عندما تُصادِفُ وَسْوسَتُه هوىً في النفس، أو جهلًا بالأمر فمن المتوقع أن تتم الاستجابة لها.

فالجهل بقيمة القرآن الحقيقية، والهدف من نزوله، كان له دور كبير في الاستجابة لوساوس الشيطان في هذا الباب.

أما الهوىٰ فله أفرع كثيرة يمكن أن تُغذِّيه من خلال التعامل الشكلي مع القرآن منها: التقدم علىٰ الناس بحفظه، وتَصَدُّر المجالس لتعليم حروفه، والمباهاة بإتقانه، واتخاذه حِرفة و....

فالأبواب المتفرعة من بابَيْ الجهل والهوىٰ كثيرة ومتعددة وكلها تؤدي إلىٰ عدم الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

۞ ليس وحده:

ومما تجدر الإشارة إليه أن العوامل والأسباب – السابق ذكرها – قد ساعدت الشيطان في الوصول لهدفه، وإبعاد غالبية الأمة عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن.

فالصورة الموروثة، وطول الإلف، ونسيان الهدف من نزول القرآن، والانشغال بفروع العلم علىٰ حساب القرآن، وعدم ظهور آثار سلوكية إيجابية للكثير من المشتغلين بالقرآن... كل هذا سَهَّل علىٰ الشيطان مهمته.

۞ الشيطان ملحاح بطيء اليأس:

إن هدف الشيطان هو إبعاد كل فرد في الأمة عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن، لذلك فهو في البداية يجتهد في الحيلولة دون قراءة المسلم للقرآن، إما بالتسويف، أو بإشغاله بأمر آخر.

فإن قرأ بالفعل دخل عليه من مداخل متعددة:

.. مدخل التعب والنعاس.

.. مدخل تحصيل أكبر قدر من الحسنات ليدفع القارئ للقراءة السريعة

غير المتدبرة.

.. مدخل شرود الذهن مع بعض الكلمات.

.. مدخل تذكيره بأمر من أمور الدنيا التي ينبغي عليه القيام بها ليترك القراءة.

.. مدخل الاهتمام الشديد بمخارج الحروف وإتقان التلاوة.

.. مدخل تخويفه من تدبر القرآن..

✍ **يقول ابن هبيرة:** ومن مكايد الشيطان تنفير عباد الله عن تدبر القرآن لعلمه أن الهدىٰ واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتىٰ يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا.(١)

✍ **ويقول أبو حامد الغزالي في حديثه عن موانع فهم القرآن:** أَنْ يَكُونَ الْهَمُّ مُنْصَرِفًا إِلَىٰ تَحْقِيقِ الْحُرُوفِ بإخراجها من مَخَارِجِهَا وَهَذَا يَتَوَلَّىٰ حِفْظَهُ شَيْطَانٌ وُكِّلَ بِالْقُرَّاءِ لِيَصْرِفَهُمْ عَنْ فَهْمِ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ ﷻ فلا يزال يحملهم علىٰ ترديد الحرف يُخَيِّلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ مَخْرَجِهِ، فَهَذَا يَكُونُ تَأَمُّلُهُ مَقْصُورًا عَلَىٰ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ فَأَنَّىٰ تَنْكَشِفُ لَهُ الْمَعَانِي وَأَعْظَمُ ضَحِكَةٍ لِلشَّيْطَانِ من كان مطيعًا لمثل هذا التلبيس.(٢)

– ومن تأمل هَدْيَ رسولِ الله ﷺ، وإقراره أهل كل لسان علىٰ قراءتهم

---

(١) تدبر القرآن للسنيدي ص ٤٨، نقلًا عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣/ ٢٧٣).

(٢) إحياء علوم الدين: (١/ ٢٨٤).

تبين له أن التنطع، والتشدق، والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته.(١)

۞ المعركة الحاسمة:

بهذه المداخل السابقة وغيرها، استطاع الشيطان أن يحقق مراده، ويُبعد الأمة عن جوهر القرآن، وعن وظيفته المتفردة في إحداث التغيير المتكامل للشخصية المسلمة.

فمنذ أن نزل القرآن من السماء، أصبحت أهم معركة للشيطان مع المسلمين هي إبعادهم عن دائرة تأثير هذا الكتاب ليسهل عليه إضلالهم وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ومن العجيب أن العبادة الوحيدة التي أمرنا الله ﷻ أن نستعيذ به، ونطلب حمايته لنا من الشيطان، قبل القيام بها: هي قراءة القرآن ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [النحل:٩٨].

فمن المعلوم أنه قبل أن يشرع المرء في الذكر أو الصيام أو إخراج الصدقة، فإنه غير مأمور بأن يستعيذ بالله من الشيطان. فلماذا قراءة القرآن دون غيرها من العبادات؟!

أليس في هذا الأمر دلالة علىٰ قيمة القرآن ودوره الخطير في الهداية والتغيير، ومن ثمَّ فالشيطان يجتهد في إبعاد الناس عنه؟!

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (١/ ١٦٢).

✍ **يقول ابن هبيرة**: ومن مكايد الشيطان تنفير عباد الله عن تدبر القرآن، لعلمه أن الهدىٰ واقع عند التدبر. (١)

من هنا تتضح لنا أهمية الاستعاذة بالله من الشيطان قبل التلاوة، فجوهر الاستعاذة هو طلب حماية الله لنا من الشيطان، واستدعاء معونته سبحانه في صرف هذا العدو.

لذلك علينا - كي نتغلب علىٰ هذه العقبة - أن نهرع إلىٰ الله، ونلح عليه في الدعاء بأن يصرف عنا الشيطان وذلك قبل الشروع في قراءة القرآن، وكذلك كلما شردت أذهاننا خلال القراءة.

أيضًا فإن الالتزام بالوسائل النبوية في قراءة القرآن لها دور كبير في جمع العقل والمشاعر مع القراءة؛ ومن ذلك الانشغال بالقرآن، والتهيئة الذهنية من خلال الوضوء والسواك والقراءة في مكان هادئ قدر المستطاع، والتهيئة القلبية بالتباكي مع القراءة، وأيضًا القراءة من المصحف، وبترتيل، وبصوت مسموع، وأيضًا الفهم الإجمالي للآيات، والتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد علىٰ الأسئلة، وسؤال الله الجنة والاستعاذة.

من النار، وأخيرًا ترديد الآية التي تؤثر في القلب..

وقبل هذا كله علينا ألا نستجيب لوساوس الشيطان بترك القراءة، بل نقاوم ونقاوم ونستعين بالله عليه.

---

(١) تدبر القرآن للسنيدي: (٤٨).

❁ وساوس الشيطان عند القراءة:

- إن لسان حالنا إلا ما رحم الله يقول: كلما هممت بقراءة القرآن، وفتحت المصحف أجد النعاس يغلبني، فإذا ما قاومته وقرأت أجد نفسي وقد شردت بفكري في أودية الدنيا، وتذكرت أمورًا لم تخطر علىٰ بالي منذ فترة طويلة... فماذا أفعل لأجمع عقلي ومشاعري مع القراءة؟!!

الجواب: إن السبب الرئيس وراء هذا كله هو الشيطان، فهو لن يتركنا نتعامل تعاملًا صحيحًا مع القرآن وننتفع به، لأنه يوقن أن الهدىٰ والإيمان والتغيير يتحقق من خلال فهم القرآن والتأثر به، فالشيطان هو العدو المبين للبشر، وهدفه الدائم هو إضلال الناس جميعًا..

ولعلمه بقدر القرآن، ومدىٰ قوة تأثير معجزته لمن يتعرض لها باستمرار، فإنه يعمل جاهدًا علىٰ صرف الناس عن قراءة القرآن حتي يسهل عليه إضلالهم، وقد قالها قديمًا بكل وضوح: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف:١٦]، والقرآن خير ما يدل علىٰ الصراط المستقيم ويأخذ بيد من يتمسك به إلىٰ هذا الصراط حتىٰ يصل به إلىٰ منتهاه ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم:٤٢].

فإن جاهد البعض الشيطان وبدأ في القراءة، فإنه لا يتركه ليفلت منه ويمسك بحبل القرآن، بل يعمل جاهدًا علىٰ أن يصرف ذهنه عن فَهْمِ ما تضمنته الآيات من معان هادية، ومدخله لذلك هو تزيينه فوائد القراءة السريعة وما سيجني من ورائها من حسنات كثيرة.

فإن جاهده القارئ، واجتهد أن يُعمل عقله فيما يقرأ، حاول أن يجعل عقله يشرد مع كلمة من كلمات القرآن الذي يقرؤه، فيذكِّره من خلالها بموقف من مواقفه السابقة، فينشغل لسانه بالقراءة، أما عقله ففي واد آخر.

فإن جاهده القارئ، ولم يسمح بشرود ذهنه مع القراءة، فإنه يدخل عليه من باب التعمق في فهم كل كلمة يقرؤها، ليصبح القرآن بذلك مخاطِبًا لعقله فقط، دون أن يؤثر في قلبه، ومن ثمَّ تصبح ثمرة قراءته زيادة معارفه العقلية دون زيادة للإيمان في قلبه. وهكذا يجتهد الشيطان في صد الناس عن الانتفاع بالقرآن.

- الآن، وبعد أن عرفنا عداوة الشيطان للقرآن، وكيف حرصه علىٰ إبعادنا عن كتاب الله تعالىٰ، نطرح هذا السؤال لنجيب عليه: **كيف نعود إلىٰ القرآن؟**

***

المبحث الثاني

عوامل تهيئ المرء للدخول إلى عالم القرآن

إن الجواب علىٰ هذا السؤال **كيف نعود إلىٰ القرآن؟** يحتاج منَّا بداية أن نقول: إن العامل الرئيس لدخول الواحد منا إلىٰ عالم القرآن، وتذوقه، واستخراج كنوزه هو شدة احتياجه إليه ورغبته فيه.

وليتخيل المرء نفسه وقد أصابه مرض في عضوٍ من أعضائه، وبحث عن الدواء الذي يشفيه ولم يجده، وزادت معاناته من المرض، وفي هذه الأثناء يخبره أحد المقربين إليه بأن هناك كتابًا به وصفة أكيدة لمرضه، وقد جُربت من قبل وأتت بنتائجَ مبهرةٍ، لكنَّ المشكلة أنه لا يعلم في أي صفحة من صفحات الكتاب تكون هذه الوصفة.

- تُرىٰ ماذا سيكون رد فعل هذا المريض؟
- كيف سيتعامل مع هذا الكتاب؟
- وكيف ستكون طريقة قراءته له؟
- وهل سيسمح لذهنه أن يشرد في سطر منه؟
- وإذا ما شرد ذهنه هل سيتابع القراءة أم سيعود لقراءة ما شرد فيه مرة أخرىٰ؟

- إن المؤكد لدىٰ الجميع أن هذا المريض سيكون في أعلىٰ درجات اليقظة والاستعداد للتلقي والتنفيذ في كل لقاء له مع هذا الكتاب، وسيقرؤه مرات ومرات حتىٰ يصل لدوائه.

فإن كان هذا البحث والتعب والحرص فيما يخص البدن الذي سيبلىٰ بعد الموت فلماذا لا نفعل ذلك مع القلب الذي به نجاة المرء؟!

قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨- ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

ما الذي يجعلنا ننتظر، والكتاب الذي يحوي الشفاء والهداية بين أيدينا ميسر للذكر.. متواجد في كل بيت.. لا ينقصنا إلا أن نمد أيدينا فنتناوله ونقبل عليه بشعور الملهوف الراغب في الهدىٰ.

إذن: نقطة البداية تبدأ من العبد، والبداية هي استشعار الحاجة للعودة إلىٰ القرآن.. وهذا الشعور يجب حتمًا أن يُتَرْجَمَ في هيئة دعاء وتضرع إلىٰ الله بأن ييسر لنا فهم كتابه، وحسن تدبره، والعمل بما فيه... ولا ينبغي أن يدفعنا تأخر الإجابة إلىٰ اليأس وترك الدعاء، وحسبنا في ذلك ما قاله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**».(١)

(١) صحيح البخاري: (٦٣٤٠)، واللفظ له، صحيح مسلم: (٢٧٣٥).

۞ الإمداد بحسب الاستعداد:

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا ﴾ [الأنفال:٧٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٣١] وهذه الآيات تؤكد هذه القاعدة التي تقول: الامداد علىٰ قدر الاستعداد، لكن شريطة أن تكون البداية من العبد قال تعالىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء:٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ ﴾ [الأنفال:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد:١١]، فلنرِ الله من أنفسنا خيرًا، ولنكثر من الاستغفار والتوبة، ولنداوم قرع الباب.

۞ القرآن والأولويات:

ومع الدعاء والتضرع إلىٰ الله، علينا أن نضع القرآن في أعلىٰ سلم أولوياتنا واهتماماتنا، وأن نعطيه أفضل أوقاتنا، ونمكث معه أطول فترة ممكنة، فعلىٰ قدر ما سنعطي للقرآن سيعطينا ويكرمنا، فهو كما أخبر عنه الله ﷻ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الواقعة:٧٧].

إن طول المكث مع القرآن من شأنه أن يسرع خطىٰ التغيير المنشود.. تغيير العقل وإعادة تشكيله، وبناء اليقين الصحيح فيه، وتغيير القلب وطرد حب الدنيا والهوىٰ منه، وترويض النفس علىٰ لزوم الصدق والإخلاص.

فكتاب هذا شأنه ينبغي أن نسلم له زمام قيادتنا ونترك أنفسنا له، وأن نكثر من الجلوس وعقد اللقاءات معه كلما سنحت الفرصة لذلك. وليس معنىٰ هذا إهمال العلوم الأخرىٰ وإنما تفريغ الوقت الأكبر لهذا الكتاب.

وعلينا كذلك أن نهيئ مكانا للقائه بعيدا عن الضوضاء، وعن كل ما من شأنه أن يشوش علىٰ الذهن ويقلل التركيز.

❁ سلامة النطق:

ومن الأمور التي ينبغي أن نتقنها منذ البداية: تصحيح النطق بالقرآن وتعلم أحكام التجويد، فسلامة النطق من الأهمية بمكان لفهم القرآن، وكذلك أحكام التلاوة والتي من شأنها أن تيسر علىٰ القارئ ترتيل القرآن.

فإن قال قائل: ولماذا الترتيل؟ ألا يكفي سلامة النطق؟

إن للترتيل الكثيرَ من الفوائد فضلا عن كونه واجبا علىٰ قارئ القرآن، فمن فوائده: إطالة مدة قراءة الآية مما يتيح للعقل فرصة فهم المقصود منها.

✍ **يقول ابن حجر** في شرحه لباب الترتيل في القراءة في صحيح البخاري: أي تبين حروفها، والتأني في أدائها ليكون أدعىٰ إلىٰ فهم معانيها.(١)

ومن فوائده كذلك: أنه يستثير المشاعر، لأن العبرة ليست بالتدبر العقلي فقط ولكن لابد أن يصحب ذلك انفعال وجداني ليحدث التأثر القلبي ويزداد

(١) فتح الباري (٩/ ١٠٨، ١٠٩).

الإيمان.

لذلك نجد التوجيه النبوي بالتغني بالقرآن، أي بتحسين الصوت وتزيينه، وكذلك التباكي عند قراءته لمن لم يستطع البكاء.. كل ذلك لتستثار المشاعر ويتحقق المقصود من القراءة.

قال ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، وَتَغَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا**». (١)

إن تلاوة القرآن حق تلاوته كما يقول أبو حامد الغزالي هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزعاج والائتمار.. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ. (٢)

- وهنا لابد لنا من وقفة نوضح بها حكم تَعَلُّمِ أحكام التجويد:

إن الناظر في حال الأمة يجد خللًا كبيرًا، بسبب جهل كثيرين بأحكام التجويد، بل من المحزن المبكي أن هناك من يصلي إمامًا بالناس وهو لا يعرف المفخَّم من المرقَّق، ولا الإدغام من الإقلاب!!

والمشكلة أنه إذا نصح ناصح لهؤلاء أن يتعلموا أحكام التجويد، نجد الاستغراب، بل والإنكار لماذا نتعلم التجويد؟ هل هو مطلوب؟ هل هو ضروري؟

---

(١) ابن ماجه: (١٣٣٧)، والبيهقي في الشعب: (٢٠٥١)، وضعيف الجامع: (٢٠٢٥).
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٤٤٢).

وعندما يكون الجواب: إن تعلم التجويد فريضة، نجد الإنكار الشديد، من أمثال هؤلاء.

لذا نقول: يجب أن يكون هناك نشرٌ لهذه الثقافة، ثقافة تعلم التجويد، مع التأكيد علىٰ أن تعلم التجويد فريضة لأنَّ القرآنَ نزلَ مجودًا.

ولكن لما تصدر بعض من لا يحسن التجويد، وأصبحت له كلمة تُسمع، وتقدم علىٰ غيره في المحراب ظن أن الأمر من الكماليات، وهذا للأسف الشديد.

من هنا وجب أن نوضح حكم تعلم أحكام التجويد، إبراءً للذمة بين يدي الله تعالىٰ.

- إن التجويد فريضة علىٰ كل مكلف، **وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع.**

أما الكتاب:

فقوله تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:٤] أي اتله علىٰ تؤدة وطمأنينة وخشوع وتدبر مع مراعاة قواعد التجويد من مد الممدود وقصر المقصور وإظهار المظهر وإدغام المدغم وإخفاء المخفي إلىٰ غير ذلك.

وقد أخبر غير واحد من أئمتنا أنه صح عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل:٤] «الترتيل هو

تجويد الحروف ومعرفة الوقوف». (١)

وإذا تأملنا في الآية الكريمة نجد أن الله تبارك وتعالىٰ لم يقتصر علىٰ الأمر بالفعل في قوله عز شأنه: ﴿وَرَتِّلِ﴾ بل أكده بمصدر مؤكد للأمر وهو قوله سبحانه: ﴿تَرْتِيلًا﴾ وهذا مما يفيد الاهتمام بشأنه والترغيب في ثوابه والعمل به.

هذا: والأمر في هذه الآية للوجوب كما هو الأصل في الأمر إلا أن تكون قرينة تصرفه عن هذا الوجوب إلىٰ غيره من المعاني كالندب أو الإباحة أو التهديد... إلخ ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب إلىٰ غيره مما ذكر ونحوه فبقي علىٰ الأصل وهو الوجوب فتأمل.

وما الأمر بالترتيل هنا إلا لأن الترتيل صفة تكلم الله بالقرآن كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢] وناهيك بهذا شرفًا وجلالًا.

وأما السنة:

فكثيرة منها: عَنْ مُوسَىٰ بْنِ يَزِيدَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يُقْرِئُ الْقُرْآنَ رَجُلًا فَقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] مُرْسَلَةً، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَا هَكَذَا أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠] فَمَدَّدَها». (٢)

---

(١) انظر: الإتقان: (١/ ٨٥).

(٢)المعجم الكبير: (٩/ ١٣٧)، التفسير من سنن سعيد بن منصور: (٥/ ٢٥٧).

فابن مسعود الذي هو أشبه الناس سمتًا برسول الله ﷺ أنكر علىٰ الرجل أن يقرأ كلمة «لِلْفُقَرَاءِ» من غير مد ولم يرخص له في تركه»، مع أن فعله وتركه سواء في عدم التأثير علىٰ دلالة الكلمة ومعناها، ولكن لأن القراءة سنة متَّبعة يأخذها الآخر عن الأول كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه. واستفاض النقل عنه بذلك؛ أنكر ابن مسعود رضي الله عنه علىٰ الرجل أن يقرأ بغير قراءة النبي ﷺ التي أقرأ بها أصحابه رضي الله عنهم جميعًا، فدل ذلك علىٰ وجوب تعلم التجويد واتباع أحكامه عند التلاوة، لدلالة مثل هذا النص بالجزء علىٰ الكل. (١)

* وعن ابن مسعود عن علي رضي الله عنهما قال: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ، ﷺ، **يَأْمُرُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَمَا عُلِّمَ**». (٢)

وأما الإجماع:

فقد قال العلامة الشيخ محمد مكي نصر في نهاية القول المفيد ما نصه: فقد أجمعت الأمة المعصومة من الخطأ علىٰ وجوب التجويد من زمن النبي ﷺ إلىٰ زمننا ولم يختلف فيه عن أحد منهم وهذا من أقوىٰ الحجج وقد **ذكر الشيخ أبو العز القلانسي في ذلك شعرًا فقال:** (٣)

يا سائلا تجويد ذا القرآن... فخذ هديت عن أولي الإتقان
تجويده فرض كما الصلاة... جاءت بذا الأخبار والآيات

(١) هداية القاري إلىٰ تجويد كلام الباري: (١/ ٤٧/ ٤٨).
(٢) صحيح ابن حبان: (٧٤٧)، المستدرك علىٰ الصحيحين: (٢٨٨٥).
(٣) نهاية القول المفيد ص٩، ١٠.

وجاحد التجويد فهو كافر... فدع هواه إنه لخاسر
وغير جاحد الوجوب حكمه... معذب وبعد ذاك إنه
يؤتىٰ به لروضة الجنات... كغيره من سائر العصاة
إذ الصلاة منهم لا تقبل... ولعنة المولىٰ عليهم تنزل
لأنهم كلام ربي حرفوا... وعن طريق الحق زاغوا فانتفوا

✍ **وقال ابن الجزري في المقدمة الجزرية:**

والأخذ بالتّجويد حتم لازم... من لم يجوّد القرآن آثم
لأنّه به إلىٰه أنزلا... وهكذا منه إلينا وصلا
وهو أيضا حلية التّلاوة... وزينة الأداء والقراءة
وهو إعطاء الحروف حقّها... من صفة لها ومستحقها

***

المبحث الثالث

الوسائل العملية للانتفاع بالقرآن

مما لا شك فيه أن من يُقبِل علىٰ القرآن مستشعرًا أنه خطاب من الله ﷻ موجه إليه يحمل في طياته مفاتيح سعادته في الدنيا والآخرة، وأنه القادر بإذن الله علىٰ تغييره مهما كان حاله.. لا شك أن هذا الشخص لا يحتاج إلىٰ من يدله علىٰ وسائل تعينه علىٰ الانتفاع بالقرآن، لأنه بهذا الشعور قد أصبح مهيأ للتغيير الذي يقوم به القرآن.

أما وإنه من الصعب علينا في البداية أن نكون كذلك بسبب ما ورثناه من أشكال التعامل الخاطئ مع القرآن، مما يجعل هناك حاجزًا نفسيًا بيننا وبينه يمنعنا من الانتفاع الحقيقي به.

وبما أن الأمر كذلك فإن عودتنا إلىٰ القرآن تحتاج إلىٰ وسائل سهلة، هذه الوسائل تنطلق من قاعدة (تيسير القرآن للذكر)، فما دام القرآن ميسرًا للذكر فلابد أن تكون وسائل الانتفاع به ميسرة للجميع، وهذه الوسائل هي:

۞ أولاً: المداومة على التلاوة اليومية:

إن التغيير القرآني تغيير بطيء، هادئ، متصاعد، ولكي يؤتي ثماره لابد من استمرارية التعامل معه، فلا يصح ترك قراءة القرآن يومًا من الأيام وإلا

تضاءل الأثر المترتب عليها.

ولكي يحقق القرآن هدفه، فيهدينا إلىٰ الصراط المستقيم، ويثبتنا عليه، ويغير ما بأنفسنا، ويجعلنا في حالة دائمة من التبصر والتذكر - لابد أن نداوم علىٰ التلاوة اليومية ولفترات طويلة، ليلا ونهارا، سفرا وحضرا.. ولتكن تلاوة مرتلة بطيئة، ولا يكن هم القارئ متىٰ سينتهي من السورة أو الورد، بل يكون همه متىٰ يتجاوب قلبه، ويخشع فؤاده، وتدمع عيناه.

۞ ثانيًا: تهيئة الجو المناسب:

إن المكان الهادئ يعين علىٰ التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح المكان الهادئ للقارئ بالتعبير عن مشاعره إذا ما استثيرت بالبكاء والدعاء.

ولكي يقوم القرآن بعمله في التغيير لابد من تهيئة الظروف المناسبة لاستقباله، ومن ذلك وجود مكان هادئ بعيد عن الضوضاء يتم فيه اللقاء بالقرآن، ومع وجود المكان الهادئ يجب أن يكون اللقاء بالقرآن في وقت النشاط والتركيز لا في وقت التعب والرغبة في النوم.

۞ ثالثًا: التركيز مع القراءة:

إنني لم أجد ما يوصل المعنىٰ المراد هنا إلا قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، فقديما كان هناك من يصلي ولا يعي ما يقول بسبب أنه سكران، ونحن في هذا الزمان أصابت الدنيا الكثيرَ من الناس بالسُّكْرِ، فشغلتهم عن تدبر كتاب

الله وعن التركيز أثناء قراءته ولنتأمل قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فربنا لم يقل: حتىٰ تحفظوا ما تقولون، إنما قال: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ فالأصل أن يعرف الواحد منا بين يدي من يقف، وماذا يقول ومن يخاطب؟.(١)

وإذا أردنا أن نقرأ القرآن فالحد الأدنىٰ أن نقرأ القرآن كأي كتاب.

فالمعتاد أننا عندما نشرع في قراءة كتاب أو مجلة أو جريدة فإننا نعقل ما نقرؤه، وإذا ما شردنا في موضع من المواضع عُدنا بأعيننا إلىٰ الوراء، وأعدنا قراءة ما فات علىٰ عقولنا، وما دفعنا إلىٰ ذلك إلا لتفهم المراد من الكلام.

---

(١) وشبيه بذلك قول الله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فالله لم يقل لنبيه محمد ﷺ (قل لا إله إلا الله) وإنما قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، فلو علمنا حقيقة هذه الكلمة، لما استهنا بمقتضاها.

وشبيه بذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فالله يقول: (أجيب)، ولم يقل أسمع فقط، والسؤال يجيب من؟ يجيب من دعاه هو لا غيره، ومثال تقريبي: لو عند إنسان مشكلة يفكر فيها ويقول في نفسه من المحال حل المشكلة إلا عن طريق فلان، ظنا منه أنه قادر علىٰ حل مشكلته، في هذه الحالة تعلق صاحب المشكلة ببشر لا ينطق إلا بإذن ربه، ولا يرفع قدمًا ويضعها إلا بإذن ربه، ولا يملك شيئا لنفسه فضلًا عن غيره، فمن إلتجأ إلىٰ المخلوق ونسي الخالق يكون خاسرًا لذلك جاء التوجيه من الله ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦]،أي دعا الله لا غيره والله هو مالك النفع والضر.

وهذا عين ما نريده مع القرآن: أن نقرأه بحضور ذهن، فإذا ما شردنا أو تشتت فكرنا في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شرد فيها ذهننا.

نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا علىٰ التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون زيغ أو شرود للقلب والفكر.

ولنتذكر دائمًا قول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ولكن في بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لا ندري ما نقول، فماذا نفعل إذا ما فشلنا في جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟ علينا عندئذ التوقف بنية العودة إليها في وقت آخر.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ، فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ**(١) **عَلَىٰ لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ**».(٢)

وليكن مقياس استمرارنا في القراءة قول الحسن بن علي ﷺ: «اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه».(٣)

---

(١) (فاستعجم القرآن) أي استغلق ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس.

(٢) صحيح مسلم: (٧٨٧).

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص ٦٣.

۞ رابعًا: أن نجعل المعنى هو المقصود:

البعض منا عندما يشرع في تدبر القرآن تجده يقف متمعنا عند كل لفظ فيه مما يجعل التدبر عملية شاقة عليه وما يلبث إلا أن يمل فيعود أدراجه إلىٰ الطريقة القديمة في القراءة دون فهم ولا تدبر.

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر وسلاسة في نفس الوقت؟

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنىٰ الإجمالي للآية، وإذا وجدنا بعض الألفاظ التي لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف علىٰ المعنىٰ من السياق، كمن يقرأ مقالا باللغة الإنجليزية مثلا ولا يعرف معاني بعض الكلمات، فإنه يفهم المعنىٰ الإجمالي من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّىٰ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «**مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَىٰ عَالِمِهِ**».(١)

(١) مسند أحمد: (٦٧٠٢).

وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن سهلة وميسرة للجميع.

فعلىٰ سبيل المثال إذا ما قرأنا قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف:٤٠]. ولا ندري معنىٰ حسبانًا ولا زلقًا لكننا نفهم من السياق أن عقابا ومصيبة قد تحدث لهذا البستان.

وعندما نقرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾ [عبس:٣١]، ولا ندري معنىٰ أبًّا، فالسياق يدلنا علىٰ أنه نوع من المأكولات.

نعم إن معرفة معاني الكلمات الغريبة تساعدنا علىٰ زيادة الفهم، ولكن علينا ألا نجعل عدم معرفتها عائقا يحول بيننا وبين الاسترسال في القراءة، والتركيز معها والتأثر بها.

وليس معنىٰ هذا عدم النظر في كتب التفسير ومعاني الكلمات، فمما لا شك فيه أن للتفسير دورًا كبيرًا في حسن الفهم، وله أيضًا دور أساسي في معرفة الأحكام الشرعية، والتي لا ينبغي علينا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثير ممن استنبط تلك الأحكام بمفرده من القرآن دون أن يكون مؤهلا لذلك، مثل الخوارج وغيرهم.

ومع هذا الدور العظيم للتفسير إلا أنه ينبغي أن يكون له وقته الخاص به، وغير مرتبط بوقت القراءة، فنحن لا نريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد القلب الحي كذلك، وهذا يحتاج إلىٰ اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح بقوة تأثيره أن تنساب داخلنا وتتصاعد من خلال

الاستمرار في القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

حسن الابتداء والوقف:

من الأمور المعينة كذلك علىٰ فهم المعنىٰ الإجمالي للآيات: حُسن الابتداء والوقف.

يقول النووي رحمه الله: ويستحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض، وكذلك إذا وقف عند المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشار، فإن كثيرًا منها في وسط الكلام المرتبط.(١)

---

(١) الأذكار للنووي ص ١٦٣.

وللتأكيد علىٰ كلام الإمام النووي أقول: جرت العادة أن القراء يقرؤون في رمضان بترتيب المصحف والبداية تكون ببداية جزء أو ربع، ونلحظ خللًا في بعض المواضع منها:

البَدء بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ﴾ [آل عمران:١١٣]، نعم هنا بداية الربع، إلا أن المعنىٰ له ارتباط بما قبله، فيحسن أن يبدأ القارئ من قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] حتىٰ يصل إلىٰ قوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ﴾ [آل عمران:١١٣] وبهذا تكون المعاني مترابطة.

أيضًا: البدء من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٤]، فإن كانت هنا بداية الجزء إلا أن المعنىٰ له ارتباط بما قبله ومعطوف عليه، فيحسن أن يبدأ من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢]، وهنا يكون قد بدأ بالمحرمات، حتىٰ يصل إلىٰ قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٤]، فيكون المعنىٰ قد تم ووضح.

❁ خامسًا: التجاوب مع القراءة:

إن القرآن رسائل موجهة، وخطاب مباشر من الله ﷻ لجميع البشر، هذا الخطاب يشمل من ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعدًا ووعيدًا، وأوامر ونواهي.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد علىٰ أسئلته، وتنفيذ ما يمليه من تسبيح أو حمد أو استغفار أو سجود، وعلينا كذلك التأمين علىٰ الدعاء والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام.

* عن عبد الله بن السائب قال: أخر عمر بن الخطاب رضي الله عنه العشاء الآخرة فصُليت ودخل فكان في ظهري، فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات:١] حتىٰ أتيت علىٰ قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات:٢٢]، فرفع صوته حتىٰ ملأ المسجد: أشهد.(١)

* وسمع عبد الله بن مسعود رجلًا قرأ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان:١]. قال: إي وعزتك، فجعلته سميعًا بصيرًا، وحيًّا وميتًا.(٢)

* وعن أبي عمارة الكوفي - عبد خير - أنه سمع عليًّا قرأ في الصلاة:

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٤٩.

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٥٠.

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]، فقال: سبحان ربي الأعلىٰ.(١)

فعلينا بالمداومة علىٰ استخدام هذه الوسيلة والتي سنجد لها أثرًا عظيمًا بمشيئة الله في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

❁ سادسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب:

إن يقظة العقل وقت قراءة القرآن أمر نستطيع تحصيله بشيء من المجاهدة وبعون من الله ﷻ، أما حضور القلب وتجاوبه مع القراءة وتأثره بها، فهذا أمر لا نملكه وقد يمضي بنا وقت ليس بالقصير حتىٰ يبدأ القلب في التحرك مع القراءة، فإلىٰ أن تنفذ أنوار الآيات من بين أغلفة الظلمات وتصل إلىٰ القلب علينا بالمداومة علىٰ القراءة المتأنية مع يقظة العقل، والتضرع إلىٰ المولىٰ ﷻ بأن يفتح قلوبنا لكلامه، وبمشيئة الله لن يطول انتظارنا، فبمرور الوقت سيبدأ القلب بالتأثر والانفعال ولو مع آية من الآيات.

فإذا ما تم ذلك في لحظة من اللحظات.. فماذا نفعل حينئذ؟

ينبغي علينا أن نستثمر وجودها أحسن استثمار، وأن نعض عليها بالنواجذ فهذه اللحظات من أهم أوقات حياتنا، ومن خلالها يتم التغيير المنشود.

فمعنىٰ تأثر القلب بآية من الآيات هو دخول نور هذه الآية إلىٰ القلب وتفاعله معه، وإحلاله محل ظلمة فيه، ويعني كذلك زيادة الإيمان، وهذا قلما يحدث للواحد منا وخاصة في البداية، لذلك علينا ألا نضيع تلك

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٥٣.

الفرصة إذا ما جاءتنا ولنعمل علىٰ دخول أكبر قدر من النور إلىٰ قلوبنا بترديد تلك الآية مرات ومرات، وعلينا ألا نمل من ذلك طالما وُجد التجاوب، وشيئا فشيئا ستتبدد الظلمات من القلب ويُطرد الهوىٰ، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه التأثر بالآيات ويزداد لينه وخشوعه بها.

✍ **يقول ابن القيم**: و لَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّىٰ مر بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاج إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة وَلَو لَيْلَة.

فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعىٰ إلىٰ حُصُول الإيمان وذوق حلاوة الْقُرْآن.

وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف يردد أحدهم الآية إلىٰ الصَّباح وَقد ثَبت عَن النَّبِي أنه قَامَ بِآيَة يُرَدِّدهَا حَتَّىٰ الصَّباح وَهِي قَوْله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨]. فقراءة الْقُرْآن بالتفكر هِيَ أصل صَلَاح الْقلب.

✍ **وَلِهَذَا قَالَ ابْن مَسْعُود**: لا تهذّوا القرآن كهذِّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدَّقَل، وقفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب.(١)

وبترديد الآية التي تؤثر في القلب تتولد داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

﴿ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

❁ سابعًا: استصحاب معنى من المعاني الإيمانية:

الوسائل السابقة تكفي بمشيئة الله وعونه لحسن العودة إلىٰ القرآن، والانتفاع بمعجزته، إذا ما داومنا عليها، وصبرنا علىٰ ذلك.

وهناك وسيلة أخرىٰ من شأنها أن تُسرع الخطىٰ نحو الدخول إلىٰ عالم القرآن، ودائرة تأثيره القوية علىٰ الإنسان.

هذه الوسيلة هي استصحاب معنىٰ من المعاني الإيمانية، والبحث عن مدلوله من خلال رحلتنا مع القرآن.

فإذا ما كانت رحلة المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنىٰ جديد من المعاني التي تؤسس القاعدة الإيمانية في القلب وتبني اليقين في العقل.

ومما لا شك فيه أن استصحاب معنىٰ إيماني أو أكثر في كل رحلة سيكون له بعون الله وفضله أبلغ الأثر في تذوق حلاوة الإيمان، فإذا ما صاحب ذلك ربط مدلول هذا المعنىٰ بواقع الحياة فلا تسل عما سيحدثه من قرب حقيقي، ومعرفة، وأنس بالله ﷻ، والتمتع بالحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده وأولياءه.

ومن فوائد استصحاب المعنىٰ الإيماني في قراءتنا للقرآن أنه يُثير الهمة

ويقوي العزيمة.(١)

✍ **يقول ابن القيم**: فَإِنَّ سَيْرَهُمْ (٢) إِنَّمَا هُوَ عَلَىٰ الشَّوَاهِدِ، فَمَنْ كَانَ لَا شَاهِدَ لَهُ فَلَا سَيْرَ لَهُ، وَلَا طَلَبَ وَلَا سُلُوكَ لَهُ.

وَأَعْظَمُ الشَّوَاهِدِ: صِفَاتُ مَحْبُوبِهِمْ، وَنِهَايَةُ مَطْلُوبِهِمْ، وَذَلِكَ هُوَ الْعَلَمُ الَّذِي رُفِعَ لَهُمْ فِي السَّيْرِ فَشَمَّرُوا إِلَيْهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَنْ رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - فَقَدْ رَآهُ غَادِيًا رَائِحًا، لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَىٰ لَبِنَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عَلَمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي التَّوَانِي وَالْفُتُورِ وَالْكَسَلِ، حَتَّىٰ يَرْفَعَ اللهُ ﷻ لَهُ - بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ - عَلَمًا يُشَاهِدُهُ بِقَلْبِهِ، فَيُشَمِّرُ إِلَيْهِ، وَيَعْمَلُ عَلَيْهِ.(٣)

***

(١) راجع فصل: زيادة الإيمان بالقرآن.

(٢) أي السائرين إلىٰ الله.

(٣) مدارج السالكين: (٣/ ٣٢٧).

الفصل السادس

جوانب الهداية في القرآن

مدخل وتمهيد

أنزل الله ﷻ القرآن لمقصد عظيم، ألا وهو هداية البشر إليه وإلىٰ طريقه المستقيم، وقيادتهم إلىٰ جنته ورضوانه، وإنقاذهم من إبليس ومن المصير الذي يقودهم إليه، يقول أعزُّ من قال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥- ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف:٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النمل: ١- ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت:٤٤].

فالقرآن هو كتاب الهداية الربانية، وهو الحبل الممدود بين السماء والأرض، مَن تمسَّك به نجا من الهلاك عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ**

وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا». (١)

إنه المصباح الذي اجتبىٰ به سبحانه وتعالىٰ هذه الأمة، فلا سبيل لهدايتها إلا به، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

❁ مفهوم الهداية:

القارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، يجده كثيرًا ما يصف نفسه بأنه نور وهدىٰ للناس.. فماذا تعني كلمة الهداية، وكيف تكون؟

قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**يَا عَلِيُّ، سَلِ اللهَ الْهُدَىٰ وَالسَّدَادَ وَاذْكُرْ بِالْهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَبِالسَّدَادِ تَسْدِيدَكَ السَّهْمَ**». (٢)

فمعنىٰ الهداية بصفة عامة: معرفة الطريق الصحيح الموصل للهدف الذي يسعىٰ المرء لبلوغه.

فإن كان الأمر كذلك، فما هو هدف المسلم في الحياة وكيف يبلغه؟

- إن الهدف هو رضا الله ﷻ ودخول جنته، ولقد أخبرنا سبحانه وتعالىٰ بأنه ليس هناك إلا طريق واحد يؤدي إلىٰ هذا الهدف، ألا وهو: الصراط المستقيم.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

(١) صحيح ابن حبان: (١٢٢)، والسلسلة الصحيحة: (٧١٣).
(٢) مسند أحمد: (٦٦٤)، والنسائي: (٥٢١٠)، والحاكم (٤٧٧٠٠)، وصحيح الجامع (٧٩٥٢).

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٥٣]].

والطرق التي تُحيط بالصراط كثيرة، ويقف علىٰ رأس كل منها شيطان يدعو الناس إليه، كما أخبرنا بذلك المعصوم ﷺ. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا**»، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ**﴾ [الأنعام:١٥٣]. (١)

هذا الطريق المستقيم ينبغي علىٰ المسلم أن يعرفه من بين الطرق الأخرىٰ المحيطة به، وأن يسير فيه طيلة حياته حتىٰ يلقىٰ ربه... فكيف له ذلك؟

لم يشأ سبحانه وتعالىٰ أن يترك الإنسان دون دليل يدله علىٰ الصراط، ويهديه إليه.. فكان القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ **قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾** ﴾ [الأحقاف:٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ** ﴾ [الإسراء:٩].

ولقد بيَّن ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَان

(١) مسند أحمد: (٤٤٣٧)، وهو حسن لغيره. وأخرجه عبد بن حميد (١١٤١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٦) عن أبي بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد، بهذا الإسناد.

الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَىٰ جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَىٰ بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَىٰ رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ». (١)

❁ كيفية الهداية القرآنية:

هداية القرآن للإنسان تتم من خلال كشفه وإنارته لكل الجوانب التي تتعلق بحركة الإنسان الخارجية، وكذلك كل ما يوجد بداخله من جوانبَ غامضةٍ، وأسئلة حائرة، وتصورات خاطئة.

فالقرآن يكشف هذه الجوانب، ويوجهها الوجهة الصحيحة، وهو ما يعبر عنه «بسُبل السلام»، فهدفه الأساسي الوصول بمن يتبعه إلىٰ بر الأمان في كل ما يتعلق به من أمور الدنيا قبل الآخرة، يقول تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].

فمن خلال القرآن يحدث الانسجام بين المرء وفطرته المجبولة علىٰ

(١) مسند أحمد: (١٧٦٧١)، والحاكم: (٢٤٥)، وصحيح الجامع: (٣٨٨٧).

عبادة الله ﷻ، وبه يحدث السلام بينه وبين نفسه، وبينه وبين من حوله من أفراد، وكذلك مع الكون المحيط به، ومع كل ما في يديه من أدوات مثل الأولاد والمال. **هذا علىٰ سبيل الإجمال**.

أما علىٰ سبيل التفصيل: فعندما يوجد الإنسان في الدنيا، ويبدأ عقله في النمو والتمييز والإدراك، ويصل إلىٰ سن البلوغ، فمن الطبيعي أن تتوارد علىٰ عقله تساؤلات كثيرة تتردد داخله من مثل هذا النوع وغيرها:

١ - من الذي خلقني وخلق الناس جميعًا؟ ما اسمه، وكيف أتعرف عليه، وما الدليل الذي يؤكد علىٰ أنه الخالق، فهناك الكثير من الآلهة المزعومة؟! **[من هو الله؟]**.

ولماذا خلقني هذا الإله، وميزني عن سائر ما أجد من مخلوقات؟ ما المطلوب مني؟! **[واجبات العبودية]**.

٢ - أسمع عن شخص اسمه محمد ﷺ، قد أرسله الله ﷻ إلىٰ البشر، معه رسالة منه - سبحانه - فمن هو هذا الرسول، وما دوره، وما طبيعة رسالته التي يحملها؟

٣ - أرىٰ الناس تتسابق علىٰ جمع المال، وعلىٰ التمتع بما في الدنيا من زينة، ومع ذلك أراهم يموتون دون أن يأخذوا من دنياهم شيئًا، فلماذا إذا يتكالبون عليها؟

وأرىٰ كذلك أُناسًا قد حُرموا الغنىٰ، وآخرين حُرموا الصحة، وآخرين حُرموا الأولاد..

فلماذا لا يكون الجميع سواسية؟... وماذا بعد الموت؟ [**قصة الوجود**].

٤ - أشعر بنوازع ودوافع تدفعني إلىٰ الفجور، والاستئثار بكل خير والتطلع لما عند الآخرين، وأشعر كذلك بصوت من داخلي يؤنبني علىٰ بعض ما أفكر فيه وأقوم به.. فمن أنا؟ وما الذي يحدث بداخلي؟ وكيف تهدأ أمواج الخواطر والتطلعات، وأحلام اليقظة التي تضطرم في كياني؟ [**من هو الإنسان**].

٥ - أشعر في بعض الأحيان وكأن هناك من يدفعني لفعل الشر، ويعمل علىٰ إبعادي عن القيام بأعمال الخير، وهذا لا يأتي إلا من عدو.. فمن هو هذا العدو؟ وكيف أتقيه؟ [**من هو الشيطان؟**].

٦ - أجد نفسي في كون فسيح مليء بالمخلوقات من نبات وحيوان وجماد، فما علاقتي به، وكيف أتعامل معه؟ وهل ما أراه بعيني فقط هو الموجود في هذا الكون أم هناك مخلوقات لا أراها، فأنا لا أرىٰ الهواء مثلًا ولكنني أشعر بوجوده!! [**التعرف علىٰ الكون**].

٧ - ألاحظ أن الكون من حولي يسير وفق نظام دقيق: فالشمس تُشرق في الصباح وتغرُب في المساء، والفصول الأربعة تتوالىٰ بدقة متناهية، ودورة حياة الإنسان تسير بنظام ثابت، وكذلك الحيوان والنبات.. فهناك إذن نظام وقوانين تحكم كل شيء، فما هي تلك القوانين؟ وكيف أعرفها لأستفيد بها؟ [**القوانين الحاكمة للكون والحياة**].

٨ - أجد نفسي بين أبوين وأشقاء وجيران، ثم زوجة وأولاد وزملاء.. فما شكل العلاقة التي ينبغي أن أتعامل بها مع هؤلاء؟! [**حقوق العباد**

بعضهم علىٰ بعض].

٩ - أجد الكثير من الناس حولي تائهين يسيرون في طرق متعددة، بعضهم لا يعتقد بأن هناك إلهًا للكون، والآخر يدَّعي أن إلهه فلان، وتتعدد المزاعم، ويُثيرون الشُبهات حول الإله الحق.. فلماذا لا يتَّبع الناس الحق، وكيف ندعوهم إليه؟ [**لماذا لا يتبع الناس الحق؟**].

١٠ - أسمع عن أُناس جاءوا إلىٰ الدنيا قبلي ثم خرجوا منها... فماذا كان حالهم؟ وماذا فعلوا من صواب لأقوم به، ومن خطأ فأجتنبه؟ [**العبرة من قصص السابقين**].

مثل هذه الأسئلة وغيرها ينبغي أن تتردد في ذهن كل عاقل يبحث عن سر وجوده، وبالإجابة عنها يهتدي المرء إلىٰ سُبل السلام، ويعيش في سكينة وطمأنينة.

ولأن القرآن كتاب هداية فقد أفرد للإجابة عن هذه الأسئلة العشرة مساحات كبيرة فيه، وكررها في مواضع متعددة ليتم بها دوام التذكر، وفي الصفحات القادمة سيتم بمشيئة الله وعونه وفضله عرض نماذج للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال القرآن ليستأنس بها الواحد منا عندما يبدأ عهده الجديد مع القرآن بالبحث عن جوانب الهداية فيه.[١]

***

(١) العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف (ص: ١٤) وما قبلها.

الجانب الأول

للهداية القرآنية: (التعرف على الخالق)[1]

*** إن التعرف علىٰ الخالق يكون بالجواب علىٰ سؤالين:**

- **السؤال الأول**: من هو الله؟

- **السؤال الثاني**: ما هي واجبات العبودية؟

إن التعرف علىٰ الخالق من أهم جوانب الهداية، بل نستطيع أن نجزم جزما لا مجال للشك فيه أن التعرف علىٰ الخالق هو المفتاح الذي يفتح الباب لجوانب الهداية الأخرىٰ.

وإن كنَّا نحن المسلمين قد عرفنا من هو الإله الحق - رب العالمين - فإن هذه المعرفة تحتاج إلىٰ كثير من التفاصيل لتترسخ مدلولاتها داخلنا، فينعكس ذلك علىٰ شكل العلاقة بيننا وبينه سبحانه وتعالىٰ.

*** وبالمثال يتضح المقال:**

عندما يتعرف الواحد منّا علىٰ شخص ما معرفة عامة، فإن نظرته له ستكون نظرة عادية مثله مثل غيره لا تلفت انتباهه، فإذا ما اقترب منه

(١) انظر هذه الجوانب في كتاب: العودة إلىٰ القرآن لماذا وكيف: (ص: ١٥) وما بعدها.

وازدادت معلوماته عنه وعن قدراته، وخبراته وشهاداته، أو المنصب الذي يتولاه، فإن هذا من شأنه أن يزيده احترامًا وهيبة وتقديرًا لهذا الشخص، مما سينعكس حتمًا علىٰ طريقة تعامله معه، والتي بلا شك ستختلف كثيرًا عما كان من قبل.

۞ المعرفة طريق الخشية والإجلال:

فعلىٰ قدر معرفة الله ﷻ تكون الخشية منه، وعلىٰ قدر الخشية تكون المراقبة، والمبادرة إلىٰ الخيرات، وترك المنهيات، كما في الدعاء: «**اللهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**». (١)

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

فبينت هذه الآيات أن التفكر في خلق السماوات والأرض قاد هؤلاء الصالحين إلىٰ المعرفة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، وأن المعرفة قادتهم إلىٰ الخشية ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾.

ونلمح ذلك المعنىٰ في قوله تعالىٰ علىٰ لسان سيدنا موسىٰ عليه السلام وهو

---

(١) النسائي: (١٠٢٣٤)، والترمذي: (٣٥٠٢)، والحاكم: (١٩٣٤)، وصحيح الجامع: (١٢٦٨).

يخاطب فرعون ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات:١٩]، ففرعون لا يعرف الله ﷻ، لذلك لا يخشاه ولا يحسب له حسابًا، وموسىٰ عليه السلام يُريد أن يعرِّفه به حتىٰ يخشاه فينتهي عما يفعله.

وكذلك فعل نوح عليه السلام مع قومه ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٣ - ١٦].

وعندما سأل موسىٰ ربه: يا رب أي عبادك أخشىٰ لك؟ قال: أعلمهم بي.(١)

۞ كيف نعرف الله؟

إن الله أخبرنا بأنه سبحانه وتعالىٰ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣]. كما أعلمنا أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وأنه لن يحيط به أحد علمًا فقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠].

۞ فما السبيل إذن إلى معرفته؟!

إن الحقيقة المُسَلَّم بها أن لا يعرف الله إلا الله - قال ﷺ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**». (٢)

---

(١) الدارمي: (٣٦٢)، وابن المبارك في الزهد، ص (٧٥)، وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح، وهو منقطع إلىٰ عطاء.

(٢) مسلم: (٤٨٦).

ومع ذلك فإن الله قد أتاح لنا برحمته جزءا من المعلومات عنه لكن بدرجة تتحملها عقولنا، وهذا من خلال ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، والتي أودع مظاهرها وآثارها في مخلوقاته، وبقدر التتبع لهذه الآثار وربطها بالأسماء والصفات تكون المعرفة.

ولنتأمل هذه القاعدة التي تقول: «من آثارهم تعرفونهم».

فعندما يصف الناس شخصا ما، بأنه من أهل الإحسان، فإن هذا الوصف لن يقع موقعه في نفس أي إنسان إلا إذا رأىٰ بنفسه آثار إحسانه..

ومن هنا إذا تتبع إنسان تلك الآثار وشاهدها بنفسه يزداد يقينه بصحة هذا الوصف.. ولله المثل الأعلىٰ.

فالله ﷻ لا نستطيع أن نراه في الدنيا، ولكنه سبحانه وتعالىٰ خلق هذا الكون كله وجعل الكون دليلًا عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]. وأخبرنا سبحانه وتعالىٰ بأن له أسماءً وصفاتٍ أودع آثارها في كونه ومخلوقاته.

وبناء علىٰ ذلك فإن الطريقة السهلة لمعرفة الله ﷻ: أن نتعرف علىٰ آثار أسمائه وصفاته، قال تعالىٰ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢١]. وعلىٰ قدر التتبع والتفكر في هذه الصفات تزداد المعلومات عن الله ﷻ فينعكس ذلك علىٰ القلب بزيادة جوانب العبودية فيه.

❁ دور القرآن في معرفة الله:

من أهم سمات القرآن أنه كتاب تعريف بالله ﷻ فأكبر مساحة فيه تتحدث عنه سبحانه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما الطريقة التي ينتهجها القرآن في تعريف الناس بربهم عن طريق أسمائه وصفاته فتتلخص في هذه النقاط:

١ - التعريف بالصفة.

٢ - وصف الصفة.

٣ - عرض آثار هذه الصفة.

٤ - العبودية المستحقة لها، وكيفية القيام بها، مع بيان صور الانحراف عنها.

❁ نماذج تطبيقية:

١ - أخبرنا القرآن بأن الله واحد، أحد، (صفة الوحدانية):

وصف القرآن هذه الصفة بعدة أوصاف منها أنه - سبحانه وتعالىٰ - لا شريك له، ولا إله إلا هو، ولم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

من آثار تلك الصفة:

قوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢].

وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون:٩١].

وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

- ويرشدنا القرآن إلىٰ العبودية الواجبة لهذه الصفة ألا وهي توحيده سبحانه وتعالىٰ، وإخلاص العبادة له.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

- ويحذرنا من الوقوع في الشرك بالله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١١٦].

- ويبين لنا مظاهر الشرك بالله، وعاقبة المشركين في الدنيا والآخرة.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨].

٢ -الله ﷻ أخبرنا بأنه الوهاب ، الرزاق، المنان، البر، المعطي، والتي يجمعها صفة الإنعام.

- **وصف الصفة:** ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

مظاهر الصفة وآثارها في الكون والنفس:

- مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الملك:٢٣].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣].

* وقولـــه تعـــالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور:٢١].

العبودية المطلوبة: الشكر.

* قـال تعـالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨].

صور الانحراف عن العبودية: الإعراض عن الشكر (الجحود ونكران النعم).

* قال تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢].

٣ -الله ﷻ أخبرنا بأنه عزيز، قهار، قاهر، ويجمعها صفة العزة والقهر.

وصف الصفة:

والله غالب علىٰ أمره - يفعل ما يريد - إن الله بالغ أمره.

آثار الصفة:

* مثـــل قولـــه تعـــالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران:٦].

* وقوله تعالىٰ: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ

عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩- ٥٠].

العبودية المطلوبة: الاستسلام والانكسار لله ﷻ.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

من صور الانحراف عن هذه العبودية:

* مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل:٥٨].

٤ -الله ﷻ وصف نفسه بأنه الملك.

وصف الصفة: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ [البقرة:٢٨٤].

- ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [الحديد:٢].

من آثار تلك الصفة:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

العبودية المطلوبة: طاعة أوامره.

* قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ ﴾ [الأحزاب:٣٦].

* وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء:٥٨].

من صور الانحراف عن هذه العبودية: الفسوق والعصيان.

* قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف:٥٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة:٤٧].

***

الجانب الثاني

من جوانب الهداية (الرسول والرسالة)

من جوانب الهداية في القرآن: التعريف برسولنا ﷺ، وبالرسالة التي حملها إلىٰ البشر.

قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم:١].

فرسولنا ﷺ بشر مثلنا، كلفه ربه بحمل رسالته وتبليغها إلي الناس.

* قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف:١١٠].

* وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١].

هذا التبليغ يشمل شرح الرسالة القرآنية، وتفصيل المجمل منها.

* قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل:٤٤].

ولقد قام ﷺ بهذا الدور خير قيام، فالناظر إلىٰ سنته يجد أنها مكملة للقرآن ومفصلة له كما جاء في الحديث: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ**

مَعَهُ». (١)

ففي القرآن والسنة عصمة من الضلال كما قال ﷺ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ». (٢)

ولقد تعرض الرسول ﷺ لكثير من المضايقات، واتُّهم بالعديد من الاتهامات والافتراءات فصبر علىٰ ذلك حتىٰ نصره ربه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، قال تعالىٰ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧].

۞ تربيته ﷺ على تمام العبودية:

وكما يُعرفنا القرآن برسولنا ﷺ ودوره العظيم، فإنه كذلك يُبين لنا كيفية تربيته ﷺ علىٰ تمام العبودية لربه، ليكون لنا نعم الأسوة.

* مثل قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

---

(١) مسند أحمد: (١٧٢١٣)، وصحيح الجامع: (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه الحاكم: (٣١٩)، وصحيح الجامع: (٢٩٣٧).

* وقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣٠ - ١٣١].

❁ واجبنا نحوه ﷺ:

وفي القرآن تعريف بما هو مطلوب منّا تجاهه ﷺ.

فمن ذلك: طاعته ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ ﴾ [آل عمران:٣٢].

ومن لوازم طاعته ﷺ السير في طريقه، واتباع سنته:

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر:٧].

وعلينا كذلك حبه، وتوقيره، والصلاة عليه.

قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب:٢١].

❁ الرسالة القرآنية:

ومع التعريف برسول الله ودوره، وواجبنا نحوه، يأتي التعريف بالقرآن ذاته ليُدرك الناس مدىٰ أهميته:

- فالقرآن كتاب هداية كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ

أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

- يُخاطب العقول فيُقنعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء:١٧٤].

- ويؤثر على المشاعر فيؤججها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

- يزيد الإيمان: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٢].

- ويبني اليقين الصحيح: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحاقة:٥١].

***

الجانب الثالث

من جوانب الهداية (التعريف بالإنسان)

خلق الله ﷻ الإنسان وجعله مكونا من عقل وقلب ونفس وجوارح.

العقل:

أما العقل: فلقد جعله سبحانه وتعالىٰ محلًا للعلم والمعرفة، به كرَّم الإنسان علىٰ سائر مخلوقاته، وأودع فيه من الأسباب والقدرات ما يمكنه من الوصول إلىٰ معرفته بدرجة لم يصل إليها مخلوق من قبل، وليس أدل علىٰ هذا من تلك الاختراعات التي وصل إليها العقل كالحاسب الآلي والطائرات... إلخ.

والأمر اللافت للانتباه أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت أن الإنسان لا يستخدم إلا جزءا يسيرا من قدراته العقلية، فلا تزال في العقول إمكانات هائلة معطلة..

ولا شك أن أي عاقل لا يستخدم عقله ولا يستفيد مما حباه الله به قد أهان نفسه، وسفهها بحرمانها فائدة هذا العضو الشريف.

نعم، إن الناس يتفاوتون في قدرات عقولهم، ومع هذا التفاوت فإن الحد الأدنىٰ عند كل عاقل كفيل بأن يُعينه علىٰ معرفة الله ﷻ.

من هنا نجد أن القرآن يُعلي من شأن العقل، فتراه يستحث قارئه علىٰ استخدامه، فنجد الكثير من الآيات تنتهي بقوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ولأجل أن يستخدم الإنسان عقله في الوظيفة التي خُلق لها نجد القرآن يدعوه إلىٰ تحرير هذا العقل من أسر التقاليد والأعراف الخاطئة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٤].

فتحرير العقل واستخدامه فيما خُلق من أجله مع ضبطه بضوابط الشرع من أهم الوظائف التي يقوم بها القرآن، فمن خلال الفكر الصحيح يصل المرء إلىٰ صحة النقل، فقضية الوحدانية علىٰ سبيل المثال خاطب فيها القرآن العقل، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف:٤].

فالقرآن إذن يُعرِّف الإنسان بقيمة عقله ويُعلي من شأنه، ويحترمه ويدعوه إلىٰ استخدامه في التفكر، وفهم المقصود من الخطاب، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ:٤٦].

والقرآن كذلك يعرض صورًا لأناس أهانوا عقولهم، وعطلوها،

فأصبحوا شر الدواب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال:٢٢].

❁ النفس:

من تعريفات النفس أنها مجموعة الشهوات والرغائب داخل الإنسان، ومن طبيعتها أنها تحب الراحة وتكره التكليف، وتعمل علىٰ الحصول علىٰ شهواتها وحظها في كل فعل يقوم به العبد...

✍ **ولقد أحسن ابن الجوزي لما قال:** جواذب الطبع إلىٰ الدنيا كثيرة، ثم هي من داخلٍ، وذكر الآخرة أمر خارج عن الطبع، ثم هي من خارجٍ، وربما ظن من لا علم له أن جواذب الآخرة أقوىٰ، لما يسمع من الوعيد في القرآن. وليس كذلك؛ لأن مثل الطبع في ميله إلىٰ الدنيا كالماء الجاري، فإنه يطلب الهبوط؛ وإنما رفعه إلىٰ فوق يحتاج إلىٰ التكلف. ولهذا أجاب معاون الشرع: بالتغريب والترهيب يقوىٰ جند العقل. فأما الطبع، فجواذبه كثيرة، وليس العجب أن يَغْلِبَ، إنما العجب أن يُغْلَبَ. (١)

فالنفس لا تنظر إلىٰ العواقب، وهي في هذا كالطفل الذي يلح علىٰ أبويه في الحصول علىٰ شيء قد يكون فيه حتفه، ولا أبلغ مما وصفها به القرآن ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:٥٣].

- والنفس شحيحة، تحب الاستئثار بكل خير، قال تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٥).

﴿ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء:١٢٨].

- والنفس لديها قابلية للفجور والطغيان إذا ما أُرخي لها العنان، ولديها كذلك القابلية للانكماش والحذر إذا خوفت، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧- ٨].

أما الهوىٰ فهو ما تميل إليه النفس من شهوات ورغائب.

إذن فالنفس هي العقبة الكؤود بيننا وبين الله ﷻ، ولقد خلقها الله سبحانه وتعالىٰ بهذه الصفات ليختبر مدىٰ عبوديتنا له.. وهنا يأتي دور القرآن العظيم في تعريف الناس بأنفسهم ونقاط ضعفها وخطورتها، وما فيها من قابليات، ويُرشدهم إلىٰ طريق تزكيتها، ومجاهدتها علىٰ القيام بطاعة الله بصدق وإخلاص.

والقرآن يدخل إلىٰ أعماق النفس - أي نفس - حتىٰ آخر نقطة فيها، فيواجهها، ويوجهها، وكأنه قد نزل من أجلها دون غيرها.

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يعرض نماذج للمؤمنين الذين زكُّوا أنفسهم وجاهدوها، ليتأسىٰ بهم القارئ، ويعرض كذلك صورا لأناس تركوا الزِّمام لأنفسهم وساروا وراء أهوائهم حتىٰ هلكوا.

قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَىٰهَا ۝١٥﴾ [الشمس: ٧ - ١٥].

القلب:

وفي القرآن تعريف بقلب الإنسان، وأنه الملك علىٰ سائر الأعضاء، وأن حياته الحقيقية إنما تكون بالله ﷻ.. هذا القلب يمرض، ومرضه إنما يكون بسيطرة الهوىٰ عليه.

والقرآن يُبين لقارئه صور الهوىٰ التي تُمرض القلب، ويُبين له كذلك كيفية شفائه منها، ويُعدد له وسائل زيادة الإيمان، لتستقيم حياته، وتقوىٰ إرادته.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧].

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يعرض نماذج للصالحين أصحاب القلوب الحية لنتأسىٰ بهم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

ويعرض كذلك صورًا لأصحاب القلوب المريضة القاسية لنتجنب مسببات تلك القسوة.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد:١٦].

الجانب الرابع

التعريف بالشيطان

بعد أن رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام طرده الله من رحمته وحكم عليه بالحبس الأبدي في النار، فطلب إبليس مهلة قبل تنفيذ العقوبة.. هذه المهلة هي فترة وجود آدم وذريته علىٰ الأرض.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ [ص: ٧٩ - ٨١].

هبط إبليس إلىٰ الأرض ليبدأ في العمل علىٰ إضلال البشر وسوقهم معه إلىٰ النار، مستهدفا كل فرد يخرج إلىٰ الدنيا.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء:٦٢].

اعرف عدوك:

فإبليس إذن هو عدونا الذي أخرج أبوينا من الجنة، ويعمل علىٰ حرماننا من العودة إليها، بل علىٰ مرافقته في النار.. أما الشياطين فهم ذريته وأعوانه: يأتمرون بأوامره، وينفذون مخططاته، وما من يوم تشرق شمسه إلا ولهذا العدو فخ جديد ينصبه، ومحاولة للصد عن سبيل الله يحاولها.

يدخل علىٰ كل عبد من مناطق ضعفه، فهذا يدخل عليه من باب حبه للنساء، وهذا من باب حبه لجمع المال، وهذا من باب الإكثار من الطعام، وهذا من باب سوء الظن، وهذا من باب البدعة، وهذا من باب ترك الفاضل وفعل المفضول.

المهم أنه لا يريد أن يخرج صفر اليدين في معركته مع العبد.

إنه أمر مُخيف أن نتعامل مع عدو يملؤه الحقد والحسد والكراهية نحونا، ولا يرضىٰ بأقل من النار مصيرا لنا.. يرانا ولا نراه.. نغفل عنه ولا يغفل عنا.. يدخل علينا من المداخل التي نُحبها.

فما العمل إذن؟! وما السبيل إلىٰ محاربته وتوقِّيه؟

إنه القرآن الذي بين أيدينا، فهو دائم التحذير من خطورة الشيطان، وعداوته المتأصلة للبشر جميعا.

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦].

ويُذكرنا دائمًا بماضيه مع البشر، وكيف استطاع أن يُضل الكثير منهم.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

ولا يكتفي القرآن بهذا كله، بل يُبين لقارئه أبوابه، ومداخله عليه، وكيف

يحترز منها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت:٣٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء:٥٣].

***

الجانب الخامس

قصة الوجود ويوم الحساب

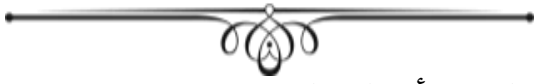

إن الكثير من الناس يأتي إلىٰ الدنيا ثم يخرج منها وهو لا يدري لماذا وُجد فيها، بل إنه لا يُجهد نفسه في البحث عن إجابة عن هذا السؤال، فهو يسير مع غيره.. همُّه جمع المال، وتأمين احتياجاته من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.

يتزوج كغيره، ويُنجب الأولاد ليزداد سعيه من أجل تأمين مستقبلهم المادي في الدنيا..

يطعن في السنِّ شيئا فشيئًا، وهو يظن أنه قد أدىٰ دوره في الحياة، ثم يموت ليُفاجأ بالحقيقة، يقول تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق:٢٢].

فما هي تلك الحقيقة التي يُفاجأ بها الغافلون عند الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠]. إنها حقيقة الدنيا، وحقيقة المهمة التي خُلقنا من أجلها.

❁ الدنيا دار امتحان:

إننا - معشر البشر - لم نهبط إلىٰ الدنيا ونمض فيها ما نمضي من السنوات لنأكل أو لنشرب أو لنتزوج وتكون لنا ذرية.. بل لأمر عظيم أبت السماوات والأرض أن تحملـه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

إنه اختبار في عبادة الله ﷻ بالغيب في ظل تمتعنا بحرية الاختيار، ومع وجود النفس الراغبة في نيل الشهوات، وحب العاجلة.

وشاء الله ﷻ أن تكون الأرض هي مكان هذا الاختبار.. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ [الكهف:٧].

وحدد لنا سبحانه وتعالىٰ شكل العبودية التي يريدها منا من خلال منهج وأدوات، وجعل المنهج ميسرًا وسهلًا: تكاليف قليلة، أوامر ونواه ضمَّنها كتابه، وشرحها رسوله ﷺ، أما الأدوات فهي ما يُعطيه - سبحانه - لعبده أو يمنعه عنه.. فيُعطي بعضهم أشياء مثل المال، الصحة، المنصب،... ويمنعها عن آخرين..

والهدف من العطاء: الشكر، كما أن الهدف من المنع: الصبر.

فمن أعطي مالًا ولم يشكر الله عليه فقد رسب في هذا الاختبار، ومن حُرم الأولاد فصبر ورضي فقد نجح وحقق المطلوب منه.

فالعبد الصالح يستقبل العطاء، أي عطاء، مستشعرًا قول الله ﷻ: ﴿ هَذَا

مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [النمل:٤٠].

والآخر يستقبله وهو يردد ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ ﴾ [الزمر:٤٩]، وهو لا يدري أنه اختبار ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الزمر:٤٩].

ويُذكرنا الله ﷻ أنه ليس لأحد أن يملك شيئا من الدنيا، فكل عطاء مُسترد، وسنخرج منها كما دخلنا فيها، فالله ﷻ سيرث الأرض ومن عليها من ذهب وفضة و... فما علينا إلا أن نردد ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [البقرة:١٥٦] كما علينا أن نفقه قول الله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم:٤٠].

۞ لماذا الاختلاف بين الناس؟

فإذا ما تبين ذلك كانت الإجابة سهلةً عن السؤال الذي يشغل بال الكثير، وهو: لماذا الاختلاف بين البشر في العطاء والمنع، وأيهما أفضل: الغنىٰ أم الفقر؟ من عنده أولاد أم من حُرم منهم؟

الأفضل من ينجح في مادته، فالغني الشاكر خير من الفقير غير الراضي وغير الصابر، ومن حُرم الأولاد فصبر خير ممن رُزق الأولاد ولم يشكر الله عليهم..

فالعبرة في الكيفية التي نتعامل بها مع المنع والعطاء، ويتضح هذا جليا في قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

أما الشيطان فهو يدخل علينا من نفس مداخله علىٰ أبوينا: الملك والخلد.. فيُزين لنا العطاء علىٰ أنه مُلك حقيقي، ويُبهرج الدنيا أمام أعيننا، فنحبها ونتشبث بها، ونتصارع عليها، ثم نُفاجأ بعد ذلك أننا لم نجن من ورائها إلا السراب ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

❁ إنها القصة المكررة منذ الأزل:

فإن كان هذا هو المنهج وهذه هي الإجابة المطلوبة، فما هو زمن الامتحان، ومن الذي يتولىٰ الرقابة عليه؟

أخبرنا الله ﷻ بأن وقت الامتحان يبدأ من وقت البلوغ والتكليف وينتهي عند نزع الروح من الجسد، وأخبرنا كذلك بأن باب التوبة مفتوح طوال هذه الفترة، فلنا أن نمحو كل الإجابات الخاطئة، ونستبدلها بحسنات ما لم نغرغر..

أما تسجيل الإجابات والرقابة علىٰ الأرض فتتولاها أكثر من جهة، فالملائكة تُسجل كل أعمالنا ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

وأجسامنا شهيدة علينا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور:٢٤].

والكون كله يراقبنا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان:٢٩].

ومع هذا كله، فالله ﷻ أحاط بكل ذلك، فهو الشهيد - الرقيب - السميع - البصير - القريب - المحيط، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة:٧].

فشدة الرقابة وعدم معرفة نهاية وقت الاختبار يستلزم منا شدة اليقظة، ودوام محاسبة النفس، والحذر من الشيطان، وكثرة التوبة والإنابة إلىٰ الله.

❁ ويبقى السؤال: متى الحساب وإعلان النتيجة؟

يُخبرنا القرآن في عشرات الآيات بما سيحدث للأرض بعد انتهاء امتحان آخر مجموعة من البشر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ [الانشقاق: ١ - ٥].

فالأرض بعد انتهاء دورها تُخرج كل من فيها من البشر ثم تتحطم ليبدأ يوم الحساب في أرض المحشر.

الكل سيُحاسب ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٠ - ١٣].

جميعنا سيأتي يوم القيامة، ولكن كل واحد بمفرده، دون حاشية أو أقارب أو معارف ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٥].

وستخرج معنا صحيفة أعمالنا وإجاباتنا عن كل شيء ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤].

إنه يوم عصيب ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل:١٧]، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

يتولىٰ فيه سبحانه وتعالىٰ بنفسه الحساب مع كل فرد ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتُوزع الشهادات ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧ - ١٢].

فينطلق الناجون إلىٰ الجنة ليتنعموا فيها بالملك والخلد ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان:٢٠].

ويُساق الراسبون إلىٰ النار حيث الحبس والعقوبة الأليمة ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم:٦].

۞ القرآن وقصة الوجود:

ولقد أفاض القرآن في تذكيرنا بقصة الوجود، وأخبرنا بما سيحدث لنا،

وصوّر يوم القيامة بمشاهده العظيمة، ووصف لنا الجنة والنار وصفًا دقيقًا.. كل ذلك ليزداد تشميرنا وتنافسنا للفوز بالجنة والنجاة من النار.

إن دوام تذكر يوم الحساب من شأنه أن يُغير حياة الناس، ويجعلهم دائمًا في خوف ووجل، ويُهوِّن في أعينهم الدنيا، فتخرج من قلوبهم ويتعاملون معها كما يُريد الله ﷻ فيجعلون منها مزرعة للآخرة.

ستصبح تصوراتنا حول مفردات الدنيا من رزق وزوجة وأولاد ومستقبل.. معتدلة، فلن نتصارع من أجل جمع المال، وسنعمل علىٰ تأمين مستقبل الأولاد الحقيقي هناك في الجنة، وسنجعل شعارنا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦].

لذلك أعطىٰ القرآن لقصة الوجود، ويوم الحساب، والوعد والوعيد مساحة كبيرة لتكون لنا عونا علىٰ دوام تذكرنا، فلا نُفاجأ بالموت دون أن نستعد له، وذكر لنا كذلك نماذج للإجابات الصحيحة من المؤمنين علىٰ مرِّ العصور لتكون لنا مثالا نحتذي به، ونحن نسير في الدنيا، ونتقلب في مواد امتحانها.

قال تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّو۟ا بِٱللَّغْوِ مَرُّو۟ا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُو۟ا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّو۟ا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُو۟ا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣ - ٧٧].

ومع هذه النماذج الطيبة يعرض لنا القرآن كذلك صورًا للإجابات الخاطئة لنتجنب تكرارها والقيام بمثلها.

منها قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٧].

والأمر اللافت للانتباه أن القرآن كثيرا ما يصف الدنيا بأوصاف منفرة، مع بيان حقيقتها، لتخرج من قلوب الناس ولا يتعلقوا بها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقوله: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥ - ٤٦].

***

الجانب السادس

معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة

ما من ملك أو رئيس لدولة إلا ويحكم شعبه من خلال قوانين تنظم حياتهم، وتُعرفهم حقوقهم وواجباتهم.. والفرد الذي يريد العيش في سلام عليه أن يعرف هذه القوانين جيدا حتىٰ يقوم بواجباته ويُطالب بحقوقه..

هذا مع البشر، وفي حيِّز ضيق، فكيف بمالك الملك.. رب الأرض والسماء؟!

وكيف بمن حرَّم الظلم علىٰ نفسه؟ وكيف بمن جعل قيام السماوات والأرض بالحق؟

قال تعالىٰ: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية:٢٢].

فقيام السماوات والأرض بالحق يعني ضمن ما يعني: تسييرها بنظام لا يتغير، ولا يتبدل، وهو ما يُعرف بالسُنن، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر:٤٣]. فالله ﷻ يُنظم الحياة علىٰ الأرض بقوانين تسري علىٰ الجميع.. هذه القوانين تنقسم إلىٰ قسمين: مادية، واجتماعية.

❁ القوانين المادية:

فالقوانين المادية تلك التي تنظم حركة المادة في الكون.. كتبديل الليل والنهار، والفصول الأربعة، وكحركة القمر الشهرية، والأطوار التي يمر بها الجنين في بطن أمه.

قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

ومنها أيضًا وظائف أعضاء الجسم، حيث الحركة المنضبطة للسوائل، والهرمونات، والأجهزة المختلفة كجهاز المناعة، والتنفس، والتمثيل الغذائي، والإخراج، والدورة الدموية.. كل هذه الأشياء تتحرك وفق نظام لا يتغير بتغير رغبة الناس وأمزجتهم، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

هذا بالنسبة للقوانين المادية والتي لا يختلف علىٰ وجودها اثنان، بل لقد استطاع الكثير من الكفار أن يستفيدوا منها أكثر من المسلمين لسعيهم الدؤوب لاكتشافها، والانتفاع بها، وذلك لأن الله ﷻ قد جعل الأرض سواء للسائلين، فمن أحسن سعيه واجتهد في اكتشاف قوانينها وصل إلىٰ كنوزها التي أودعها ربها فيها، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت:١٠].

❁ القوانين الاجتماعية:

أما القوانين الاجتماعية فهي القوانين التي تنظم حياة الناس وينتج عنها

سعادتهم أو شقاؤهم، وهي كالمادية لا تتغير ولا تتبدل، وتنطبق علىٰ الأفراد كما تنطبق علىٰ الأمم، ومعرفتها من الأهمية بمكان لتحقيق السعادة للفرد، والريادة للأمة الإسلامية.

ونظرًا للدور الخطير الذي تقوم به هذه القوانين فلقد أكثر القرآن من ذكرها، وأعطىٰ نماذج كثيرة من تطبيقاتها.

❁ ومن هذه القوانين:

تبديل النعم وسلبها، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:٥٣].

ومنها: المحافظة علىٰ النعم: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم:٧].

ومنها: قوانين النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد:٧].

ومنها: نزول البلاء بالناس: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

ومنها: عقوبة الظلم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦].

ومنها: قوانين التيسير: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ - ٧].

ومنها: قوانين التعسير: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ - ١٠].

وغيرها من القوانين التي تضمَّنها هذا الكتاب المبين ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٣٨].

❁ البداية من العبد:

الملاحظ في القوانين الاجتماعية أن هناك قاسمًا مشتركا بينها، وهو أن البداية التي تستدعيها لابد أن تكون من الفرد، فهي كالمعادلات الرياضية، إذا اكتمل الطرف الأول منها تحقق الطرف الثاني.. فالهدىٰ والضلال والسعادة والشقاء، والتوفيق والخذلان، وانشراح الصدر وضيقه، والنصر والهزيمة.. كل هذه الأمور لا تُصيب العبد إلا إذا كانت منه بداية تستدعيها، فالله ﷻ لا يظلم أحدًا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝١٨٢﴾ [آل عمران:١٨٢].

وهو كذلك لا يُحابي أحدا ولا يكرمه إلا بمقدار استقامته وتقواه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

إنها قوانين تُطبق علىٰ الجميع أفرادا ومجتمعات، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ۝١٤٤﴾ [النساء:١٤٤].

فالآية تقول للمؤمنين: إنكم حين توالون الكافرين تستوجبون علىٰ أنفسكم تطبيق سنن الله فيكم.. من هنا يتضح لنا أن إدراك السنن والقوانين التي يحكم الله بها الحياة، وفهمها، وإسقاطها علىٰ الواقع الذي نحياه لابديل عنه لكل من يريد العيش الآمن والسعيد لنفسه في الدنيا والآخرة، ولمن يريد كذلك العزة والرفعة لأمته.

۞ القرآن دستور الحياة:

لأن القرآن كتاب هداية فلقد أفاض في ذكر السنن والقوانين التي تحكم الحياة، وبخاصة الاجتماعية منها لتوقف سعادة الناس عليها. قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤].

ولم يكتف القرآن بذلك، بل ضرب الكثير من الأمثلة التطبيقية لهذه القوانين ليزداد يقين الناس بها.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٣- ٥٤].

ويوضح لنا القرآن كذلك أن للسنن والقوانين وقتًا محددًا للعمل، فالله ﷻ لا يعجل بعجلة أحد، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ

مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه:١٢٩].

ومن أشكال الهداية القرآنية في هذا الجانب: تعريف الناس بكيفية استبدال القوانين، وإيقاف عملها.

قال تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس:٩٨].

فقوم يونس عندما سارعوا بالتضرع إلىٰ الله، والتوبة إليه، أوقف سبحانه وتعالىٰ العذاب الذي كان قد حاق بهم.

***

الجانب السابع

التعرف على الكون المحيط

نحن في هذا الكون لا نعيش بمفردنا بل هناك عوالم أخرىٰ كثيرة تشترك معنا في الوجود.. منها ما هو مشهود لنا، ومنها ما هو غائب عنا، والقرآن الكريم يعرفنا علىٰ هذه المخلوقات وعلىٰ طبيعة العلاقة التي تربطها بنا، وكيف نتعامل معها.

فتخبرنا الآيات مثلا بوجود الملائكة، وأن منها الحفظة، ومنها من يقومون بتسجيل أعمال العباد، ومنها الملائكة السيارة، وحملة العرش.. قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠- ١١].

ومما لا نراه أيضًا: عالم الجن، ويخبرنا القرآن بأنهم مكلفون مثلنا تماما، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

❁ كون مُسخَّر:

هذا بالنسبة لعالم الغيب، أما عالم الشهادة فنحن نرىٰ الكثير من المخلوقات في عالمنا، فما سبب وجودها، وما وظيفتها؟

يُخبرنا القرآن الكريم بأن الله قد خلق جميع ما علىٰ الأرض من مخلوقات من أجلنا.. يقول تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩].

وجعلها مُسخَّرة لنا، لا تمتنع عنَّا، ولا ترفض استخدامنا لها.. فالماء مسخر للإرواء والإطفاء، وكمادة حياة، والنار للتدفئة والإضاءة والإحراق، والنبات لإخراج الثمار، ولإشاعة روح البهجة في نفوسنا،، ولنستظل به، والمعادن تستجيب لتعاملنا معها... الأنعام مسخرة لركوبها، وأكل لحمها، وشرب لبنها... وكل ما في جسم الإنسان من عضلات، وأجهزة وغدد وعمليات حيوية مسخرة له كذلك.

الليل والنهار والشمس والقمر، وكل ما في الأرض يعمل من أجلنا.. كل ذلك لتتفرغ لأداء المهمة التي خلقنا من أجلها، يقول تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٢- ١٣].

هذا الكون المسخر لنا أودع الله فيه الكثير من أسمائه وصفاته، وجعلها تدل عليه سبحانه وتعالىٰ، ودعانا إلىٰ السير في الأرض، والتأمل في مخلوقاته، واكتشاف أسرارها لتزداد معرفتنا به، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥]. إنه كون ينتظر فتحنا، واكتشافنا له.. مئات الأنواع من الطيور التي خلقها الله ﷻ تبحث عمن يكشف أسرارها ويتعرف

علىٰ الله من خلالها، الأشجار المختلفة، والكائنات العجيبة، ما خلقها الله عبثا ولا سدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥].

والقرآن يحثنا في مواضع كثيرة علىٰ النظر في آيات الله في الكون، والعمل علىٰ فهم الرسائل التي تحملها لنا: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١].

❁ الكون العابد:

ومع تسخير المخلوقات وما تحمله إلينا، فإنها أيضا تشترك معنا في العبودية لله ﷻ تُسبحه، تسجد له، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

الكل يُسبح لله ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة:١].

إنه كون يغار علىٰ حرمات الله، ويغضب لانتهاكها ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٨٨ - ٩١].

هذه العلائق المتعددة مع الكون لن نستطيع أن نُدرك معانيها، ولا أن نُحقق مدلولاتها إلا من خلال القرآن... ولعل ما يؤكد هذا الأمر قول

الرسول ﷺ عندما نزل عليه قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:١٩٠]، قال: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا».(١)

***

(١) صحيح ابن حبان: (٦٢٠)، والسلسلة الصحيحة: (٦٨).

الجانب الثامن

حقوق العباد بعضهم على بعض

المتأمل للمعاملات التي تجري بين الناس يجدها لا تخرج عن ثلاثة أقسام:

عدل أو ظلم أو إحسان.

- **أما العدل**: فهو إعطاء كل صاحب حق حقه دون زيادة أو نقصان.

- **وأما الظلم**: فهو حرمان ذي حق من حقه، والاحتفاظ بالامتيازات.

- **وأما الإحسان**: فهو نقيض الظلم، ويعني الفضل والزيادة، بمعنىٰ أنك تُعطي أحد أكثر من حقه عليك.

فعلىٰ سبيل المثال: دفع الظلم ورده عن صاحبه: عدل لا شيء فيه، أما العفو والصفح عن الظالم فإحسان يُثاب عليه فاعله، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠ - ٤٣].

❁ الشريعة رحمة كلها:

ولأن الشريعة الإسلامية التي شرعها الله لعباده رحمة كلها كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:١٠٧].

لذلك نجد القرآن كثيرًا ما يُحذر من الظلم وعاقبة الظالمين، ويعرض الصور المختلفة للظلم ليجتنبها الناس.

مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠].

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل إنه كثيرًا ما يتحدث عن فضل الإحسان ليستثير المشاعر، ويولد الرغبة، ويقوي العزيمة بصوره وأشكاله.

فلقد أخبر سبحانه وتعالىٰ في كتابه أنه يُحب المحسنين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران:١٣٤].

وأن رحمته سبحانه قريبة منهم: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف:٥٦]، ويُذكرنا بأن مردوده سيعود علىٰ صاحبه، قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الإسراء:٧]، وأن معيته - سبحانه - ستكون للمحسنين ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

وجعل الإنسان طرفًا تنعقد به العروة الوثقىٰ مع الطرف الآخر وهو الاستسلام التام لله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ [لقمان:٢٢].

❁ من فوائد الإحسان:

فإن قال قائل: ولماذا جعل الله الإحسان بين الناس بهذه المنزلة؟

مما لا شك فيه أن هناك فوائدَ كثيرة تعود علىٰ الفرد وعلىٰ المجتمع إذا ما شاع الإحسان بين الناس.

فعلىٰ مستوىٰ الفرد فالإحسان قادر علىٰ علاج شح النفس وأثرتها، والشُح كما نعلم مفتاح كل شر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩].

وليس الشح مقصورًا علىٰ الشُح بالمال، ولكن له أوجه كثيرة كالشح بالوقت والجهد والنصيحة.

أما علىٰ مستوىٰ المجتمع: فبالإحسان يتحقق مفهوم الجسد الواحد والأمة الواحدة. فلو انشغل كلٌ منّا بنفسه فقط ما تعلم متعلم، ولا سارع أحد في نجدة ملهوف أو خدمة محتاج، ولا ذهب مسلم إلىٰ مريض ليعوده، أو جار ليزوره، أو لمتخاصمين ليصلح بينهما، وما اشتغل أحد بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله، فيؤدي ذلك إلىٰ تفشِّي الأمراض الاجتماعية في المجتمع وانهيار أركانه، فالإحسان إذن ضروري لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع.

❁ وصور الإحسان في القرآن كثيرة، منها:

الإحسان إلى الوالدين:

وبخاصة عند بلوغهما الكبر واستغناء الابن عنهما ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء:٢٣].

والإحسان إلى ذوي القربى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

والإحسان لابد أن يُظلل حياة الزوجين:

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ [النساء:١٩].

وفي حديث الناس مع بعضهم:

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء:٥٣].

بل وفي الجدال أيضًا إحسان:

﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

ويُرغب المولىٰ عباده في القيام بواجب الدعوة إليه، فيُخبرهم بأنها أحسن الأقوال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

وليس الإحسان في القول فقط، بل في الخلق والمعاملات بين الناس أيضا، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٤].

وأرشدنا الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن الطريق السهل لإنهاء الخصومة هو الإحسان: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

وليس الإحسان في الفعل فقط، بل في الترك أيضا، فالله ﷻ أخبر أنه لا يُحب من كان مُختالًا فخورًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ [لقمان:١٨].

والمتتبع لهذا الجانب في القرآن سيجد آيات كثيرة تحدد له كل ما يُحبه الله ﷻ، وما يُبغضه في علاقته بالناس بصفة عامة وبالمؤمنين بصفة خاصة.

***

الجانب التاسع

فقه الدعوة إلى الله

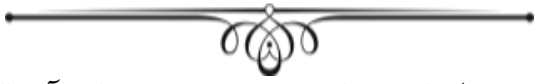

الإسلام هو دين الله الخاتم للبشرية جمعاء، والقرآن الكريم هو كتاب هذا الدين جاء مصدقا لما سبقه من كتب، وناسخا لشرائعها، ومهيمنا عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ [المائدة:٤٨].

۞ هذا الكتاب المعجز:

أنزله الله ﷻ علىٰ الناس، وجعله ناطقًا بالحق: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

وكما أشرنا سابقا فإن الهدف الأساسي من نزوله هو هداية الناس إلىٰ الله، وإلىٰ صراطه المستقيم، واستنقاذهم من طريق الضلال، فمن بحث فيه عن الهدىٰ وجده، ومن شك فيه فما عليه إلا أن يقرأ الكتب السابقة التي بين أيدي الناس ليعرف الفارق الكبير بينها وبين القرآن، وليتأكد لديه أنه من عند الله.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يؤمن الكثير من الناس بالله وبدينه؟!

هذا السؤال يُجيب عنه القرآن في عدة مواضع، ويُبين لنا أن ابتعاد الناس

عن الحق له سببان لا ثالث لهما:

إما جهل بهذا الحق، وإما هوىٰ في قلوبهم يمنعهم من الإذعان له، قال تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠].

لذلك كانت أهمية الدعوة إلىٰ الله لإنقاذ هؤلاء الذين يجهلون الله سبحانه وتعالىٰ، ولقد رفع الله ﷻ من شأنها وجعلها من أعظم ما يتقرب به العبد إليه. قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

ولكن كيف يُشخص الداعية حال من يدعوه، وهل هو من الذين يجهلون الحق أو يجحدونه؟

إنه أمر صعب لا يستطيع أحد أن يصل إليه، لذلك جعل الله سبحانه دور الداعية، بل الرسول عليه الصلاة والسلام البلاغ والإنذار، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤].

فليس لأحد أن يُرغم أحدًا علىٰ الدخول في الدين كما قال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ولكن المطلوب أن يُبين له طريقي الحق والضلال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

ولقد خاطب الله ﷻ نبيه عليه الصلاة والسلام بألا يحزن علىٰ عدم إيمان هؤلاء المعرضين: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء:٣].

فهم لا يُريدون الهداية: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦].

وعندما انشغل ﷺ ببعض من هؤلاء المعرضين عن الهداية، وترك آخر يسعىٰ من أجلها عاتبه الله ﷻ بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [عبس: ١ - ١١].

❁ لماذا يُثيرون الشُبهات؟

عندما يتمكن الهوىٰ من القلب فإنه يعمل علىٰ إغلاق سمع وبصر صاحبه تجاه الحق، بل يدفعه إلىٰ إثارة الشبهات حوله، ليظهر صاحب الحق بمظهر العاجز المهزوم، وينتفش الباطل، ويجد أهل الأهواء لأنفسهم مبررا لاستمرارهم علىٰ ما هو فيه.

وما من دعوة لله ﷻ قامت إلا وعمل أصحاب الأهواء علىٰ إثارة الشبهات حولها، تأمل معي ماذا قالوا عن رسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ [الفرقان: ٧ - ٩].

ثم تأمل ما قال الله سبحانه وتعالىٰ لرسوله عليه الصلاة والسلام، وكيف

بين دافعهم من وراء هذه الشبهات، قال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ [الفرقان: ١٠- ١١].

۞ صور الهدى:

بيَّن القرآن الصور المتعددة لتمكُّن الهوىٰ من القلب... فالخوف علىٰ الرزق وعلىٰ الحياة يُسيطر علىٰ الإنسان ويمنعه من قبول الحق.

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص:٥٧].

والرغبة في التمتع بالشهوات والفجور دون ضابط ولا رقيب من صور الهوىٰ كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ [القيامة: ٥- ٦]. ومن صوره أيضا حُب العلو في الأرض، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل:١٤].

۞ متى نرد على الشبهات؟

هناك شبهات يعرضها بعض المبطلين تحتاج إلىٰ بيان شاف.. نعم هذا البيان لن يؤثر في أهل الأهواء، لكن هناك قطاعًا عريضًا من الغافلين قد تؤثر فيه هذه الشبهات فيُعرض عن الحق، لذلك حرص القرآن علىٰ تفنيدها.

فدحض الشبهات له دور كبير في زيادة إيمان المؤمنين، وذهاب الشك

عن المترددين.

ومن صور الشبهات التي يُرددها المُكذِّبون قديما وحديثا أن الكون ليس له خالق، بل إن الطبيعة أوجدته، ومنها أن هناك أكثر من إله في الكون، وأن لله ولدا وزوجة - تعالىٰ سبحانه عن ذلك علوًّا كبيرًا - أو أن القرآن ليس من عند الله، وأن محمدًا ﷺ ليس برسول، أو أنه يستحيل أن يكون هناك بعث بعد الموت، ومنها كذلك أننا مُجبَرون علىٰ ما نقوم به من أفعال أو.... والقرآن حين يرد علىٰ هؤلاء تجد رده قويا مُفحما يشرح صدور المؤمنين ويزيل الشك عن المترددين.

تأمل قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣-١٤].

وفي قضية البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٨٣].

وفي مسألة إثبات عبودية البشر لله ﷻ وأنهم مقهورون بقضائه وقدره، في

الأمور الكونية وليس في الأمور الشرعية، يقول تعالىٰ: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

وفي القرآن مواضع كثيرة تُفند الشبهات وتكشف الدوافع من وراء إثارتها.

هذا الجانب عندما يتتبعه الواحد منا في تلاوته للقرآن فإن من شأنه أن يزيده إيمانًا ويقينًا وعزة بهذا الدين، ويعلمه كذلك فقه الدعوة، وكيف يتعامل مع أصناف الناس، وكيف يستقبل شبهاتهم، ويُصبره علىٰ ما يلاقيه من تكذيبهم.

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام:٣٣].

***

الجانب العاشر

العبرة من قصص السابقين

القرآن مليء بقصص السابقين من المؤمنين والكافرين، بل إن المساحة التي يُفردها لهذه القصص من أكبر المساحات فيه، وهذا يعني أول ما يعني أنه ينبغي علينا أن نوليها قدرا كبيرا من اهتمامنا.

قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١].

فكل قصة ذُكرت في القرآن للصراع بين الحق والباطل لها عبر ودروس مستفادة من شأنها أن تُثبت قلوب المؤمنين، وتُهوِّن عليهم مصاعب الطريق، وتُشعرهم بأنهم حلقة مكررة من حلقات التاريخ البشري، وأن ما يحدث معهم ليس بدعًا.

قال تعالىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

❁ كيف نستخلص العبرة؟

إن المتأمل في قصص السابقين يجد فيها تطبيقًا عمليًّا لجوانب الهداية

التسعة السابق ذكرها - فيما نرىٰ -، فمن خلالها نرىٰ آثارًا لأسماء الله وصفاته كالقوي، المنتقم في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

وصفات العزيز القهار في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وآثارًا لصفة القدير، كقوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾ [مريم: ٨- ٩].

ومن خلالها نتعرف علىٰ الإنسان عندما يطلق الزمام لنفسه ولا يُجاهدها أو يزكيها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٠].

- ومن جوانب الاعتبار فيها البحث عن دور الشيطان وكيف أضل الكثير من الناس عبر التاريخ، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

- ونتذكر من خلالها قصة وجودنا، ولماذا أتيت إلىٰ الدنيا وطبيعة الامتحان فيها، ففي قصة قارون نرىٰ مثالا للمرء المخدوع في ماله وسلطانه، وعندما نصحه الناصحون بأن هذا ابتلاء من الله وليس دليل كرامة قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]... فماذا حدث له؟: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص:٨١].

وفي قصة سليمان عليه السلام نرىٰ مثالا للمؤمن الذي يتعامل تعاملا صحيحا مع كل ما يستقبله من عطاء الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

- ومن قصص السابقين يتأكد لدينا واجبات العبودية لله ﷻ، كالاستغفار، والتوكل، كمثل قوله تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ﴾ [هود:٥٢]. وقوله: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ﴾ [هود:٥٦].

- وكذلك حقوق العباد بعضهم علىٰ بعض، كقوله تعالىٰ: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء: ١٨١- ١٨٢].

- ونرىٰ فيها القوانين والسنن الإلهية وهي تُطبق في الوقت المناسب الذي حدده الله ﷻ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ

يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦].

- وفي قصص السابقين تطبيق عملي للسنن الاجتماعية التي يحكم الله بها الحياة... تأمل قول الله ﷻ وهو يعرض لنا سنة من سننه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال:٥٣]، ثم يعطينا سبحانه وتعالىٰ نموذجا من قصص السابقين كتطبيق عملي لهذه السنة في الآية التي تليها مباشرة، قال تعالىٰ: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال:٥٤].

- ومن خلال تدبرها نكتشف أن الشبهات التي يُثيرها المكذبون متشابهة علىٰ مر العصور، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القصص:٤٨].

- وفي قصص السابقين نستشعر بأن الكون يتفاعل معنا؛ فتبكي السماء والأرض علىٰ موت الصالحين، ولا تبكي علىٰ موت الظالمين: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان:٢٩].

وكأننا نسمع النملة التي تحدثت مع أخواتها من النمل، فيسمعها نبي الله سليمان عليه السلام، ونتجاوب مع الهدهد التي اشتدت غيرته علىٰ دين الله عندما رأىٰ قوما يسجدون للشمس من دون الله.

✍ وهنا لنا وقفة نطرح فيها هذه الأسئلة:

* ما أهمية القصص في القرآن؟

* وهل لها أصل تاريخي؟

* وما الحكمة في تكرارها؟

- وهذه أسئلة طرحها الشيخ الغزالي رحمه الله تعالىٰ، وأجاب عنها فقال رحمه الله:

لا بد من دراسة الماضي والتفرُّس في أحداثه، فإن هذه الأحداث ليست مِلْكًا لأصحابها، وإنما هي مِلْك الإنسانية جميعًا، يدرُسها الخَلَف ليستفيدوا منها العِبَر، ويستخلصوا منها النتائج، ويضعوها نُصْبَ أعينهم وهم يُخَطِّطون للحاضر والمستقبل علىٰ سواء.

وظاهرٌ أن سِيَر الأفراد والأمم يخضع لسُنَن دقيقة، وأن ازدهار الحضارات وانطفاءها وبقاء الدول أو فناءها لا يتم خَبطَ عشواء! وإنما يقع وَفْقَ قوانين صارمة! بل إن القوانين الاجتماعية لا تقل عن القوانين العلمية دقّةً واطِّرادًا، ومن ثَمّ كان تجاهل هذه القوانين وخيمَ الآثار.

وقصص القرآن الكريم جزء من التاريخ المهم، ومعرفتها حصانة للباحثين لا يستغني عنها ذو لُبٍّ، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه:٩٩].

وقد لام ـ سبحانه ـ الغافلين عن هذا التاريخ وما وَعَىٰ من مصارع الظلَمَة وهلاك المفسدين ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ

فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه:١٢٨].

وقال: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأعراف:١٠١].

وتتشابَه القوانين الاجتماعية والقوانين الكونية في عمومها وانطباقها علىٰ شتىٰ الأمكنة والأزمنة، فقانون الأجسام الطافية مثلًا يشمل جميع الأنهار والبحار. وانهيار الأمم لشيوع الفوضىٰ والفساد يتناول شتىٰ الأجناس والعصور.

وقد هدَّد الله العرب بالمصير الكالح إذا بقُوا علىٰ عنادهم ومكرهم: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر:٤٣].

وسنن الله الكونية لا تُحابي أحدًا، وكذلك سُنَنُه التاريخية والحضارية، وهي مُنْطَبِقَة علىٰ المؤمنين والكافرين دون استثناء، وقد وقعت محنة (أحد) لأن المسلمين لم يلتزموا النصر، بيد أن الهزيمة الطارئة لن تُغَيِّر مستقبل الضلال وإن واتتْه مؤقتًا ظروف مساعدة، قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٣٧ - ١٤٠].

- وقد تضمَّن القرآن الكريم عدَّة قوانين اجتماعية وعمرانية حاسمة ساقها في تضاعيف القصص التي ذكرها أو في خواتيمها، مثل قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧] إلخ.

- إن القصص القرآني سردٌ واعٍ مُوَجِّهٌ للتاريخ الإنساني، ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق، بل الغرض منه التربية والتوعية، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة!

وقد شاع أدب القصة في عصرنا شيوعًا يستحق الدهشة، وامتلأت الأيدي بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يلتذوا بحسن العرض! وجملة هذه الروايات من نسج الخيال، وقد تكون ذات مَغزًى جيد، وقد تكون إثارة وَضِيعة.

والبَونُ شاسع بين هذه الأقاصيص وبين التاريخ الذي يجسده القرآن الكريم ويغزو به الألباب والبصائر ليمحوَ الغفلة ويرفعَ المستوىٰ ويضيءَ السبل، البَونُ بعيدٌ بعيد.

عندما يقول الله لنبيه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

فهو يقول ذلك في أعقاب سرد لواقع لا ريب فيه، فقد ذكر في هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسىٰ مع أممهم التي ظهرت في عصور متعاقبة، وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة حتىٰ أهلكتهم أمة بعد أخرىٰ.

وهو يحكي ذلك إرهابًا للعرب المستكبرين وتسليةً للنبي وتسريةً له!

وفي موضع آخر يقول له: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٣٤].

۞ فأين موضع الخيال في هذا الوقائع؟

وبعد أن قص الله سبحانه قصة يوسف، وشرح أطوار حياته منذ اختُطف إلىٰ أن صار ملك مصر، قال عنه وعن غيره من المرسلين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف:١١١].

۞ فأين موضع الخيال هنا؟

إن اتهام القرآن بأنه يعرض خيالات فنية أو يمزج في سياقه بين الواقع والخيال اتهام لا مساغ له، وهو في نظرنا بلاهة نشأت عن اتباع المستشرقين!

والمستشرقون يَحْسُون ما في كتبهم من غثاثة وعِوَج وبُعد عن الحق، ويريدون الإيهام بأن القرآن لا يَزِيد علىٰ غيره، وهذا كذب لا يَرُوج عند عاقل!

ومعلوم أن القصة واحدة قد تتكرر في عدة سور، غير أن هذا التكرار صوري، فإن كل قصة تختلف عن الأخرىٰ، إما في العناصر الجوهرية التي تتألف منها، أو في طريقة العرض الذي يُناسب مقتضيات الأحوال.

فقصة موسىٰ وبني إسرائيل في سورة «غافر» انفردت بالحوار الطويل للرجل المؤمن الذي يَكتُم إيمانه، بل هو العنصر البارز فيها.

والقصة نفسها في سورة «القصص» انفردت بتفصيل السبب في خروج موسىٰ إلىٰ أرض مدين وزواجه هناك.

والقصة في سورة «الكهف» انفردت بلقاء موسىٰ مع الخضر هذا اللقاء المثير المستغرَب.

والقصة في سورة «طه» انفردت بالحديث عن العصا التي كان موسىٰ يَهُشُّ بها علىٰ غنمه ثم تحولت إلىٰ قوة هائلة في يده، كما انفردت بأدعية موسىٰ وإجابة الله له... إلخ.

وقد استطال الحديث في سورتي «البقرة والأعراف» عن قصة بني إسرائيل، ومع ذلك فإن المنهج غير المنهج، والنتائج غير النتائج، وما اتفقت فيه السورتان جاءت صياغته علىٰ نحو يلائم البيئة المتغايرة، فالسورة الأولىٰ مدنية والأخرىٰ مكية.

وشرح النواحي الفنية والموضوعية في هذه القصة وحدها يحتاج إلىٰ كتاب عن «اليهود في القرآن الكريم» مع ملاحظة أن القرآن ليس كتابًا فنيًّا في الجغرافيا أو التاريخ، إنه يهتم بالجانب الإنساني والاجتماعي وحسب!

والحوار المبثوث في أرجاء كل قصة يُساق بحكمة إلىٰ غاية محددة!

خذ مثلًا قصة شعيب مع مدين في سورة «الأعراف» لقد جاء فيها هذا الخطاب يناشد فيه شعيب قومَه ألاّ يَستبِدَّ بهم اللَّدَدُ في الخصومة، وألاّ يَحمِلَهم النَّزَقُ علىٰ ارتكاب ما لا يَليق: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأعراف:٨٧] أي: دعُوا الأمر للزمن ولا تتعجلوا العواقب.

❁ فماذا كان الجواب؟

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ ... ﴾ [الأعراف:٨٨].

وظاهر أن هذا السياق من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» وكأن النبي يقول للعرب المناوئين له: احذروا مثل هذا المسلك في مصادرة الإيمان ومخاصمة أهله، فعُقباه صيحةٌ من المساء تَذَرُكم في دياركم هَلكَىٰ كما حدث لقوم شعيب: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٩١- ٩٢].

ويلفت نظرنا في تكرار أي قصة أن القرآن الكريم يُقَلِّب النفس الإنسانية علىٰ شتىٰ جوانبها، ويعالجها طورًا بالهدوء وطورًا بالصرامة، طورًا بالشد وطورًا بالرخاء، والغرضُ أن تَترُك باطلها وتُقبل علىٰ هدايات الله.

انظر مثلًا إلىٰ قصة هود مع عاد، إنك ترىٰ هودًا في سورة الأعراف بدأ هادئًا طويل الأناة مع ناس أشبه بالثيران الهائجة: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥- ٦٦].

فإذا تأملت في القصة نفسها عندما تعرضها سورة «هود» وجدت النبي الحليم يبدأ مندهشًا بوثنية قومه وحاسمًا في كشف كذبهم علىٰ الله ومنذرًا بسوء المآل إن هم بقُوا علىٰ جبروتهم: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ٥٠ - ٥٢].

وتفسير هذا أن لقاء أي نبي مع قومه لا يقع مرة واحدة، إنه لقاء يبقىٰ عشرات السنين، وما يدور بينهم وبينه من حديث لا يأخذ صورة واحدة، بل يأخذ صورًا كثيرة!

وحتىٰ لو وقع لقاء واحد ـ كما حدث لموسىٰ مع السحرة ـ فإن كل ما دار من حوار لا يُثبَتُ في عَرْض واحد، بل تُوزَّع أجزاء الحوار علىٰ ما تقتضيه المناسبات المتفاوتة.

ومِن ثَمَّ كان القصص القرآني مجالًا رحبًا لمعالجة النفوس والجماعات

من عِلَلِها المُنَوَّعة بما يلائمها من الدواء الناجع، فسَبكُ القصة ملحوظٌ فيه نقلُ ما يفيد الناس من بدء الوحي حتىٰ قيام الساعة!

ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، ليس المهم تحديد موقع أو حتىٰ تحديد الشخص، فما يعنينا أن نعرف هوية ذي القرنين أو الرجل الذي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ، المهم تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق.(١)

سؤال وجواب:

بعد انتهاء الحديث عن الجوانب العشرة للهداية الربانية يبقىٰ سؤال يحتاج إلىٰ إجابة، وهو: هل القرآن لا يحتوي إلا علىٰ هذه الجوانب العشرة التي ذُكرت.. وهل من الممكن أن نُضيف إليها جوانب أخرىٰ؟

نعم.. يُمكننا ذلك، فليس معنىٰ ما قيل في الصفحات السابقة هو حصر الهداية في هذه الجوانب العشرة فقط، فمن وجد جانبا أو أكثر يُمكن إضافته لما سبق فليفعل، ونسأل الله أن يرزقنا العلم وحسن الفهم.

***

(١) مائة سؤال عن الإسلام (ص: ١٨١ - ١٨٦).

الفصل السابع

كيف يكون القرآن حجة لنا لا علينا؟

إن هذا السؤال: **كيف يكون القرآن حجة لنا لا علينا؟** سؤال خطير، والسبب وراء طرحنا لهذا السؤال: ما ورد عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا**».(١) ومحل الشاهد معنا قوله ﷺ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**».

✍ **يقول صاحب «فتح المنعم» معلقًا على هذه الجملة**: أي إن أخلصت في تلاوته وعملت به كان حجة لك، وإلا كان حجة عليك، والخطاب لكل من يتأتى خطابه، وقيل: المعنى أنه الحكم الفصل عند التنازع فتحتج به أو يحتج به عليك.(٢)

✍ **وقال أيضًا في كلام دقيق**: وأما القرآن: فهو حجة ودفاع عمن يقرؤه مخلصًا مرتلًا متدبرًا عاملاً بما فيه، وحجة على من قدر على قراءته فأهمله، أو نسيه بعد ما حفظه، أو راءى بقراءته أو اختال به على من سواه من الخلق، أو عرضه للسخرية والاستهزاء، أو لم يعمل بما فيه. القرآن شاهد صدق، وحكم عدل، فهو كلام الله جل شأنه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

(١) صحيح مسلم: (٢٢٣).
(٢) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (٢/ ٨٢).

[النساء:١٢٢].(١)

- ومن هنا لنا وقفات لنرىٰ **كيف يكون القرآن حجة لنا لا علينا**؟ ونسأل الله أن يكون القرآن حجة لنا لا علينا اللهم آمين.

وحديثنا هنا حول عدة نقاط جوهرية، هذه النقاط مقياس دقيق لبيان كيف يكون القرآن حجة للعبد؟، وكيف يكون حجة عليه؟.

***

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم: (٢/ ٨٥).

المبحث الأول

معرفة القرآن

- **إن القرآن حجة لمن عرفه حق المعرفة:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد:١٩].

وهذه الآية نزلت في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل، كما ذكر ابن عباس (١)، والله في هذه الآية قارن بين الفريقين فقال: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ ﴾ [الرعد:١٩] أي لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضًا، لا يضاد شيء منه شيئا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، لا يستوي من كان كذلك ومن هو أعمىٰ لا يهتدي إلىٰ خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، أفهذا كهذا؟ لا استواء.(٢)

- **والقرآن حجة علىٰ من لم يعرفه** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم

(١) التفسير المنير: (١٣/ ١٤٩).

(٢) الأساس في التفسير: (٥/ ٢٧٣٩).

﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:٢٤].

قرأ الحق بالرفع ابن محيسن والحسن علىٰ تقدير هذا هو الحق، وقرأ الجمهور بالنصب مفعول أي: لا يعلمون الحق الذي هو القرآن العظيم فهم لا يتأملونه فحججه وبراهينه علىٰ إبطال الشرك ظاهرة.(١)

وقوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الأنبياء:٢٤]، زيادة في تبكيتهم وفي إظهار عجزهم، أي: هذا الوحىٰ الإلهي الناطق بتوحيد الله - تعالىٰ- موجود في القرآن الكريم المشتمل علىٰ ذكر المعاصرين لي من أتباعي، وموجود في كتب الأنبياء السابقين، كالتوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ، والإنجيل الذي أنزله علىٰ عيسىٰ، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء، وكيف اتخذتموهم آلهة مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل؟

فاسم الإشارة هذا في قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ [الأنبياء:٢٤] مبتدأ، مشار به إلىٰ الوحىٰ الإلهي، وقد أخبر عنه- سبحانه- بخبرين- كما يقول الشيخ الجمل-: «فبالنظر للخبر الأول يراد به القرآن، وبالنظر للخبر الثاني يراد به ما عداه من الكتب السماوية».(٢)

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٢٤] إضراب من جهته- تعالىٰ- عن مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان، وانتقال من

(١) أيسر التفاسير للجزائري: (٣/ ٤٠٥).
(٢) حاشية الجمل علىٰ الجلالين: (٣/ ١٢٤).

الأمر بتبكيتهم إلىٰ الأمر بإهمالهم استصغارا لشأنهم.

أي: دعهم- أيها الرسول الكريم- في باطلهم يعمهون فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين الباطل. فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدىٰ، ومتجهون إلىٰ الضلال، ومن جهل شيئا عاداه.(١)

***

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ١٩٩)

المبحث الثاني

الإيمان بالقرآن

- **إن القرآن يكون حجة لمن آمن به كله،** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩]، والمراد بالكتاب في قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران:١١٩]، جنس الكتب السماوية التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه. (١)، ومعلوم أن الإيمان بالكتب ركن من أركان الإيمان قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

۞ وجوب الإيمان بالرّسالات كلها:

من أصول الإيمان التصديق الجازم بالرسالات التي أنزلها الله إلىٰ عباده بواسطة رسله وأنبيائه، والتصديق بأنهم بلَّغوها للناس، قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقد أثنىٰ الله علىٰ رسله الذين يبلغون رسالاته ولا تأخذهم في الله لومة

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٢/ ٢٣٧)

لائم ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

وقد كان هلاك الأمم بسبب التكذيب برسالات الله، انظر إلىٰ موقف صالح بعد حلّ الهلاك بقومه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:٧٩]، وموقف شعيب بعد هلاك قومه ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأعراف:٩٣].

والذي أوحاه الله لرسله قد يكون نزل من السماء مكتوبًا كالتوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وقد يكون كتابًا ولكنه أنزل إلىٰ الرسول بالتلاوة والمشافهة كالقرآن ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٦].

والمنزل من السماء قد يجمعه كتاب كصحف إبراهيم والكتب المنزلة علىٰ موسىٰ وداود وعيسىٰ ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون وحيًا يلقىٰ إلىٰ الرسول أو النبي، وليس بكتاب، وذلك كالوحي المنزل إلىٰ إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط والموحىٰ به إلىٰ نبينا من غير القرآن.

ويجب الإيمان بالوحي المنزل كله ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ

أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وقال الله لرسوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى:١٥]، وقال للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ [النساء:١٣٦].

فما أعلمنا الله به تفصيلًا كالكتب التي ذكرها، وهي صحف إبراهيم وتوراة موسىٰ وزبور داود وإنجيل عيسىٰ والقرآن المنزل علىٰ محمد ﷺ، وكتكليم الله لموسىٰ، وإيحاء الله إلىٰ صالح وهود وشعيب، ووحي الله إلىٰ رسوله محمد ﷺ من غير القرآن، وقد تضمنته كتب السنة - نؤمن به تفصيلًا كما أخبر الله تعالىٰ، ونؤمن بأن هناك كتبًا ووحيًا غير ذلك لم يعلمنا الله سبحانه بها.

❁ كيف يكون الإيمان بالرسالات السابقة:

ونحن نؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة، وأن الانقياد لها، والحكم بها كان واجبًا علىٰ الأمم التي نزلت إليها الكتب، ونؤمن بأن الكتب السماوية يصدق بعضها بعضًا، ولا يكذّب بعضها بعضًا، فالإنجيل مصدق للتوراة، قال الله في الإنجيل: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ ﴾ [المائدة:٤٦].

ومن أنكر شيئًا مما أنزله الله فهو كافر ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء:١٣٦]، وقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠].

ونصدق بنسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة كليًّا أو جزئيًّا، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثم نسخ هذا، ومما كان مباحًا ليعقوب أن يجمع الرجل بين أختين في الزواج وفعله يعقوب، ثمَّ نسخ، والإنجيل أحلّ بعض ما حرّم في التوراة ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران:٥٠].

والقرآن نسخ الكثير مما في التوراة والإنجيل ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:١٥٧].

❁ كيف يكون الإيمان بالرسالة الخاتمة:

الإيمان بالكتب السماوية السابقة تصديق جازم بها، ومجرد التصديق لا يكفي في القرآن، فلا بدّ مع التصديق من الأخذ به والعمل بما أمر به (١) وترك ما نهىٰ عنه ﴿ الٓمَّٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١-٣].

---

(١) سيأتي الحديث عن العمل بالقرآن بعد قليل بأمر الله تعالىٰ.

فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يصلنا بالله بعد بعثة الرسول ﷺ، كما أن القرآن هو العصمة من الضلال والهلاك لمن تمسك به، وقد أكثر الرسول ﷺ من حثّ الأمّة على التمسك بهذا الكتاب، ففي إحدى خطبه قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**».(١)

والفتن التي تمرُّ بالمسلم وتعصف بالأمة لا سبيل للخلاص منها إلا بالأخذ بهذا الكتاب، وما أجمل هذا الوصف لكتاب الله! «**كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن:١، ٢] مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(٢).(٣)

---

(١) صحيح مسلم: (٢٤٠٨).

(٢) سنن الترمذي: (٢٩٠٦)، وضعيف الجامع: (٢٠٨١).

(٣) الرسل والرسالات: (٢٢٩/ ٢٣٢). بتصرف واختصار.

- **والقرآن يكون حجة علىٰ من آمن ببعضه وترك بعضه**، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٥ - ٨٦]

وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ [البقرة:٨٥] توبيخ وتقريع لهم علىٰ تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنىٰ: أفتتبعون أحكام كتابكم في فداء الأسرىٰ، ولا تتبعونها في نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ علىٰ التفريق بين أحكامه- تعالىٰ- بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

وبعض الكتاب الذي آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرىٰ في أيدىٰ عدوهم، وبعضه الذي كفروا به ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار، فالإنكار منصب علىٰ جمعهم بين الكفر والإيمان.

✍ **قال الشيخ محمد الخضر حسين**: «وإنما سمىٰ- سبحانه- عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرًا لأن من عصىٰ أمر الله- تعالىٰ- بحكم عملي معتقدا أن الحكمة والصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون في قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب. فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفي الآية الكريمة دليل واضح علىٰ أن الذي يؤمن ببعض ما تقرر في الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه،

يدخل في زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ». (١)

وبمناسبة قوله تعالىٰ: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} نقول: لقد أخذ الله علىٰ هذه الأمة ما أخذ علىٰ بني إسرائيل في وجوب إقامة أحكام القرآن، فطبقت في عصورها المتأخرة بعضا وتركت بعضا؛ فابتلاها الله بما ابتلاها به، من الذلة، والهوان ولعذاب الآخرة أشد.

وها نحن الآن نعاني من الذلة والهوان، بأن سلط الله علينا أمم الكفر، حتىٰ سلط علينا اليهود أذل خلق، وتلك عقوبة نسيان جزء من كتاب الله....إنه لا خلاص لنا مما نحن فيه بالدنيا، ولا نجاة لنا في الآخرة، إلا بالعودة الكاملة لكتاب الله، بتطبيقه كله، في محيط الفرد، والأسرة، والدولة، والأمة. وإلا فإن الذلة مستمرة، وكل محاولة للخروج منها عن غير هذا الطريق محاولة فاشلة، قال عمر رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»، وقد رأينا أن سبب التطبيق الجزئي هو استحباب الدنيا علىٰ الآخرة، فبداية الدواء إذن أن نغرس في قلب المسلم تفضيل الآخرة علىٰ الدنيا، وأن نغرس في قلبه حب الآخرة، وطريق ذلك العلم بالكتاب والسنة، والعمل، ومجالسة الصالحين من عباد الله. (٢)

***

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١/ ١٩٣)

(٢) الأساس في التفسير: (١/ ١٧٨/ ١٧٩). بتصرف واختصار.

المبحث الثالث

الإيمان بمتشابه القرآن

- إن القرآن يكون حجة لمن آمن بمتشابهه واتبع محكمه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧].

إن القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود:١]، فهو مشتمل علىٰ غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة:٥٠]، وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظًا ومعنىٰ، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧] أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، و} منه آيات ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] أي: يلتبس معناها علىٰ كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلىٰ

بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل علىٰ بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلىٰ المحكم والخفي إلىٰ الجلي، فبهذه الطريق يصدق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلىٰ فرقتين ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران:٧] أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدىٰ والرشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلىٰ المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم علىٰ المتشابه ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧] لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلا للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧] للمفسرين في الوقوف علىٰ «الله» من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران:٧] قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته.

كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥] فقال السائل: كيف استوىٰ؟ فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف علىٰ ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضا لما لا يعني، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلىٰ علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلون المعنىٰ إلىٰ الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف «الراسخون» علىٰ «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلىٰ المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالىٰ والراسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران:٧] وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض، وفيه تنبيه علىٰ الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينًا أنه مردود إلىٰ المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك.

ولما رغب تعالىٰ في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع المتشابه قال ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ [آل عمران:٧] أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران:٧] أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلىٰ عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.(١)

- **والقرآن يكون حجة علىٰ من اتبع متشابهه** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧].

الزيغ- كما يقول القرطبي- الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، ويقال: زاغ يزيغ زيغًا إذا ترك القصد، ومنه قوله- تعالىٰ-: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف:٥]. وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلىٰ نصارىٰ نجران.

والابتغاء: الاجتهاد في الطلب. يقال: بغيت الشيء وابتغيته، إذا طلبته بجد ونشاط.

والفتنة: من الفتن: وأصل الفتن إدخال الذهب للنار لتظهر جودته من رداءته. والمراد بها هنا الإضلال وإثارة الشكوك حول الحق.

والتأويل: يطلق بمعنىٰ التفسير والتوضيح والبيان. ويطلق بمعنىٰ حقيقة

(١) تيسير الكريم الرحمن: (ص: ١٢٢).

الشيء وما يؤول إليه أمره، مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلىٰ الأصل.

يقال: آل الأمر إلىٰ كذا يؤول أولا أي رجع. وأولته إليه: رجعته.

المعنىٰ: لقد اقتضت حكمتنا- يا محمد- أن ننزل عليك القرآن مشتملا علىٰ آيات محكمات هن أم الكتاب، وعلىٰ أخر متشابهات. فأما الفاسقون الذين في قلوبهم انحراف عن طلب الحق، وميل عن المنهج القويم، وانصراف عن القصد السوىٰ فيتبعون ما تشابه منه، أي: يتعلقون بذلك وحده. ويعكفون علىٰ الخوض فيه. ولا تتجه عقولهم إلىٰ المحكم ليردوا المتشابه إليه، وإنما يلازمون الأخذ بالمتشابه كما يلازم التابع متبوعه، لأنه يوافق اعوجاج نفوسهم وسوء نياتهم. وتحكم أهوائهم وشهواتهم.

وقد بين- سبحانه- أن اتباع هؤلاء الزائغين للمتشابه إنما يقصدون من ورائه أمرين:

أولهما: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧] أي طلبا لفتنة المؤمنين في دينهم. وتشكيكهم في عقيدتهم، وإثارة الريب في قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذي جاء به القرآن، بأن يقولوا- كما حكىٰ القرآن عنهم- ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد:٥] وبأن يقولوا: كيف يكون نعيم الجنة، وما حقيقة الروح ولماذا يعذبنا الله علىٰ أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شيء، إلىٰ غير ذلك من الشبهات الزائفة التي يثيرها الذين في قلوبهم زيغ طلبا لتشكيك المؤمنين في دينهم.

وثانيهما: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] أي: ويتعلقون بالمتشابه

ويتبعونه طلبًا لتأويل آيات القرآن تأويلا باطلا، وتفسيرها تفسيرا فاسدا بعيدا عن الحق زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه، لأنه يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة.

وفي جعل قلوبهم مقرا للزيغ مبالغة في عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم علىٰ الشر والفساد.

✍ **وفي تعليل الاتباع- كما يقول الآلوسي-** «بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة. إيذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل- في عير ولا نفير ولا قبيل ولا دبير- وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه».

وقد ذم النبي ﷺ هؤلاء الذين يتبعون ما تشابه من القرآن طلبا للفتنة والتأويل الباطل، وحذر منهم في أحاديث كثيرة. ومن ذلك ما ورد عن أم المؤمنين عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ». (١)

وقد استجاب الصحابة رضي الله عنهم لوصايا الرسول ﷺ فكانوا يتباعدون عن

(١) صحيح البخاري (٤٥٤٧)، صحيح مسلم: (٢٦٦٥).

الذين في قلوبهم زيغ. ويزجرونهم ويكشفون عن أباطيلهم.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يُقَالُ لَهُ: صَبِيغُ بْنُ عَسَلٍ، قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ كُتُبٌ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ رضي الله عنه فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَعَدَّ لَهُ عَرَاجِينَ النَّخْلِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ جَلَسَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ اللهِ صَبِيغٌ فَقَالَ عُمَرُ: وَأَنَا عَبْدُ اللهِ عُمَرُ، ثُمَّ أَهْوَىٰ إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينِ، فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّىٰ شَجَّهُ، فَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَاللهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ فِي رَأْسِي.(١)

ثم بين- سبحانه- أن تأويل المتشابه مرده إلىٰ الله- تعالىٰ- وأن الراسخين في العلم يعلمون منه ما يوفقهم الله لمعرفته فقال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران:٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧] من الرسوخ وهو الثبات والتمكن وأصله في الأجرام، أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض، واستعمل في المعاني ومنه رسخ الإيمان في القلب. أي ثبت واستقر وتمكن.

✍ **والألباب، جمع لب وهو- كما يقول الراغب**(٢) - العقل الخالص

(١) سنن الدارمي: (١٤٦)، الشريعة للآجري: (١/ ٤٨٣)، ورجاله ثقات غير أنه منقطع سليمان بن يسار لم يدرك عمر بن الخطاب.
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٦٤٤.

من الشوائب وسمىٰ بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كاللباب واللب من الشيء وقيل هو ما زكا من العقل، فكل لب عقل وليس كل عقل لبا، ولهذا علق الله- تعالىٰ- الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولىٰ الألباب». (١)

***

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٢/ ٣٠/ ٣١).

المبحث الرابع

حفظ القرآن

- **القرآن حجة لمن حفظه** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت:٤٩]، قال ابن كثير: أي هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة علىٰ الحقّ، أمرًا ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يسّره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر:١٧].

- وعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**».(١)

✍ **يقول الإِمَامُ الْكَبِيرُ ابْن الْجَوْزِيِّ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ**: إِنَّ اللهَ عز وجل خَصَّ أُمَّتَنَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ وَالْعِلْمِ، وَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَنَا يَقْرَءُونَ كُتُبَهُمْ مِنَ الصُّحُفِ، وَلا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْحِفْظِ، فَلَمَّا جَاءَ عُزَيْرٌ فَقَرَأَ التَّوْرَاةَ مِنْ حِفْظِهِ، فَقَالُوا: هَذَا ابْنُ اللهِ، فَكَيْفَ نَقُومُ بِشُكْرِ مَنْ خَوَّلَنَا أَنَّ ابْنَ سَبْعِ سِنِينَ مِنَّا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، ثُمَّ لَيْسَ فِي الأُمَمِ مِمَّنْ يَنْقُلُ عَنْ نَبِيِّهِ أَقْوَالَهُ وَأَفْعَالَهُ عَلَىٰ وَجْهٍ يَحْصُلُ بِهِ

(١) سنن الدارمي: (٢٣٥)، سنن ابن ماجه: (٢٣٠)، والسلسلة الصحيحة: (٤٠٣).

الثِّقَةُ إِلا نَحْنُ، فَإِنَّهُ يَرْوِي الْحَدِيثَ مِنَّا خَالِفٌ عَنْ سَالِفٍ، وَيَنْظُرُونَ فِي ثِقَةِ الرَّاوِي إِلَىٰ أَنْ يَصِلَ الأَمْرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ، وَسَائِرُ الأُمَمِ يَرْوُونَ مَا يَذْكُرُونَهُ عَنْ صَحِيفَةٍ لا يُدْرَىٰ مَنْ كَتَبَهَا، وَلا يُعْرَفُ مَنْ نَقَلَهَا، وَهَذِهِ الْمِنْحَةُ الْعَظِيمَةُ نَفْتَقِرُ إِلَىٰ حِفْظِهَا بِدَوَامِ الدِّرَاسَةِ، لِيَبْقَىٰ الْمَحْفُوظُ، وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِنَا يَحْفَظُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الأَمْرِ، فَآلَ الأَمْرُ إِلَىٰ أَقْوَامٍ يَفِرُّونَ مِنَ الإِعَادَةِ مَيْلا إِلَىٰ الْكَسَلِ، فَإِذَا احْتَاجَ أَحَدُهُم إِلَىٰ مَحْفُوظٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ الْمُتَفَقِّهَةِ أَنَّهُمْ يُعِيدُونَ الدَّرْسَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَإِذَا مَرَّ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ يَوْمَانِ نَسِيَ ذَلِكَ، وَإِذَا افْتَقَرَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمُنَاظَرَةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَذَهَبَ زَمَانُ الأَوَّلِ ضَائِعًا، وَيُحْتَاجُ أَنْ يَبْتَدِئَ الْحِفْظَ لِمَا فِيهِ أَوَّلا، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ لَمْ يَحْكُمْهُ.(١)

✍ **يقول الرازي**: وقد قَالَ الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة:١٠٥] قِيلَ: معناه: بحفظ القرآن، أي: ما حسدتكم اليهود والنصارىٰ عَلَىٰ شيء كحفظ القرآن.

- وبحفاظ الأمة أنجز الله حسن موعوده من قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر:٩].

- وبحفظ القرآن وصفهم الله ﷻ بالعلم، فَقَالَ: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٢).

صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:٤٩].

- وقرر لهم حقيقة العلم، وكذلك وجدهم مُوسَىٰ عليه السلام فَقَالَ: يا رب، إني أجد فِي التوراة أمة أناجيلهم فِي صدورهم يقرءونه ظاهرًا.

- وكذلك أشعيا بْن راموص فَقَالَ: قربانهم دماؤهم وأناجيلهم فِي صدورهم.(١)

- وعَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ**».(٢) يقول الباقلاني معلقًا علىٰ هذا الحديث: وهذا حث وترغيب شديد علىٰ حفظ القرآن والقيام به.(٣)

✍ **يقول ابن الجوزي**: إن الْمَنْقُولات فِي حِفْظِ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ، وَيَكْفِي مِنْهَا قَوْلُهُ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، رِضًا بِمَا يَطْلُبُ**».(٤)

وَيَكْفِي مِنَ الْمَعْقُولاتِ: أَنَّ الْعِلْمَ يَدَّعِيهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ، وَيَنْفِرُ مِنَ النُّسْبَةِ إِلَىٰ الْجَهْلِ، وَالْجَاهِلُ،،لا يَخْفَىٰ أَنَّ ارْتِفَاعَ قَدْرِ الْعَالِمِ بِمِقْدَارِ عِلْمِهِ،

---

(١) فضائل القرآن وتلاوته للرازي: (٣١: ٣٢).

(٢) صحيح البخاري: (٧٥٢٩)، صحيح مسلم: (٨١٥)، واللفظ له.

(٣) الانتصار للقرآن للباقلاني: (١/ ٨٢).

(٤) سنن الدارمي: (٣٦٩) سنن الترمذي: (٣٥٣٥)، وحسنه الألباني.

فَإِنْ قَلَّ قَلَّتْ رِفْعَتُهُ.(١)

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُقَالُ** - يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: **اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**».(٢)

✍ **يقول ابن الجوزي بعد إيراده هذا الحديث**: وَلَيْسَ مَنْ حَفِظَ نِصْفَ الْقُرْآنِ كَمَنْ حَفِظَ الْكُلَّ، وَلا مَنْ حَفِظَ مِائَةَ حَدِيثٍ كَمَنْ حَفِظَ أَلْفًا. وَعَلَىٰ هَذَا فَلَيْسَ الْعِلْمُ إِلا مَا حُصِّلَ بِالْحِفْظِ.

✍ **قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ**: كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخُلُ مَعَ صَاحِبِهِ الْحَمَّامَ فَلا تَعُدُّهُ، وَأَنْشَدَ:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَىٰ الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ(٣)

✍ **وقال الشاطبي**:

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وَأَغْنَىٰ غَنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلَا
وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلَا
وَحَيْثُ الْفَتَىٰ يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ الْقَبرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلَا
هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً ... وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يُجْتَلَىٰ
يُنَاشِدُ فِي إِرْضَائِهِ لحبِيبِهِ ... وَأَجْدِرْ بِهِ سُؤْلًا إِلَيْهِ مُوَصَّلَا

(١) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٣). بتصرف.
(٢) سنن الترمذي: (٢٩١٤)، والسلسلة الصحيحة: (٢٢٤٠).
(٣) الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص: ٣٣). بتصرف.

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِّكًا ... مُجِلاًّ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبَجِّلا
هَنِيئًا مَرِيئًا وَالِدَاكَ عَلَيْهِما ... مَلَابِسُ أَنْوَارٍ مِنَ التَّاجِ وَالحُلاْ
فَمَا ظَنُّكُمْ بالنَّجْلِ عِنْدَ جَزَائِهِ ... أُولَئِكَ أَهْلُ اللهِ والصَّفْوَةُ المَلَا(١)

✍ **وقال ابن الجزري:**

فَالإِنْسَانُ لَيْسَ يَشْرُفُ ... إِلاَّ بِمَا يَحْفَظُهُ وَيَعْرِفُ
لِذَاكَ كَانَ حَامِلُو الْقُرآنِ ... أَشْرَافَ الأُمَّةِ أُولِي الإِحْسَانِ
وَإِنَّهُمْ فِي النَّاسِ أَهْلُ اللهِ ... وَإِنَّ رَبَّنَا بِهِمْ يُبَاهِي
وَقَالَ فِي الْقُرآنِ عَنْهُمْ وَكَفَىٰ ... بأَنَّهُ أَوْرَثَهُ مَنِ اصْطَفَىٰ
وَهْوَ فِي الأُخْرَىٰ شَافِعٌ مُشَفَّعُ ... فِيهِ وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ يُسْمَعُ
يُعْطَىٰ بِهِ المُلْكَ مَعَ الْخُلْدِ إِذَا ... تَوَّجَهُ تَاجَ الْكَرامَةِ كَذَا
يَقْرَا وَيَرْقَىٰ دَرَجَ الجِنَانِ ... وَأَبَوَاهُ مِنْهُ يُكْسَيَانِ
فَلْيَحِرصِ السَّعِيدُ فِي تَحْصِيْلِهِ ... وَلا يَمَلَّ قَطُّ مِنْ تَرْتِيْلِهِ
وَلْيَجْتَهِدْ فِيهِ وَفِي تَصحِيحِهِ ... عَلَىٰ الَّذِي نُقِلَ مِنْ صَحِيحِهِ.(٢)

***

(١) متن الشاطبية الأبيات: (١٠ - ١٧).
(٢) متن طيبة النشر الأبيات: (٥ - ١٣).

المبحث الخامس

قراءة القرآن

۞ إن القرآن حجة لمن قرأه:

* قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

أي: إن الذين يداومون علىٰ قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه، وعمل بتوجيهاته، وَأَقامُوا الصَّلاةَ بأن أدوها في مواقيتها بخشوع وإخلاص.

﴿ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [فاطر:٢٩] أي: وبذلوا مما رزقناهم من خيرات، تارة في السر وتارة في العلانية.

وجملة ﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر:٢٩] في محل رفع خبر إن. والمراد بالتجارة: ثواب الله- تعالىٰ- ومغفرته.

وقوله: ﴿ تَبُورَ ﴾ بمعنىٰ تكسد وتهلك. يقال: بار الشيء يبور بورا وبوارا، إذا هلك وكسد.

أي: هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم، ويؤدون ما أوجبه

الله- تعالىٰ- عليهم، يرجون من الله- تعالىٰ- الثواب الجزيل، والربح الدائم، لأنهم جمعوا في طاعتهم له- تعالىٰ- بين الإكثار من ذكره، وبين العبادات البدنية والمالية.

واللام في قوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر:٣٠]. متعلقة بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر:٢٩] علىٰ معنىٰ، يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجورهم التي وعدهم بها، ويزيدهم في الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه.

أو متعلقة بمحذوف، والتقدير: فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إِنَّهُ- سبحانه- غَفُورٌ أي: واسع المغفرة شَكُورٌ أي: كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدي ما كلفه به.(١)

- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ»**.(٢)

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»**.(٣)

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١١/ ٣٤٦).
(٢) صحيح مسلم: (٨٠٤).
(٣) سنن الترمذي: (٢٩١٠)، والسلسلة الصحيحة: (٣٣٢٧).

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**».(١)

❁ والقرآن حجة على من أعرض عن قراءته:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

أما من أعرض عن ذِكْرِي أي: عن هداي الذي جاءت به رسلي، واشتملت عليه كتبي ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤].(٢) أي: فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة، حتىٰ ولو ملك المال الوفير، والحطام الكثير.. فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله، وامتثال أمره، واجتناب نهيه...قال- تعالىٰ-: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧].

---

(١) سنن أبي داود: (١٤٦٤)، صحيح الجامع: (٣٢٠١).

(٢) من يشعر بالاكتئاب والضيق والضنك في العيش فليراجع علاقته بالقرآن والذكر. لأن الله يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤]، وكلمة: الضنك ثقيلة علىٰ اللسان فكيفَ إذا عاشها الإنسان؟. وهذه الكلمة لها دلالات، فالضاد: ضيق، والنون: نكد، والكاف: كدر.

✍ **قال الإمام ابن كثير**(١): قوله- تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أي: في الدنيا فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلىٰ اليقين والهدىٰ. فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة.(٢)

***

(١) تفسير ابن كثير: (٥/ ٢١٦).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ١٦٤).

المبحث السادس

تلاوته وفهمه

۞ القرآن حجة لمن تلاه وفهمه :

- والدليل علىٰ ذلك قوله تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة:١٢١].

✍ **يقول الشيخ الشعراوي** رحمه الله: أي يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل.. فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوىٰ البشر.. ولا بالتحريف الذي هو نقل شيء من حق إلىٰ باطل.(١)

✍ **ويقول الشيخ سيد طنطاوي** رحمه الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١] أي: يقرءونه قراءة حقة، مصحوبة بضبط لفظه، وتدبر معانيه، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضي عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب، كالجمل الواردة في نعت رسول الله ﷺ وأن تدبره يستدعي اتباعه والعمل به.

وجملة: ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ [البقرة:١٢١] حال من الضمير (هم) أو من

---

(١) تفسير الشعراوي: (١/ ٥٦٤).

الكتاب وهذه الحال من قبيل الأحوال التي تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه. وهي التي تسمىٰ بالحال المقدرة أي: مقدرا وقوعها بعد وقوع عاملها.

والمراد بالذين أوتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب. والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل. أو هم أصحاب النبي ﷺ والكتاب: القرآن.(١)

❁ توضيح المراد بحق تلاوته:

- ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١] أي يقرءونه حق قراءته، في الترتيل، وأداء الحروف، والتدبر، والتفكر، والإيمان بمضمونه، والعمل به.

- ومن ذلك **إِذَا مَرَّ بِذِكْرِ الْجَنَّةِ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ، وَإِذَا مَرَّ بِذِكْرِ النَّارِ تَعَوَّذَ بِاللهِ مِنَ النَّارِ**. كما قال عمر بن الخطاب.(٢)

- ومن حق التلاوة ما قاله عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَنْ يُحِلَّ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمَ حَرَامَهُ، وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ، وَلَا يُحَرِّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ».(٣)

- ومن حق التلاوة ما قاله الحسن البصري: «يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَكِلُونَ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ عَالِمِهِ».(٤)، ومن حق التلاوة ما قاله

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١/ ٢٦٣/ ٢٦٤).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم: (١/ ٢١٨).
(٣) تفسير الطبري: (٢/ ٥٦٧).
(٤) تفسير الطبري: (٢/ ٤٩٢).

ابن عباس «يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ».(١)

❁ دليل آخر على أن القرآن حجة لمن تلاه وفهمه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان:٧٣].

والمراد بآيات ربهم، القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات..

أي: أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم، إذا ذَكَّرَهُم مذكر بآيات الله ـ تعالىٰ ـ المشتملة علىٰ المواعظ والثواب والعقاب، أكبوا عليها، وأقبلوا علىٰ المذكّر بها بآذان واعية، وبعيون مبصرة، وليس كأولئك الكفار أو المنافقين الذين ينكبون علىٰ عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمي الذين لا يعقلون، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم بدون فهم أو وعي أو تدبُّر.

فالآية الكريمة مدح للمؤمنين علىٰ حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم(٢)، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون علىٰ باطلهم سقوط الأنعام

---

(١) تفسير الطبري: (٢/ ٤٨٨).

(٢) لأن حالهم عند سماعها كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة:١٥] فيقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتحدث لهم نشاطا ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا.

علىٰ ما يقدم لها من طعام وغيره.

✍ **قال صاحب الكشاف**: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ [الفرقان:٧٣].. ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمىٰ، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلّمًا هو نفي للسلام لا للقاء.

والمعنىٰ: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا علىٰ استماعها، وأقبلوا علىٰ المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية. مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها.. وهم كالصم العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم.(١)

❁ والقرآن حجة على من تلاه ولم يَفْهَمْه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨].

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] أَيْ غَيْرُ عَارِفِينَ بِمَعَانِي الْكِتَابِ يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أَيْ تِلَاوَةً فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فِقْهَ الْكِتَابِ إِنَّمَا يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ مَا يَسْمَعُونَهُ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالَهُ الْكِسَائِيُّ وَالزَّجَّاجُ.

✍ **وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ السَّائِبِ**: لَا يُحْسِنُونَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ وَلَا كِتَابَتَهُ إِلَّا أَمَانِيَّ إِلَّا مَا يُحَدِّثُهُمْ بِهِ عُلَمَاؤُهُمْ.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٠/ ٢٢١-٢٢٢)، وانظر تفسير الكشاف: (٣/ ٢٩٥).

✍ **وَقَالَ أَبُو رَوْقٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ**: أَيْ تِلَاوَةً وَقِرَاءَةً عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ وَلَا يَقْرَءُونَهَا فِي الْكُتُبِ فَفِي هَذَا الْقَوْلِ جَعْلُ الْأَمَانِيِّ الَّتِي هِيَ التِّلَاوَةُ تِلَاوَةَ الْأُمِّيِّينَ أَنْفُسِهِمْ وَفِي ذَلِكَ جَعْلُهُ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ تِلَاوَةِ عُلَمَائِهِمْ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ، وَالْآيَةُ تَعُمُّهُمَا، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:٧٨] لَمْ يَقُلْ لَا يَقْرَءُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ.

لَكِنْ يَعْلَمُونَ أَمَانِيَّ إِمَّا بِقِرَاءَتِهِمْ لَهَا وَإِمَّا بِسَمَاعِهِمْ قِرَاءَةَ غَيْرِهِمْ وَإِنْ جُعِلَ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا كَانَ التَّقْدِيرُ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا عِلْمَ أَمَانِيَّ لَا عِلْمَ تِلَاوَةٍ فَقَطْ بِلَا فَهْمٍ وَالْأَمَانِيُّ جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وَهِيَ التِّلَاوَةُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج:٥٢] قَالَ الشَّاعِرُ:

تَمَنَّىٰ كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... وَآخِرَهَا لَاقَىٰ حِمَامَ المقادر(١)

✍ **يقول صاحب التفسير الوسيط**: و (الأمانيُّ) - بالتشديد- جمع أمنية، مأخوذة من تمنىٰ الشيء أي: أحب أن يحصل عليه، أو من تمنىٰ إذا كذب، أو من تمنىٰ الكتاب أي قرأه.

فإن فسرنا الأماني بالأول كان قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨]

(١) مجموع الفتاوىٰ: (١٧/ ٤٣٤/ ٤٣٥).

معناه: إلا ما هم عليه من أمانيهم في أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

وإن فسرناها بالكذب، كان قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] معناه: إلا ما يقرءونه من قراءات خالية من التدبر، وعارية عن الفهم. من قوله تمنىٰ كتاب الله أول ليلة... أي قرأ.

هذا، وقد رجح ابن جرير تفسير (الأماني) بالأكاذيب فقال: ما ملخصه «وأولىٰ ما روينا في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] بالصواب، أن هؤلاء الأميين لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله علىٰ موسىٰ شيئًا، ولكنهم يتخرصون الكذب، ويتقولون الأباطيل كذبا وزورا، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالىٰ بعد ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة:٧٨] فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظنًّا منهم لا يقينًا».(١)

والذي نراه أن المعاني الثلاثة للأماني تنطبق علىٰ اليهود، وكلها حصلت منهم وما دام يصدق عليهم المعاني الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية، ولا معنىٰ لأن نشتغل بترجيح بعضها علىٰ بعض كما فعل ابن جرير وغيره.(٢)

وهنا يمكن أن يعترض معترض أو يسأل سائل، إذا كانت الآية في اليهود فما بالنا نحن؟

---

(١) تفسير ابن جرير: (١/ ٢٧٥).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١/ ١٨٢ / ١٨٣).

والجواب: إننا نعلم أن الأمر بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية موجهة لنا لنحذر مما كانوا فيه، وهناك حديث يجب أن نفقهه جيدًا عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ**». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ قَالَ «**فَمَنْ**».(١)

وهذا الحديث النبوي نراه متحققًا في واقعنا، فكثير من المسلمين أصبحوا بعيدين عن فهم القرآن، بل مما يدمي القلب أن الكثرة الكاثرة أصبحت غيرَ فاهمةٍ لكتاب الله، فسهل علىٰ عدوها أن يهزمها وأن يسوقها ويقودها حيث أراد.

ومن الأمور المخيفة أننا نسمع من لهم أسماء المسلمين، ثم هم يحرفون الكلم عن مواضعه بجهل وغطرسة، ولا يخفىٰ ذلك علىٰ من له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

- ولقد خبرت بعض هؤلاء في بلدان كثيرة زرتها، تجدهم يلبسون ويرتدون ثوب المعرفة والفهم، وهم في الحقيقة خواء هباء، لا علم ولا معرفة ولا حُسْنَ فهم، ومع ذلك عندهم من الوقاحة ما يجعلهم يناقشوا ويردوا كتاب الله، فضلًا عن سنة رسول الله ﷺ، لكن يزول العجب لمَّا نقرأ سنة رسول الله ﷺ التي جاءت ببيان صفات هؤلاء فقال رسول الله ﷺ: «**تَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ سَنَوَاتٌ جَدِعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا**

(١) صحيح مسلم: (٢٦٦٩).

الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهِمُ الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**».(١)

- وانظر وتأمل هذه الكلمة التي صدرت من فم المعصوم ﷺ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ**»، والتافه هو قليل العلم.

وفي لفظ: «**وَيُنْظَرُ فِيهَا لِلرُّوَيْبِضَةِ**».(٢)، ومعنىٰ قوله: «**وُينظَر فيها للرويبضة**»، أي: نظر إكبار وتعظيم.

وهنا لنا وقفة:

إن المرء يجب أن يعلم ويفهم ما يقرأ لينتفع بقراءته، ولنتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، فالله لم يقل حتىٰ تحفظوا ما تقولون! إنما قال لنا: ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، والحكمة في تحريم قربان الصلاة،

---

(١) المستدرك: (٤/ ٥١٢) واللفظ له، سنن ابن ماجه: (٤٠٣٦)، صحيح الجامع: (٣٦٥٠).

(٢) مسند أحمد: (٨٤٥٩). ولفظه: «**قَبْلَ السَّاعَةِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**» قَالَ سُرَيْجٌ: «**وَيُنْظَرُ فِيهَا لِلرُّوَيْبِضَةِ**». يقول محقق مسند أحمد: هكذا في (ظ٣) و«جامع المسانيد والسنن» ٧/ ورقة ٦٨، وهو الصواب، وفي (م) وبقية النسخ: «**وينطق فيها الرويبضة**»، وهو خطأ، إذ لا فائدة حينئذ من ذِكْر الخلاف بين يونس وسريج في سياق المتن.

والإنسان سكران، هو علم الإنسان بما يقول. لأن المخمور فاقد التدبر والخشوع، يخلط في قراءته، ولا يعقلها. فالآية نهت عن تعاطي الصلاة علىٰ هيئة ناقصة تناقض مقصودها.

- فالأصل أن لا يقف الإنسان إلا وهو يعرف أمام من يقف، وماذا يقول؟ ومن يخاطب؟!

- والعجيب أن الآية ذُكِرَ فيها العائقُ بين الإنسان والفهم وهو السُّكْر: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]، وهذا هو السكر الحسيّ، ولكن ثمة سُكْرٌ معنوي جعلَ كثيرًا من المستيقظين يصلي، وهو لا يعلم ما يقول!

إنه سكران بدنياه، فيقف بين يدي ربه لا يعقل شيئًا مما يقول! ولا يفهم شيئًا مما يقرأ!

فينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، وأن يحذر من سكرة الدنيا قبل فوات الأوان، لأن سكرة الموت إذا جاءت فزع الإنسان وندم، ولات حين مندم، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ١٩ - ٢٢].

✍ **وفي كلام دقيق ينصحنا ابن الجوزي فيقول:** من عاين بعين بصيرته تناهي الأمور في بداياتها نال خيرها، ونجا من شرها، ومن لم ير العواقب،

غلب عليه الحس، فعاد عليه بالأسلم ما طلب منه السلامة، وبالنَّصَبِ [١] ما رجا منه الراحة.

وبيان هذا في المستقبل يتبين بذكر الماضي، وهو أنك لا تخلو أن تكون عصيت الله في عمرك، أو أطعته، فأين لذة معصيتك؟! وأين تعب طاعتك؟!

هيهات، رحل كل بما فيه، فليت الذنوب إذا تَخَلَّتْ خَلَّتْ!

- وأزيدك في هذا بيانًا: مثل ساعة الموت، وانظر إلىٰ مرارة الحسرات علىٰ التفريط، ولا أقول: كيف تغلب حلاوة اللذات؟! لأن حلاوة اللذات استحالت حَنْظَلًا [٢]، فبقيت مرارة الأسىٰ بلا مقاوم، أتراك ما علمت أن الأمر بعواقبه؟! فراقب العواقب تسلم، ولا تمل مع هوىٰ الحس فتندم.[٣]

***

(١) النَّصَب: التعب.

(٢) الحنظل: نبات بري من فصيلة القرع ثمرته في حجم البرتقالة ولونها، فيه لب شديد المرارة.

(٣) صيد الخاطر: (ص: ٢٥).

المبحث السابع

تدبر القرآن

❁ القرآن حجة لمن تدبره:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص:٢٩].

إن الله قد حضَّ علىٰ تدبر كتابه، ومعلوم أن تدبر كتاب الله مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كل خير، وتُستخرج كل العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته؛ فإنه يُعرِّف بالرب المعبود وماله من صفات الكمال، وما ينزَّه عنه من صفات النقص، ويُعرِّف الطريق الموصل إليه، وصفة أهلها، ومالهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو علىٰ الحقيقة والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب، وكلما ازداد العبد تأملًا فيه ازداد: علمًا، وعملًا، وبصيرة.(١)

- وقد حضَّ النبي ﷺ علىٰ تدبر القرآن، فما ثبت عن النبي ﷺ من ترغيب في القرآن، وبيان فضائله، وبيان فضائل حافظ القرآن، يستفاد منه

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٧٨٨.

الحث علىٰ تدبر القرآن. وقد جاء تدبر القرآن من فعله ﷺ أيضًا في أحاديث كثيرة منها:

- عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ..... (١)

- وعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: قُمْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَامَ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَمُرُّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ فَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةِ عَذَابٍ إِلَّا وَقَفَ فَتَعَوَّذَ، قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ بِقَدْرِ قِيَامِهِ، يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**.....». (٢)

- وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ، قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**». (٣)، وهذا يدل علىٰ كمال تدبره ﷺ للقرآن حق التدبر.

- وقد تكلم العلماء رحمهم الله تعالىٰ في الحث علىٰ تدبر القرآن العظيم، ومن أبرز من حث علىٰ ذلك من الأئمة ابن القيم رحمه الله في كتبه، فقد

---

(١) صحيح مسلم: (٧٧٢).

(٢) سنن أبي داود (٨٧٣)، واللفظ له، والنسائي: (١٠٤٨)، وصحيح سنن أبي داود: (٨٧١).

(٣) سنن الترمذي: (٣٢٩٧)، صحيح الجامع: (٣٧٢٣).

ذكر ﷺ: أنّ تدبر القرآن مع الخشوع عند قراءته هو المقصود والمطلوب، فبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب.

✍ **قال ابن القيم**: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وسماعه، وألقِ سمعك، واحْضُر حضور من يخاطبه به من تكلم به، منه إليه، فتمام التأثير موقوف علىٰ: مؤثر مقتضٍ، ومحلٍ قابلٍ، وشرطٍ لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، وقد تضمن ذلك كله قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧].

- فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] إشارة إلىٰ ما تقدم من أول السورة إلىٰ ها هنا، وهذا هو المؤثر.

- وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] القلب الحي، وهذا هو المحل القابل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠].

- قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ [ق:٣٧] أي وجّه سمعه وأصغىٰ حاسة سمعه إلىٰ ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام.

- وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧] أي شاهد القلب حاضر غير غائب، واستمع كتاب الله، وشاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساهٍ، وهذا إشارة إلىٰ المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عما يقال له، والنظر فيه، وتأمله.

فإذا حصل المؤثر: وهو القرآن، والمحل القابل: وهو القلب الحي،

ووجد الشرط: وهو الإصغاء، وانتفىٰ المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنىٰ الخطاب وانصرافه عنه إلىٰ شيء آخر حصل الأثر، وهو: الانتفاع، والتذكر.(١)

فلا بد من تدبر القرآن، وتعقّله، والتفكر في معانيه وقد أمر الله بذلك.

❁ والقرآن حجة على من ترك تدبره:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤].

- عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: «لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا».(٢)

- عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَمَّنْ، سَمِعَ، الْحَسَنَ يَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ قَدْ قَرَأَهُ صِبْيَانٌ وَعَبِيدٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ قِبَلِ أَوَّلِهِ»، وَقَالَ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص:٢٩]، وَمَا تَدَبُّرُ آيَاتِهِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ بِعِلْمِهِ، وَاللهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، حَتَّىٰ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: وَاللهِ لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَمَا أُسْقِطُ مِنْهُ حَرْفًا وَاحِدًا وَقَدْ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا تَرَىٰ لَهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ خُلُقٍ وَلَا عَمَلٍ، وَحَتَّىٰ أَنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَقْرَأُ

(١) الفوائد لابن القيم: (ص: ٣).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ٧٧).

السُّورَةَ فِي نَفَسٍ وَاحِدٍ وَاللهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْقُرَّاءِ وَلَا الْعُلَمَاءِ، وَلَا الْحُكَمَاءِ، وَلَا الْوَرَعَةِ، وَمَتَىٰ كَانَ الْقُرَّاءُ يَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا؟ لَا كَثَّرَ اللهُ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ».(١)

- وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ اللَّبَنَ**(٢)»(٣)

- إن هذا الكتاب العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢]، هذا الكتاب لا ينفع قارئه إلا إذا كان يعمل به، ولا يمكن أن يعمل به إلا إذا تدبره.

❁ كيف يحدث التدبر؟

التدبر لا يحدث إلا إذا تمت للقارئ أربع مراحل:

- **الأولىٰ**: معرفة معاني الألفاظ وما يراد بها.

- **الثانية**: تأمل ما تدل عليه الآيات مما يفهم من السياق أو من تركيب الجمل.

- **الثالثة**: اعتبار العقل بحججه وتحرك القلب بزواجره وبشائره.

---

(١) مصنف عبد الرزاق: (٥٩٨٤).

(٢) أَيْ: يسلقونه بألسنتهم من غير تدبُّر لمعانيه، ولا تأمل في أحكامه، بل يمر علىٰ ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة. فيض القدير: (ج٤ص ١٥٦).

(٣) الطبراني: (٨٢١)، صَحِيح الْجَامِع: (٣٦٥٣)، الصَّحِيحَة: (١٨٨٦).

- **الرابعة**: اليقين بأخباره والخضوع لأوامره.

✍ **قال ابن القيم** رحمه الله: فَلَا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر والتفكر فَإِنَّهُ جَامع لجَمِيع منَازِل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشوق وَالْخَوْف والرجاء والإنابة والتوكل وَالرِّضَا والتفويض وَالشُّكْر وَالصَّبْر وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والأفعال المذمومة وَالَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة الْقُرْآن بالتدبر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّىٰ مر بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاج إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه كررها وَلَو مائَة مرّة وَلَو لَيْلَة فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعىٰ الىٰ حُصُول الإيمان وذوق حلاوة الْقُرْآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلىٰ الصباح، وقد ثبت عن النبي أنه قام بآية يرددها حتىٰ الصباح وهي قوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة:١١٨] ـ ثم قال واستمع لما قال: فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب.(١)

❁ قصة:

- عن يزيد بن الكميت يَقُولُ: كَانَ أَبُو حنيفة شديد الخوف من الله، فقرأ بنا عَليّ بن الحُسَيْن المُؤَذِّن ليلة في عشاء الآخرة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

(١) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٨٧).

﴿١﴾﴾ [الزلزلة:١]، وَأَبُو حنيفة خلفه، فَلَمَّا قضىٰ الصَّلاة وخرج النَّاس، نظرت إلىٰ أَبِي حنيفة وَهُوَ جالس يفكر ويتنفس، فَقُلْتُ: أقوم لا يشتغل قلبه بي، فَلَمَّا خرجت تركت القنديل ولم يكن فيه إلا زيت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وَهُوَ قائم قد أخذ بلحية نفسه وَهُوَ يَقُولُ: يا من يجزي بمثقال ذرة خير خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شر شرًا، أجر النُّعْمَان عبدك من النار، وما يقرب منها من السوء، وأدخله في سعة رحمتك، قَالَ: فأذنت، فَإِذَا القنديل يزهر وَهُوَ قائم، فَلَمَّا دخلت، قَالَ لي: تريد أن تأخذ القنديل؟ قَالَ: قُلْتُ: قد أذنت لصلاة الغداة، قَالَ: اكتم عَليّ ما رَأَيْت، وركع ركعتي الفجر، وجلس حَتَّىٰ أقمت الصَّلاة، وصلىٰ معنا الغداة عل وضوء أَوَّل الليل.(١)

أيها القارئ الكريم:

لقد ذم الله الذين لا يتدبرون كلامه، ومثلهم بأقبح الأمثلة وأبشعها، فقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥]. فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه، ولا يعمل به.

أما نبينا فقد جعل من أوصاف الخوارج تلك الفرقة المارقة أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، أي: أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن، وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده.

---

(١) تاريخ بغداد: (١٥/ ٤٨٩).

✍ **وَقَالَ النَّوَوِيّ**: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ حَظٌّ إِلَّا مُرُورُه عَلَىٰ لِسَانهمْ، لَا يَصِل إِلَىٰ حُلُوقهمْ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَصِل إِلَىٰ قُلُوبهمْ، لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ تَعَقُّلُه وَتَدَبُّرُه بِوُقُوعِهِ فِي الْقَلْب.

✍ **قُلْت** (١): وَهُوَ مِثْل قَوْله ﷺ فِيهِمْ أَيْضًا: «**لَا يُجَاوِز إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ**». أَيْ: يَنْطِقُونَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَلَا يَعْرِفُونَهَا بِقُلُوبِهِمْ. (٢)

❁ أمور تعين على تدبر القرآن:

- **أولها**: تعلم اللغة العربية للعرب، ولغير العرب، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، فمن لا يفهم العربية، فإنه غير قادر علىٰ تفهم الكلام العربي.

- **الثاني**: أن لا يكون هدف الإنسان وهمّه هو تكثير الصفحات التي يقرأها، أو زيادة الختمات التي يختمها، بقدر ما يكون له همّ في تدبر ما يقرأ ويفهم.

ألفاظه كعقود الدر ساطعة... وآيه لظلام الجهل أقمار
رقت معانيه إذ دقت لطائفه... فأمعنت فيه ألباب وأفكار
كفىٰ به لأولي الألباب تبصرة أن... أنصفوا وبحكم العقل ما جاروا
به هدىٰ الله أقواما وأيَّدهم... فأصبحوا وعلىٰ المنهاج قد ساروا

- **الثالث**: أن يقرأ القرآن بحضور قلب، فكثير من الناس يقرأ القرآن وهو

---

(١) القائل: شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني.
(٢) فتح الباري: (١٩/ ٣٨٩).

غافل لاه، يقرأ بلسانه، وعقله وفكره وقلبه في واد آخر، وهذا لا ينتفع من القرآن البتة، لكن يثاب علىٰ نيته قصد القراءة والتقرب إلىٰ الله جل وعلا.

- **الرابع**: أن يتعلم تفسير القرآن ولو باختصار شديد، فعلىٰ قارئ القرآن أن يقرأ بعض الآيات، ثم يذهب إلىٰ تفسير القرآن فيتعلم تفسيرها.

- **الخامس**: أن يحاول تذكر آيات القرآن الكريم في دقائق يومه، وأن يربط بين تلك الآيات والتوجيهات القرآنية لما يواجهه، فمثلًا:

حينما ينزغه الشيطان لمعصية، فليتذكر قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

- وإذا أراد القيام بعمل ما فليحاول جهده أن يتذكر الآيات القرآنية الواردة بخصوص هذا العمل، فالمصلي منا لو تذكر عند صلاته قول الله جل وعلا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١- ٢]، وكذا لو تذكر قول الله جل وعلا: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥] لاختلفت صلاته وتأثرت أخلاقه.

- وإذا أصابته مصيبة صبر واحتسب، وتذكر قول الله جل وعلا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

- وهكذا، يعيش الإنسان بالقرآن، ويحيا بالقرآن، ويموت علىٰ القرآن، وعندئذ يكون من أهل القرآن وخاصته، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالَ: قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ، وَخَاصَّتُهُ**».(١) ولنعلم أن الله لا ينصر هذه الأمة حتىٰ تكون أمة قرآنية، تعكف علىٰ كتاب الله قراءة وتدبرًا وعملًا.

***

(١) مسند أحمد: (١٢٢٩٢)، صحيح الجامع: (٢١٦٥).

المبحث الثامن

الإعراض عن القرآن

۞ إن القرآن حجة على من أعرض عنه:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ [طه: ٩٩ - ١٠٠].

✍ **قال الفخر الرازي**: وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه علىٰ الناس، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال- سبحانه-: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف:٤٤].(١)

ثم بين- سبحانه- سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ [طه: ١٠٠- ١٠١].

---

(١) تفسير الفخر الرازي: (٦/ ٧١).

والوزر في الأصل يطلق علىٰ الحمل الثقيل، وعلىٰ الإثم والذنب، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة علىٰ تلك الأثقال والآثام.

✍ **قال صاحب الكشاف**: والمراد بالوزر: العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيها في ثقلها علىٰ المعاقب، وصعوبة احتمالها، بالحمل الذي يفدح الحامل، وينقض ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.(١)

وقد أخبرنا القرآن في كثير من آياته، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم، أي: أثقال ذنوبهم علىٰ ظهورهم، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥].

من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك، يحمل يوم القيامة علىٰ ظهره آثاما كثيرة: تؤدي إلىٰ العقوبة المهينة من الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ ﴾ [طه:١٠١] أي: في العذاب المترتب علىٰ هذا الوزر.

﴿ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [طه:١٠١] أي: وبئس ما حملوا علىٰ أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم.(٢)

---

(١) تفسير الكشاف: (٣/ ٨٦).

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٩/ ١٤٩/ ١٥٠)

❁ أخطار الجفاء عن القرآن:

إن الإعراض عن القرآن يكون بسبب الغفلة أو النسيان أو التكذيب أو الإهمال، ومن فعل هذا فإنه يُعَرِّض نفسه لمخاطرَ جَمَّةً، منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

أولًا: استدعاء عقوبة الغفلة والإعراض عن آيات الله:

قال تعالىٰ: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام:١٥٧].

- والاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٧] للإنكار والنفي. أي: لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته ببيناتها الكاملة، وهداياتها الشاملة.

والفاء لترتيب ما بعدها علىٰ ما قبلها. فإن مجيء القرآن المشتمل علىٰ الهدىٰ والرحمة موجب لغاية أظلمية من يكذبه أي: وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم..؟ ومعنىٰ: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٧] أي: أعرض عنها غير متفكر فيها، أو صرف الناس عنها وصدهم عن سبيلها. فجمع بين الضلال والإضلال.

ثم ختم- سبحانه- الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته بقوله: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام:١٥٧] أي: سنجزيهم أسوأ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم لآياتنا

وإعراضهم عنها.(١)

✍ **ويقول القشيري**: عقوبة كلّ جرم مؤجلة، وعقوبة التكذيب معجلة، وهيٰ ما يوجب بقاءهم في أسر الشك حتىٰ لا يستقر قلبهم علىٰ شيء.(٢)

إن الأمر جد خطير: قال تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ [النجم: ٥٩- ٦٠].

من هنا يتضح لنا أن الاتصال الدائم بالقرآن له أهمية قصوىٰ، كما أن التفكر في القرآن والانتفاع بآياته له أهميته التي لا تخفىٰ علىٰ عاقل، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**».(٣)

ثانيًا: الجفاء عن القرآن دليل على عدم الاهتمام والتوقير للقرآن:

لو أنك قابلت رجلًا ذا جاه ومكانة عظيمة بين الناس، وتعرفت عليه، وطلبت منه زيارتك في منزلك، ثم جاءك في الموعد المحدد فلم يجدك، وانتظرك طويلًا فلم تأت، ثم انصرف، أترىٰ لو قابلته بعد ذلك، وطلبت منه

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٥/ ٢٢٥/ ٢٢٦).
(٢) لطائف الإشارات: (١/ ٥١٢).
(٣) سنن أبي داود: (١٣٩٨)، وصحيح الجامع: (٢١٨٩)، والسلسلة الصحيحة: (٦٤٢).

تكرار الزيارة سيفعل كما فعل من قبل؟!

وتُراه لو كان قد وجدك في المرة الأولىٰ لكنك لم تجلس معه، ولم تُحْسن ضيافته، وانشغلت بأمور بيتك عنه، هل سيكرر تلك الزيارة؟!

هذه المواقف إذا ما حدثت بيننا علىٰ أرض الواقع، فإننا لن نستنكر ولن نتعجب من رد فعل الرجل صاحب المكانة العظيمة علىٰ تجاهلك له، فكيف بالقرآن العظيم، المجيد ذي الشرف، أحسن الحديث، الحكمة البالغة؟!!

ألا تتوقع حين نتجاهل القرآن وهو بيننا أن تنزل علينا العقوبات؟

إن القرآن كتاب عزيز، ذو مكانة بالغة الشرف والعلو، فإن لم يتم الاهتمام بوجوده بالشكل الذي يليق به، فسيتباعد عنا، ويفلت أثره وروحه ونوره من بيننا، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الْإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ**». (١)

ففي الحديث تشبيه بتعاقد القرآن والمداومة علىٰ قراءته والاتصال به، بربط البعير الذي يخشىٰ منه الشرود، فكلما حدث التعاهد للقرآن، حدث الانتفاع به والوصال مع روحه، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ وموجود، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة. (٢)

---

(١) صحيح مسلم: (٧٨٩).

(٢) منهج السلف في العناية بالقرآن: (٤٧). نقلًا عن غربة القرآن: (١٠٠).

ويؤكد هذا المعنىٰ ما ورد عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ مِنَ الْإِبِلِ مِنْ عُقُلِهَا**».(١)

وفي لفظ: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا كِتَابَ اللهِ وَتَعَاهَدُوهُ، وَاقْتَنُوهُ، وَتَغَنَّوْا بِهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْمَخَاضِ فِي الْعُقُلِ**».(٢)

ثالثًا: من أخطار الجفاء عن القرآن: قسوة القلب:

إن الشيطان عدو متربص ببني آدم ولقد حذرنا منه ربنا فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر:٦].

والشيطان يدخل علىٰ الإنسان من بابي الشهوات والشبهات، فإذا استسلم الإنسان لوساوس الشيطان وهوىٰ نفسه، وافتتن بالدنيا، فإن ذلك يعرضه لقسوة قلبه تجاه الله والآخرة، فلا تجده ينتفع بموعظة، ولا تذكرة..

لذلك كان من الأهمية بمكان تعاهد القلب وإمداده بالإيمان بحقائق الوجود حتىٰ يظل حيا نابضًا، وأفضل وسيلة لذلك هي القرآن قال أعزمن قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

قال قتادة في قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]، قال: هو هذا القرآن،

---

(١) مسند أحمد: (١٩٦٨٥).

(٢) سنن الدارمي: (٣٣٩٢).

فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة.(١)

لقد أنزل الله لنا القرآن كدواء يشفينا ويعيننا بأمر الله تعالىٰ علىٰ استمرار حياة القلب وعدم استيلاء الهوىٰ عليه، ومن ثمَّ فينبغي تناول هذا الدواء كل يوم بكمية معتبرة حتىٰ يحقق هدفه بإذن الله، فإن فات المرء ذلك فقد عرَّض نفسه لأخطار جمَّة، ويكفي في بيان هذا الأمر قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد:١٦].

تأمل قوله تعالىٰ: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ ﴾ [الحديد:١٦] أي: طال عليهم الزمن بلا تذكير فنتج عن ذلك قسوة قلوبهم.

ولنتأمل هذا الوصية التي أرسلها أبو موسىٰ الأشعري لقراء البصرة: عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: بَعَثَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ إِلَىٰ قُرَّاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقُرَّاؤُهُمْ، فَاتْلُوهُ، وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.....».(٢)

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمُ، اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمُ، اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ، واسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ**

(١) تفسير الطبري: (١٣/ ٤٦٥).

(٢) صحيح مسلم: (١٠٥٠).

شَهَوَاتِهِمْ، حَتَّىٰ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ...».(١)

رابعًا: من أخطار الجفاء عن القرآن: غياب الأثر:

إن الأثر الذي يحدثه اللقاء الدائم بالقرآن يتعدىٰ الفرد إلىٰ المحيط الذي يتعامل معه، وعندما يجفو المؤمن عن القرآن يضعف هذا الأثر ويغيب، ويؤكد هذا المعنىٰ هذا الحديث: عَنْ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لَا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا».**(٢)

فالطعم يشعر به من يتناوله فقط، أما الريح فيشعر بها من حوله، وهذا يدل علىٰ أن الملتزم بالقرآن غير الجافي عنه، والمتدبر لتلاوته هو الأكثر تأثيرًا في الآخرين.

يقول الإمام ابن حجر: الْحِكْمَةُ فِي تَخْصِيصِ الْأُتْرُجَّةِ بِالتَّمْثِيلِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي تَجْمَعُ طِيبَ الطَّعْمِ وَالرِّيحِ كَالتُّفَّاحَةِ: لِأَنَّهُ يُتَدَاوَىٰ بِقِشْرِهَا، وَهُوَ مُفْرِحٌ بِالْخَاصِّيَّةِ، وَيُسْتَخْرَجُ مِنْ حَبِّهَا دُهْنٌ لَهُ مَنَافِعُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْجِنَّ لَا تَقْرَبُ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الْأُتْرُجَّ! فَنَاسَبَ أَن يمثل بِهِ الْقُرْآن الَّذِي لَا تقر بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَغِلَافُ حَبِّهِ أَبْيَضُ فَيُنَاسِبُ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ.

---

(١) شعب الإيمان: (٧١٨٣)، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: (٦/ ٤٣٧).

(٢) صحيح البخاري: (٧٥٦٠) واللفظ له، صحيح مسلم: (٧٩٧).

✍ وَفِيهَا أَيْضًا مِنَ الْمَزَايَا:

كِبَرُ جُرْمِهَا، وَحُسْنُ مَنْظَرِهَا، وَتَفْرِيحُ لَوْنِهَا، وَلِينُ مَلْمَسِهَا، وَفِي أَكْلِهَا مَعَ الِالْتِذَاذِ طِيبُ نَكْهَةٍ وَدِبَاغُ مَعِدَةٍ وَجَوْدَةِ هَضْمٍ، وَلَهَا مَنَافِعُ أُخْرَىٰ.(١) بينما التمرة مهما كان عندك منها الكثير، فلا يشعر أحد بذلك ممن حولك.

خامسًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: نسيان معاني القرآن:

من الضروري أن يتذكر المسلم بصورة دائمة المعاني التي تعلمها من القرآن في التلاوة أو المدارسة، وهذا لن يتم بدون المداومة علىٰ الاتصال به وتدبر آياته، وإذا جفا عنه فبمرور الوقت سينسىٰ ما تعلمه.

- جاء في الحديث: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بِئْسَمَا لِأَحَدِهِمْ يَقُولُ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَلْ هُوَ نُسِّيَ، اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا**».(٢)

- لذلك نلحظ النهي عن توسد القرآن، ومدح من لا يتوسده، عَنِ السَّائِبِ ابْنِ يَزِيدَ، أَنَّ شُرَيْحًا الْحَضْرَمِيَّ، ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ**».(٣) أي لا ينام عن القرآن.

وسئل أحمد بن صالح عن ذلك فقال: يعني يقوم به الليل ولا ينام.

- وعَنْ أَبِي رَجَاءٍ مُحَمَّدٍ، قَالَ: قُلْتُ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ فِي

(١) فتح الباري لابن حجر: (٩/ ٦٦/ ٦٧).
(٢) صحيح البخاري: (٥٠٣٢)، صحيح مسلم: (٧٩٠)، واللفظ له.
(٣) مسند أحمد: (٢٤/ ٥٠٠) سنن النسائي: (١٧٨٣)، وصححه الألباني.

رَجُلٍ قَدِ اسْتَظْهَرَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ، فَلَا يَقُومُ بِهِ، إِنَّمَا يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ؟ قَالَ: يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ، لَعَنَ اللهُ ذَاكَ؛ قَالَ اللهُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف:٦٨]، ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١]. قُلْتُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ قَالَ اللهُ: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل:٢٠] قَالَ: نَعَمْ، وَلَوْ خَمْسِينَ آيَةً.(١)

سادسًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: الحرمان من الثواب والأجر:

القرآن له مكانة عظيمة عند الله جل شأنه، وله وظيفة متفردة في إحياء القلب وتغيير السلوك، ولقد رتب الله جل شأنه علىٰ قراءته ثوابًا عظيمًا تشجيعًا وتحفيزًا للمسلمين علىٰ مداومة قراءته، وغني عن البيان أن المقصود بقراءته، تفهمه وتدبر معانيه واتباع توجيهاته.

وكما هو معلوم بأن كلمة (اقرأ) في كل لغات العالم تعني: اقرأ وافهم، فلا توجد كتب تُقرأ بلا فهم، وكتب أخرىٰ تُقرأ بفهم، فينبغي أن يتبادر للذهن عند سماع كلمة(اقرأ) بأن المقصود هو القراءة بفهم، ولئن كان هذا أمرًا بدهيًا عند الجميع، فإننا بحاجة إلىٰ تأكيده دومًا فيما يخص قراءة القرآن، حتىٰ لا يُصبح متفردًا بكونه الكتاب الوحيد في العالم الذي يُقرأ بلا فهم، تحت دعوىٰ البحث عن الأجر والثواب المترتب علىٰ قراءته، والتي وردت به أحاديث متعددة.

ونحن هنا نتحدث عن الأخطار التي يواجهها من ترك القراءة الصحيحة للقرآن، والتي تتضمن الحرمان من الثواب المُترتب عليها.

---

(١) تفسير الطبري: (٢٣/ ٣٩٦).

وهذا خطر عظيم، فالمسلم دومًا بحاجة إلىٰ استمطار رحمة الله ومغفرته من خلال القيام بالأعمال التي ندبه إليها، والتي من شأنها أن تثقل موازينه يوم القيامة بإذن الله.

وعندما يجفو المسلم القرآن فإنه يحرم نفسه من ثواب عظيم كان في متناول يده بإذن الله، فالحرف بعشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء.(١)

- عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ**».(٢)

سابعًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: الحرمان من البركة والخير:

إن البركة تعني النماء، والأحاديث وردت تؤكد أن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن بصفة عامة، وسورة البقرة بصفة خاصة، يكثر خيره وبركته، وتحضره الملائكة، وتفرُّ منه الشياطين، وفي المقابل فمن جفا عن القرآن فقد عرَّض نفسه للحرمان من هذا الخير، يقول الرسول اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**». قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ

(١) غربة القرآن: (١٠٣).

(٢) سنن الترمذي: (٢٩١٠)، صحيح الجامع: (٢٢٠٢).

الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ.(١)

- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا**».(٢)

- وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْبَيْتُ إِذَا قُرِئَ فِيهِ الْقُرْآنُ حَضَرَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَنكَّبَتْ عَنْهُ الشَّيَاطِينُ وَاتَّسَعَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَقَلَّ شَرُّهُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ إِذَا لَمْ يُقْرَأْ فِيهِ الْقُرْآنُ حَضَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَتَنكَّبَتْ عَنْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَضَاقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَقَلَّ خَيْرُهُ، وَكَثُرَ شَرُّهُ**».(٣)

- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ يَكْثُرُ خَيْرُهُ، وَيُوَسَّعُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ يُضَيَّقُ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَقِلُّ خَيْرُهُ، وَيَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَيَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، وَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُثَوَّرُ فِيهِ يُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا يُضِيءُ النَّجْمُ الْأَرْضَ**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ بِنُورٍ مِنَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قَالَ مَعْمَرٌ: وَسَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَقُولُ: **إِنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْبَيْتَ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُصَلَّىٰ فِيهِ كَمَا يَتَرَاءَىٰ أَهْلُ الدُّنْيَا الْكَوْكَبَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ**.(٤)

---

(١) صحيح مسلم: (٨٠٤).

(٢) صحيح مسلم: (٧٧٧).

(٣) مختصر قيام الليل: (ص: ١٧٢).

(٤) مصنف عبد الرزاق الصنعاني: (٣/ ٣٦٩).

فأي خسارة نخسرها وتخسرها بيوتنا بالجفاء عن القرآن؟!.(١)

فلنتنبه ولنتذكر قول ابْنِ عَبَّاسٍ: «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا رَجَعَ مِنْ سُوقِهِ أَوْ مِنْ حَاجَتِهِ فَاتَّكَأَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ أَنْ يَقْرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ».(٢)

ثامنًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: أخطار ما بعد الموت:

إن أخطار الجفاء عن القرآن لا تقتصر علىٰ الحياة الدنيا فقط، بل تمتد إلىٰ الحياة البرزخية واليوم الآخر كذلك، عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟**» قَالَ: فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: «**مَا شَاءَ اللهُ**» فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ: «**هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟**» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي..... قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَىٰ قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِهِ بِفِهْرٍ - أَوْ صَخْرَةٍ - فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ...**

إلىٰ أن قال: **وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ.**(٣)

***

(١) غربة القرآن: (١٠٤/ ١٠٥).

(٢) سنن الدارمي: (٣٣٧٩)، والطبراني: (١٢١١٩) والبيهقي: (٢٠٠٣، ٢١٩٨)، ورجاله ثقات.

(٣) صحيح البخاري: (١٣٨٦).

المبحث التاسع

الإنصات عند سماع القرآن

۞ والقرآن حجة لمن قُرِئ عليه القرآنُ فأنصت له :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

أَشار الله تعالىٰ إلىٰ القرآن وثمراته في نفع العباد بقوله في الآية السابقة: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]. وفي ذكر هذه الفوائد حمل للناس علىٰ أَن يقرأوا القرآن ليتعبدوا بتلاوته، وليتبصروا في آياته، حتىٰ يكون لهم هدىٰ ورحمة.

وأَشار في هذه الآية إِلىٰ ما ينبغي إِذا قرئ القرآن من الاستماع والإِنصات إِليه توصلا إِلىٰ الانتفاع به.

أَي وإِذا قرئ القرآن من أَي قارئ، فيجب علىٰ من حضر مجلس القرآن، أَن يحسن الاستماع إليه بوعي وقصد وتدبر، وأَن ينصت فلا يتكلم احتراما لكلامه العزيز، وتعظيما له، راجين بحسن الاستماع والإِنصات إِليه رحمة الله.

وإِنما جمع بين الاستماع والإِنصات، لأنهما معا أَعون علىٰ الفهم

والتدبر وأَتمُّ في الانتفاع وأَرجىٰ لرحمة الله سبحانه وتعالىٰ، فضلا عما فيه من الأَدب مع الله واحترام كلامه جلّ شأْنه؛ والأمر بالاستماع والإِنصات عند قراءة القرآن عام في جميع الأَحوال التي يقرأ فيها القرآن.(١)

❁ والقرآن حجة على من قُرِئ عليه ولم ينصت له :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان:٧].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية:٨]، فيجب أن ننتبه لآيات الله وهىٰ تتلىٰ علينا لا سيما وأن الله توعد من استكبر عن آياته فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٠- ٤١]

- وقال تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث: (٣/ ١٥٧٥).

إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف:٥٧].

- وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦]. إلىٰ غير ذلك من الآيات.

- ومما يَلفِتُ النظر أن سورة المؤمنون[1] احتوت علىٰ آيتين كريمتين تؤكدان علىٰ ضرورة الاهتمام بالقرآن وآيات الله سبحانه وتعالىٰ، وجاء سياق الآيتين في معرض الحديث عن الحساب والعتاب واللوم والتأنيب فناسب التنبيه عليهما:

الآية الأولىٰ: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٦].

الآيـــة الثانيـــة: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المؤمنون:١٠٥].[2]

***

(١) هي في موضع الإضافة، لكني أبقيتها علىٰ حركة الحكاية.

(٢) نقلًا عن كتابي: فتح المنان في بيان تناسب ومقاصد سور القرآن: (٤٠٢-٤٠٤) بتصرف واختصار.

المبحث العاشر

العمل بالقرآن

❁ والقرآن حجة لمن عمل به:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء:٧٩].

قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء:٧٩] إرشاد إلىٰ عبادة أخرىٰ من العبادات التي تطهر القلب، وتسمو بالنفس إلىٰ مراقي الفلاح، وتعينها علىٰ التغلب علىٰ الهموم والآلام.

والجار والمجرور ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ [الإسراء:٧٩] متعلق بقوله ﴿ فَتَهَجَّدۡ ﴾ [الإسراء:٧٩] أي. تهجد بالقرآن بعض الليل. أو متعلق بمحذوف تقديره: وقم قومة من الليل فتهجد، ومِنَ للتبعيض.(١)

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ١٠٩ ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٨/ ٤١٠).

أي: قل أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الجاهلين. الذين طلبوا منك ما هو خارج عن رسالتك، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين: قل لهم: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، لأن إيمانكم به، لا يزيده كمالًا، وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئًا، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن، وميزوا بين الحق والباطل، كانوا إذا تُلِي عليهم هذا القرآن، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧] أي: يسقطون علىٰ وجوههم ساجدين لله- تعالىٰ- شكرا له علىٰ إنجاز وعده، بإرسالك- أيها الرسول الكريم- وبإنزال القرآن عليك، كما وعد بذلك- سبحانه- في كتبه السابقة.

فالجملة الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [الإسراء:١٠٧].. تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين الجاهلين، والضمير في قوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ يعود إلىٰ القرآن الكريم.

وقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء:١٠٧] يدل علىٰ قوة إيمانهم، وعلىٰ سرعة تأثرهم بهذا القرآن، فهم بمجرد تلاوته عليهم، يسقطون علىٰ وجوههم ساجدين لله تعالىٰ.(١)

وخصت الأذقان بالذكر، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من الأرض عند السجود، ولأن ذلك يدل علىٰ نهاية خضوعهم لله- تعالىٰ- وتأثرهم بسماع القرآن الكريم.

---

(١) وهذا هو العمل الناتج عن التأثر.

ثم حكىٰ- سبحانه- ما يقولونه في سجودهم فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء:١٠٨].

أي: ويقولون في سجودهم، ننزه ربنا ﷻ عن كل ما يقوله الجاهلون بشأنه، إنه- تعالىٰ- كان وعده منجزا ومحققا لا شك في ذلك.

ثم كرر- سبحانه- مدحه لهم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩] أي سماع القرآن خُشُوعًا وخضوعًا لله ﷻ(١).

- وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**».(٢)

ولنتأمل قول الرسول ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ**».

فأهل القرآن هم الذين يعملون به، وهجر العمل بالقرآن خطر عظيم، لأن الله لم ينزل القرآن إلا ليقيم به الأمة، وليحيي به القلوب والعقول والضمائر والأخلاق.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (٨/ ٤٥٠).

(٢) صحيح مسلم: (٨٠٥).

والحديث السابق يؤكد ارتباط العمل بالقرآن لنيل الدرجات العلىٰ، فهذا القرآن ما أنزله الله ﷻ إلا لنقيمه ونمتثل أوامره ونجتنب نواهيه ونقف عند حدوده، ونحن في غاية الحب لله والرضا عنه، قال جل في علاه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

- فالإيمان الحقيقي بالقرآن أن يطبقه كل فرد علىٰ نفسه وعلىٰ بيته، وهذا واجب كل مسلم ومسلمة، فهذا القرآن لم ينزله الله سبحانه وتعالىٰ للاستمتاع السالب، أو للثقافة الذهنية الباردة الباهتة، وإنما لنحوله في حياتنا إلىٰ واقع عملي ومنهج حياة يتألق في دنيا الناس سموًا وروعة وعظمة وجلالًا، وحركة وعملًا وبناءً.

❁ والقرآن حجة على من ترك العمل به:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]

✍ **قال صاحب المنار**: هذا مثل ضربه الله- تعالىٰ للمكذبين بآيات الله المنزلة علىٰ رسوله محمد ﷺ وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها حافظا لقواعدها وأحكامها قادرًا علىٰ بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت

العمل مع العلم، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعلمه فسلب هذه الآيات، لأن العلم الذي لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية التي تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه علىٰ الأرض، أو كان في التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه، والثعبان يتجرد من جلده حتىٰ لا تبقىٰ له به صلة علىٰ حد قول الشاعر:

خلقوا، وما خلقوا لمكرمة... فكأنهم خلقوا وما خلقوا

رزقوا، وما رزقوا سماح يد... فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنىٰ المثل: أن المكذبين بآيات الله المنزلة علىٰ رسوله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذي حرم ثمرة الانتفاع من علمه، لأن كلا منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص».(١)

✍ **وقال ابن القيم**: فَشَبَّهَ سُبْحَانَهُ مَنْ آتَاهُ كِتَابَهُ وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ الَّذِي مَنَعَهُ غَيْرُهُ، فتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَآثَرَ سَخَطَ اللهِ عَلَىٰ رِضَاهُ، وَدُنْيَاهُ عَلَىٰ آخِرَتِهِ، وَالْمَخْلُوقَ عَلَىٰ الْخَالِقِ؛ بِالْكَلْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَخْبَثِ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَوْضَعِهَا قَدْرًا، وَأَخَسِّهَا نَفْسًا، وَهِمَّتُهُ لَا تَتَعَدَّىٰ بَطْنُهُ، وَأَشَدُّهَا شَرُّهَا وَحِرْصًا، وَمِنْ حِرْصِهِ أَنَّهُ لَا يَمْشِي إِلَّا وَخَطْمُهُ فِي الْأَرْضِ يَتَشَمَّمُ وَيَسْتَرْوِحُ حِرْصًا وَشَرَهًا، وَلَا يَزَالُ يَشُمُّ دُبُرَهُ دُونَ سَائِرِ أَجْزَائِهِ، وَإِذَا رَمَيْت إِلَيْهِ بِحَجَرٍ رَجَعَ إِلَيْهِ لِيَعَضَّهُ مِنْ فَرَطِ نَهْمَتِهِ، وَهُوَ مِنْ أَمْهَنِ الْحَيَوَانَاتِ، وَأَحْمَلِهَا لِلْهَوَانِ، وَأَرْضَاهَا بِالدَّنَايَا، وَالْجِيَفُ الْقَذِرَةُ الْمُرَوِّحَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ اللَّحْمِ الطَّرِيِّ،

(١) تفسير المنار: (٩/ ٤٠٥).

وَالْعُذْرَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ الْحَلْوَى، وَإِذَا ظَفِرَ بِمَيْتَةٍ تَكْفِي مِائَةَ كَلْبٍ لَمْ يَدَعْ كَلْبًا وَاحِدًا يَتَنَاوَلُ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا هَرَّ عَلَيْهِ وَقَهَرَهُ لِحِرْصِهِ وَبُخْلِهِ وَشَرَهِهِ، وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ وَحِرْصِهِ أَنَّهُ إِذَا رَأَى ذَا هَيْئَةٍ رَثَّةٍ وَثِيَابٍ دَنِيَّةٍ وَحَالٍ زَرِيَّةٍ نَبَحَهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ يَتَصَوَّرُ مُشَارَكَتَهُ لَهُ وَمُنَازَعَتَهُ فِي قَوْلَتِهِ، وَإِذَا رَأَى ذَا هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ وَثِيَابٍ جَمِيلَةٍ وَرِيَاسَةٍ وَضَعَ لَهُ خَطْمَهُ بِالْأَرْضِ، وَخَضَعَ لَهُ، وَلَمْ يَرْفَعْ إِلَيْهِ رَأْسَهُ. (١)

❁ دليل آخر على أن القرآن حجة على من ترك العمل به :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾ [الجمعة:٥].

✍ **يقول الإمام ابن كثير**: يقول تعالىٰ ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة فلم يعملوا بها: إن مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.. فهو يحملها حملا حسيا ولا يدرىٰ ما عليه، وكذلك هؤلاء. لم يعملوا بمقتضىٰ ما في التوراة بل أولوه وحرفوه، فهم أسوأ من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال- تعالىٰ-: في آية أخرىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩]. (٢)

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ١٢٧/ ١٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير: (٨/ ١٤٣).

✍ **وقال القرطبي**: وفي هذا المثل تنبيه من الله- تعالىٰ- لمن حمل الكتاب، أن يتعلم معانيه، ويعمل بما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود، قال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم... بجيّدها، إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرىٰ البعير إذا غدا... بأوساقه، أو راح ما في الغرائر (١)

وعبر- سبحانه- عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله: ﴿ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة:٥] للإشعار بأن هذا التكليف منه - تعالىٰ- لهم، كان عهدا مؤكدا عليهم، حتىٰ لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه. ولكنهم نبذوا هذا العهد، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمىٰ لقائده..

ولفظ «ثم» في قوله ﴿ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة:٥] للتراخي النسبي، لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود.

وشبههم، بالحمار الذي هو مثل في البلادة والغباء، لزيادة التشنيع عليهم، والتقبيح لحالهم، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شيء نافع، - وهو كتاب الله- كما هو شأن الحمار الذي لا يفرق فيما يحمله علىٰ ظهره بين الشيء النافع والشيء الضار.

وجملة ﴿ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة:٥] في موضع الحال من الحمار، أو في

(١) تفسير القرطبي: (١٨/ ٩٤).

موضع جر علىٰ أنها صفة للحمار، باعتبار أن المقصود به الجنس، فهو معرفة لفظًا، نكرة معنىٰ.

✍ **قال صاحب الكشاف**: فإن قلت: «يحمل» ما محله؟ قلت: محله النصب علىٰ الحال، أو الجر علىٰ الوصف، لأن لفظ الحمار هنا، كلفظ اللئيم في قول الشاعر:

ولقد أمر علىٰ اللئيم يسبني... .... (١)

ثم أضاف- سبحانه- إلىٰ ذم هؤلاء اليهود ذمًّا آخر فقال: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الجمعة:٥]....

وبِئْسَ فعل ذم، وفاعله ما بعده وهو قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الجمعة:٥] وقد أغنىٰ هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم- سبحانه- بأنهم قد كذبوا بآياته.

أي: بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله- تعالىٰ- الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته، وعلىٰ صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه- تعالىٰ-.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة:٥] تذييل قصد به بيان الأسباب التي أدت إلىٰ عدم توفيق الله- تعالىٰ- لهم إلىٰ الهداية.

أي: والله- تعالىٰ- قد اقتضت حكمته، أن لا يهدي إلىٰ طريق الخير، من ظلم نفسه، بأن آثر الغي علىٰ الرشد، والعمىٰ علىٰ الهدىٰ، والشقاوة علىٰ

---

(١) راجع تفسير الكشاف: (٤/ ٥٣٠).

السعادة، لسوء استعداده، وانطماس بصيرته.(١)

✍ **وقال ابن القيم**: فَقَاسَ مَنْ حَمَّلَهُ سُبْحَانَهُ كِتَابَهُ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَيَتَدَبَّرَهُ وَيَعْمَلَ بِهِ وَيَدْعُوَ إِلَيْهِ ثُمَّ خَالَفَ ذَلِكَ وَلَمْ يَحْمِلْهُ إِلَّا عَلَىٰ ظَهْرِ قَلْبٍ، فَقِرَاءَتُهُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَهُّمٍ وَلَا اتِّبَاعٍ وَلَا تَحْكِيمٍ لَهُ وَعَمَلٍ بِمُوجِبِهِ، كَحِمَارٍ عَلَىٰ ظَهْرِهِ زَامِلَةُ أَسْفَارٍ لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، وَحَظُّهُ مِنْهَا حَمْلُهَا عَلَىٰ ظَهْرِهِ لَيْسَ إِلَّا؛ فَحَظُّهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ كَحَظِّ هَذَا الْحِمَارِ مِنْ الْكُتُبِ الَّتِي عَلَىٰ ظَهْرِهِ؛ فَهَذَا الْمَثَلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضُرِبَ لِلْيَهُودِ فَهُوَ مُتَنَاوِلٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَىٰ لِمَنْ حَمَلَ الْقُرْآنَ فَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ، وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ، وَلَمْ يَرْعَهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ.(٢)

– ولقد وردت أحاديث فيها من الوعيد ما يملأ القلب خوفًا ورعبًا، إذا جمع الإنسان ألفاظ القرآن ولم يعمل بها ومنها:

– عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟**» قَالَ: فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: «**مَا شَاءَ اللهُ**» فَسَأَلَنَا يَوْمًا فَقَالَ: «**هَلْ رَأَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟**» قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي..... قَالَا: انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَىٰ قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَىٰ رَأْسِهِ بِفِهْرٍ – أَوْ صَخْرَةٍ – فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلَا يَرْجِعُ إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ يَلْتَئِمَ رَأْسُهُ وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ، فَضَرَبَهُ، قُلْتُ:**

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي: (١٤/ ٣٨١/ ٣٨٢).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين: (١/ ١٢٧).

مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ...

إلىٰ أن قال: **وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ»**.(١)

- وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَظْهَرُ الْإِسْلَامُ حَتَّىٰ يَخْتَلِفَ التُّجَّارُ فِي الْبَحْرِ، وحَتَّىٰ تَخُوضَ الْخَيْلُ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، يَقُولُونَ: مَنْ أَقْرَأُ مِنَّا؟ مَنْ أَفْقَهُ مِنَّا؟ مَنْ أَعْلَمُ مِنَّا؟**» ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «**هَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**أُولَئِكَ مِنْكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودِ النَّارِ**».(٢)

✍ **ولقد أوضح الشعبي** معنىٰ ترك القرآن خلف الظهر، فقال في قوله

---

(١) صحيح البخاري: (١٣٨٦).

(٢) المعجم الأوسط (٦/ ٢٢١)، مسند الفاروق: (٣/ ٧٣)، وللحديث شاهد من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: أخرجه ابن المبارك في «الزهد والرقائق» (٤٥٠) وأبو بكر ابن أبي شيبة في «مسنده»، كما في «المطالب العالية»: (٣٠٦٦)، والبزار: (١٣٢٣) وأبو يعلىٰ: (٦٦٩٨) وابن مَردويه في «تفسيره»، كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٠) من طريق موسىٰ بن عُبيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن ابن الهاد، عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَيَظْهَرنَّ الدينُ حتىٰ يجاوزَ البحرَ، وحتىٰ تُخاضَ البحارُ بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي قومٌ يقرؤونَ القرآنَ، يقولون: مَن أقرأ منَّا، من أعلم منَّا؟!**» ثم التَفَتَ رسولُ الله ﷺ، فقال: «**هل في أولئك من خيرٍ؟**» قالوا: لا. قال: «**أولئك من هذه الأمة، أولئك وَقودُ النارِ**». وبمجموع هذين الطريقين حسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٦٦) و «السلسلة الصحيحة» (٣٢٣٠).

تعالىٰ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران:١٨٧]: «أَمَا إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا الْعَمَلَ بِهِ فَجَعَلَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ نَابِذِينَ لَهُ».(١)

***

(١) تعظيم قدر الصلاة: (٦١٦)، الإيمان للقاسم بن سلام: (ص: ٤٢).

المبحث الحادي عشر

تعلم القرآن وتعليمه

❁ والقرآن حجة لمن تعلمه وعلَّمه للناس:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران:٧٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء:١٠٦].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:١٦٤]

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

- وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، عَنْ عُثْمَانَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».(١)

- وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتَعَلُّمِ الْقُرْآنِ، وَحَثَّنَا عَلَيْهِ وَقَالَ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ يَأْتِي أَهْلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ لِلْمُسْلِمِ: أَتَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ؟ أَنَا الَّذِي كُنْتَ تُحِبُّ، وَتَكْرَهُ أَنْ يُفَارِقَكَ الَّذِي كَانَ يَسْحَبُكَ وَيُدْنِيكَ، فَيَقُولُ: لَعَلَكَ الْقُرْآنُ، فَيُقْدَمُ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ ﷻ، فَيُعْطَىٰ الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَىٰ رَأْسِهِ السَّكِينَةُ، وَيُنْشَرُ عَلَىٰ أَبَوَيْهِ خَلَّتَانِ لَا يَقُومُ لَهُمْا الدُّنْيَا أَضْعَافًا، فَيَقُولَانِ لِأَيِّ شَيْءٍ كُسِينَا هَذِهِ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ أَعْمَالُنَا؟ فَيَقُولُ: هَذَا بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ**».(٢)

ولنتأمل هذا الحوار: «أَنَا الَّذِي كُنْتَ تُحِبُّ، وَتَكْرَهُ أَنْ يُفَارِقَكَ الَّذِي كَانَ يَسْحَبُكَ وَيُدْنِيكَ، فَيَقُولُ: لَعَلَكَ الْقُرْآنُ».

فالقرآن يقول: «أَنَا الَّذِي كُنْتَ تُحِبُّ، وَتَكْرَهُ أَنْ يُفَارِقَكَ» فالحب كان صادقا فعاد علىٰ صاحبه بالنفع، ومعنىٰ ذلك أنه لم يقدم شيئًا علىٰ كتاب الله، فكان مصاحبًا له لا يفارقه ولا يسمع غيره ولا يطرب إلا به، والعجب ممن يطرب لسماع غير القرآن، ثم إذا سمع القرآن كان ثقيلًا علىٰ أذنه، وإذا قرأ

---

(١) صحيح البخاري: (٥٠٢٧).

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن ص١٠٤-١٠٥ رقم٩٢»، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير ٨/ ٢٩١-٢٩٢ رقم٨١١٩»، وأخرجه أبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن وتلاوته ص١٥١-١٥٢ رقم١٢٢»، وذكره المتقي في «كنز العمال ١/ ٥٥٢-٥٥٣ رقم٢٤٧٦» وعزاه الطبراني وابن الضريس.

كان أثقل علىٰ لسانه.

وقال أيضًا: «الَّذِي كَانَ يَسْحَبُكَ وَيُدْنِيكَ».

ولو تأملنا هذه الكلمات يمكن أن نقول: يسحبك من ماذا؟ ويدنيك إلىٰ ماذا؟

فنقول: يسحبك من الدنيا، ويدنيك من الآخرة.

يسحبك من الفراش.(١) بجوار الزوجة، ويدنيك من طلب جنات النعيم

(١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يَسْتَنِيرُ اللهُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَتَرَكَ فِرَاشَهُ وَدِفَاءَهُ، ثُمَّ قَامَ يَتَوَضَّأُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَيَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: مَا حَمَلَ عَبْدِي عَلَىٰ هَذَا أَوْ عَلَىٰ مَا صَنَعَ؟ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي، فَيَقُولُونَ: خَوَّفْتَهُ شَيْئًا فَخَافَهُ، وَرَجَّيْتَهُ شَيْئًا فَرَجَاهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ، وَأَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ، فَلَقِيَ الْعَدُوَّ فَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ، وَثَبَتَ حَتَّىٰ قُتِلَ أَوْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَيَقُولُ اللهُ لِلْمَلَائِكَةِ: مَا حَمَلَ عَبْدِي عَلَىٰ هَذَا، أَوْ عَلَىٰ مَا صَنَعَ؟ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِهِ، وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي، فَيَقُولُونَ: خَوَّفْتَهُ شَيْئًا فَخَافَهُ، وَرَجَّيْتَهُ شَيْئًا فَرَجَاهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ أَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ، وَأَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا، وَرَجُلٌ أَسْرَىٰ لَيْلَةً حَتَّىٰ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ اللَّيْلِ نَزَلَ... فَنَامَ أَصْحَابُهُ، فَقَامَ هُوَ يُصَلِّي، قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِلْمَلَائِكَةِ: مَا حَمَلَ عَبْدِي عَلَىٰ هَذَا، أَوْ عَلَىٰ مَا صَنَعَ؟ فَيَقُولُونَ: رَبِّ أَنْتَ أَعْلَمُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ وَلَكِنْ أَخْبِرُونِي، قَالَ: فَيَقُولُونَ: خَوَّفْتَهُ شَيْئًا فَخَافَهُ، وَرَجَّيْتَهُ شَيْئًا فَرَجَاهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي أَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ وَأَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا». جامع معمر بن راشد (١١/ ١٨٥).

وفي لفظ: «أَلَا إِنَّ اللهَ ﷻ يَضْحَكُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ رَجُلٍ قَامَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ وَدِثَارِهِ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَىٰ صَلَاةٍ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِمَلَائِكَتِهِ: مَا حَمَلَ عَبْدِي =

وخِطبة الحور العين.

يسحبك من الغفلة، ويدنيك من ربك.

يسحبك إلىٰ فعل المعروف، ويدنيك من ساحة الرضا والبر.

وغير ذلك مما يمكن أن تتحمله هذه الجملة: «الَّذِي كَانَ يَسْحَبُكَ وَيُدْنِيكَ».

❁ والقرآن حجة على من لم يعلمه الناس:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

وانطلاقًا من قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة:١٥٩]. (١)

=

هَذَا عَلَىٰ مَا صَنَعَ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا خَافَ.....». المعجم الكبير للطبراني: (٩/ ١٠١).

(١) ولقد بيَّن ربنا أن الذين رجعوا إلىٰ الله نادمين علىٰ كتمان تلك الآيات الواضحات، وأصلحوا أعمالهم الظاهرة والباطنة، وبيَّنوا ما كتموه من الحق والهدىٰ، فأولئك يقبل رجوعهم إلىٰ طاعته، ويتوب عليهم إنه هو التواب علىٰ من تاب من العباد، =

أقول: لو أردنا وضع عنوان لهذه الآية فهو: النهي عن كتمان العلم.

- وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤] فهذا ميثاق أخذه الله علىٰ أهل العلم يتضمن تحريم الكتمان والتحريف، وفي آيات أخرىٰ تصريح إيجابي وأمر واضح في الحث علىٰ بيان العلم ونشره، وإن لم يذكر الوعيد، مثل: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

۞ حكم تبليغ العلم:

✍ قال القرطبيُّ رحمه الله استدلّ العلماء علىٰ وجوب تبليغ العلم الحقّ بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩]، وتحقيق الآية هو أنّ العالم إذا قصد كتمان العلم عصىٰ، وإذا لم يقصده لم يلزمه التّبليغ إذا عرف أنّه مع غيره، وأمّا من سئل فقد وجب عليه التّبليغ لهذه

=

الرحيم بهم. قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٠].

الآية، ولقوله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

أمّا ما يتعلّق ب «غير البيّنات والهدىٰ» فإنّه يجوز كتمه وعدم تبليغه، لا سيّما إن كان مع ذلك خوف، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين قال: «حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ».(٢)

✍ **قال البخاريّ**: وهذا الّذي لم يبثّه أبو هريرة وخاف علىٰ نفسه فيه الفتنة أو القتل إنّما هو ممّا يتعلّق بأمر الفتن والنّصّ علىٰ أعيان المرتدّين والمنافقين، ونحو هذا ممّا لا يتعلّق بالبيّنات والهدىٰ».(٣)

✍ **وهذه الآية تعلمنا أمورًا عديدة منها:**

* **عَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّها** وإن كانت نازلة في أحبار اليهود ورهبان النصارىٰ الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد كتم اليهود أمر رجم الزناة المحصنين، ليست خاصة بهم، وإنما العبرة بعموم اللفظ، والمراد كل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات علىٰ الحق المظهرات له.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** كتم العلم من كبائر الذنوب؛ وهذا يؤخذ من

(١) تفسير القرطبي (١/ ١٨٥)، والحديث في سنن ابن ماجة، المقدمة (٩٨)، رقم الحديث (٢٦٦).
(٢) انظر الحديث في الفتح (١/ ٢٦١).
(٣) تفسير القرطبي: (١/ ١٨٦).

ترتيب اللعنة علىٰ فاعله؛ والذي يرتب عليه اللعنة لا شك أنه من كبائر الذنوب.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّه** لا يجوز للعالم بحال أن يقصد إلىٰ كتمان العلم النافع قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب:٣٩]، ومن قصد ذلك فهو عاص آثم، وإذا لم يقصد إلىٰ الكتمان وكان في الناس من يقوم بواجب البيان والتبليغ والدعوة، فقد رفع عنه الإثم، فإن البيان فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، وهذا إذا كان عدد المبلغين والدعاة من الكفاية بحيث تكون منهم «أمة» أي جماعة وقوة، كما أمر الله تعالىٰ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّه** كما يحرم علىٰ الإنسان أن يقول ما لا يعلم في دين الله، فإنه يحرم عليه أن يكتم ما يعلم مما ينفع الله به الناس من البينات والهدىٰ، فإن زكاة العلم نشره وبثه، لا كنزه وحبسه.(١)

---

(١) ذكر بعضهم أن الآية تدل علىٰ عدم جواز أخذ الأجر علىٰ التعليم، لأنّها تدل علىٰ لزوم إظهار العلم وترك كتمانه، ولا يستحق إنسان أجرا علىٰ عمل يلزمه أداؤه، كما صرحت آية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة:١٧٤] فدل ذلك علىٰ بطلان أخذ الأجر علىٰ تعليم القرآن وعلوم الدين.
لكن أفتىٰ المتأخرون بجواز أخذ الأجور علىٰ تعليم العلوم الدينية، لتهاون الناس بها، وانصرافهم إلىٰ الاشتغال بمتاع الحياة الدنيا، حتىٰ لا تضيع العلوم، ولانقطاع =

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** كتم العلم عظيم، حيث كان من الكبائر؛ وكتم العلم يتحقق عند الحاجة إلىٰ بيانه إما بلسان الحال؛ وإما بلسان المقال؛ فإن من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار إلا أن يكون السائل متعنتًا، أو يريد الإيقاع بالمسؤول، أو ضرب آراء العلماء بعضها ببعض، أو يترتب علىٰ إجابته مفسدة، فلا يجاب حينئذ؛ وليس هذا من كتم العلم؛ بل هو من مراعاة المصالح، ودرء المفاسد.(١)

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** قوله تعالىٰ: ﴿يَكْتُمُونَ﴾ فيه رد علىٰ الرد الجبرية؛ لأن الكاتم مريد للكتم.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** ما أنزل الله من الوحي فهو بيِّن لا غموض فيه؛ وهدًىٰ لا ضلالة فيه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة:١٥٩]؛ **والبيان ينقسم إلىٰ قسمين:** بيان مفصل؛ وبيان مجمل؛ فالمجمل هي القواعد العامة في الشريعة؛ والمفصل هو أن يبين الله سبحانه وتعالىٰ قضية معينة مفصلة مثل آيات الفرائض في الأحكام؛

=

مخصصات العلماء من بيت مال المسلمين، واضطرار العلماء إلىٰ التزود بما يعينهم علىٰ شؤون الحياة. انظر: التفسير المنير: (٢/ ٥٥).

(١) مسألة: دفع الفتوىٰ ــ وهو أن يحوِّل المستفتي إلىٰ غيره، فيقول: اسأل فلانًا، أو اسأل العلماء - اختلف فيها أهل العلم: هل يجوز، أو لا يجوز؟ والصحيح أنه لا يجوز؛ إلا عند الاشتباه فيجب؛ أما إذا كان الأمر واضحًا فإنه لا يجوز؛ لأنه يضيع الناس لا سيما إذا كان الإنسان يرىٰ أنه إذا دفعها استُفتي أناس جهال يضلون الناس؛ فإنه هنا تتعين عليه الفتوىٰ؛ ويستعين الله ﷻ، ويسأل الله الصواب والتوفيق.

فإنها مفصلة مبيّنة لا يشذ عنها إلا مسائل قليلة؛ وهناك آيات مجملة عامة مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]: فهو بيان عام؛ وكذلك بعض القصص يذكرها الله سبحانه وتعالىٰ مفصلة، وأحيانًا مجملة؛ وكل هذا يعتبر بيانًا.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** فضل الله ﷻ علىٰ عباده واضح بين بما أنزله من البينات، والهدىٰ؛ لأن الناس محتاجون إلىٰ هذا؛ ولولا بيان الله سبحانه وتعالىٰ وهدايته ما عرف الناس كيف يتوضؤون، ولا كيف يصلون، ولا كيف يصومون، ولا كيف يحجون؛ ولكن من فضل الله أن الله سبحانه وتعالىٰ بيّن ذلك.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** البيان يتعين علىٰ العالم إذا سأله سائل يسترشد عن أمر من أمور دينه، ولا يحل له الكتمان هنا، اتكالا علىٰ غيره، حتىٰ لا يضيع المسلم بين هذا وذاك.(١) قال رسول اللهِ ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**».(٢)

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** الكتمان الذي سلكه هؤلاء قبيح؛ لأنه كتمان بعد بيان؛ ليس لهم أن يقولوا: «ما تكلمنا؛ لأنّ الأمر مشتبه علينا»؛ فالإنسان الذي لا يتكلم بالشيء لاشتباه الأمر عليه قد يعذر؛ لكن الذي لا يتكلم مع أن

---

(١) ذلك أن من حق السائل المتعلم علىٰ العالم أن يجيبه ويعلمه، ما لم يكن متعنتا ولا متنطعا، يتتبع الغرائب وأغلوطات المسائل، فقد ورد النهي عن هذه الأغلوطات، وأدب عمر سائلًا عُرف بذلك.

(٢) سنن ابن ماجه: (٢٦٤). وضعفه الأرنؤوط.

الله بينه للناس يكون هذا أعظم قبحًا ــ والعياذ بالله.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** نشر العلم واجب عند الحاجة إليه سواء ظهرت الحاجة بلسان الحال، أو بلسان المقال، ولسان الحال: أن ترىٰ إنسانًا يعمل عملًا ليس علىٰ الوجه المرضي؛ فهذا لسان حاله يدعو إلىٰ أن تبين له الحق؛ ولسان المقال: أن يسألك سائل عن علم وأنت تعلمه؛ فيجب عليك أن تبلغه ما دمت تعلم؛ أما إذا كنت لا تعلم فإنه يجب أن تقول: «لا أدري»، أو «لا أعلم»؛ كذلك لو رأيت الناس عمّ فيهم الجهل في مسألة من أمور الدين؛ فهنا الحاجة داعية إلىٰ البيان؛ فيجب أن تبين.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** العالم المسلم يحرم عليه السكوت عن البيان العلمي باللسان أو القلم إذا ترتب علىٰ سكوته التباس الحق بالباطل، واشتباه الحلال بالحرام، واختلاط المعروف بالمنكر، فيلزمه هنا البيان، إزالة للبس، وإيضاحا للحق، فإن البيان هنا من باب الشهادة التي يحرم كتمانها: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]. (١)

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** هؤلاء الكاتمين ملعونون؛ يلعنهم الله، ويلعنهم اللاعنون؛ لقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

(١) وقد ضرب القرآن لنا مثلًا بعلماء السوء من اليهود والنصارىٰ الذين كتموا ما أنزل الله، ابتغاء عرض الدنيا فلعنهم الله، ليكون ذلك لنا عبرة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

[البقرة:١٥٩].

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** في هذا الوعيد الشديد لتذكرة لمن يلبسون لباس العلماء، من الذين يجارون الملوك الفاسقين، والرؤساء الظالمين، ويكتمون الحق وهم يعلمون، فكيف بالذين يحلون لهم الحرام، ويسقطون عنهم الفرائض، ويمدونهم بالفتاوىٰ الجاهزة لكل بدعة يبتدعون، وكل منكر يقترفون؟

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** الدعاء باللعنة علىٰ كاتم العلم جائز؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩]؛ لأن من معنىٰ ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّٰعِنُونَ﴾ الدعاء عليهم باللعنة؛ **تقول**: اللهم العنهم؛ ولا يلعن الشخص المعين؛ بل علىٰ سبيل التعميم؛ لأن الصحيح أن لعن المعين لا يجوز - ولو كان من المستحقين للعنة؛ لأنه لا يُدرىٰ ماذا يموت عليه؛ قد يهديه الله، كما قال تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:١٢٨]، وأما لعنه بعد موته أيجوز، أم لا يجوز؟ فقد يقال: إنه لا يجوز لقول النبي ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَىٰ مَا قَدَّمُوا**»[(١)]؛ وهذا عام؛ ثم إنه قد يثير ضغائن، وأحقاد من أقاربه، وأصحابه، وأصدقائه؛ فيكون في ذلك مفسدة؛ ثم إن النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[(٢)]؛ وأيّ خير في كونك تلعن واحدًا

(١) صحيح البخاري: (١٣٩٣).
(٢) صحيح البخاري: (٦١٣٥).

كافرًا قد مات؛ وأما طريقته فالواجب التنفير عنها، والقدح فيها، وذمها؛ أما هو شخصيًا فإنه لا يظهر جواز لعنه - وإن كان المعروف عند جمهور أهل العلم أنه يجوز لعنه إذا مات علىٰ الكفر.

* **وعَلَّمَتْنِي هَذِهِ الآيَة أنّ** يجب علىٰ من قال قولًا باطلًا، ثم تبين له بطلانه أن يبينه للناس إلا إذا كان اختلاف اجتهاد فلا يلزمه أن يبين بطلان ما سبق؛ لأنه لا يدري أيّ الاجتهادين هو الصواب.

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥].

***

المبحث الثاني عشر

التذكير بالقرآن

۞ والقرآن حجة لمن إن ذُكِّرَ به تَذَكَّر:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ق:٤٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٨ - ٥٠]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المدثر:٥٤].

۞ أهمية التذكرة:

إن التهيئة القلبية واستثارة الإيمان مطلوبة قبل العمل، لأن العمل لو تم قبل التهيئة كان الأثر ضعيفًا، من هنا تأتي أهمية التذكرة، قال أعزُّ من قال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات:٥٥]، فالتذكرة تستثير الإيمان وتدفع للعمل الصالح وتجعله سببًا لزيادة الإيمان من خلال تجاوب المشاعر المستثارة معه، مع العلم بأن التذكرة تنفع من في قلبه إيمان، فتستثير إيمانه وتدفعه للعمل الصالح فيزداد به إيمانًا، وهذا ما يؤكده قوله تعالىٰ: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلى:١٠]، وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس:٧٠]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق:٣٧].

إذن لابد من إيمان يدخل القلب، وتذكرة تستثيره، وعمل مصاحب يزيده، ولقد أكد القرآن علىٰ هذه الوسائل بقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة:١٥]. (١)

❁ التذكير قبل العمل:

من هنا يتبين لنا أهمية التذكير في زيادة الإيمان، مع الأخذ في الاعتبار أن التذكرة المطلوبة هي التي تستثير المشاعر فتؤججها، وتضرب علىٰ أوتار القلوب فتلهبها.

التذكرة المطلوبة هي التي تذكر العقل بما نسيه من حقائق الإيمان، وتمزجه بمخاطبة العاطفة فتستثيرها، وتجعلها في حالة من التوقد والاستعداد للعمل.

فإذا ما تم ذلك كان من المناسب ربط هذه الحالة بعمل مصاحب حتىٰ يزداد الإيمان ويرسخ في القلب. (٢)

✍ **يقول الشيخ الغزالي**: إن هذا التذكير هو عمل الأنبياء والدعاة إلىٰ آخر رمق. (٣)

---

(١) بناء الإيمان من خلال القرآن: (٢١).

(٢) بناء الإيمان من خلال القرآن: (٢١)..

(٣) نحو تفسير موضوعي: (٣٩٤).

❁ تذكير النبي ﷺ للصحابة:

لقد كان ﷺ يفعل ذلك مع الصحابة فيذكرهم ويؤججج مشاعرهم، ثم يوجههم للعمل المطلوب.

- انظر إليه قبل بدء معركة بدر وهو يقول ﷺ: «**قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**». فاستثيرت المشاعر، وتاقت النفوس إلىٰ الجنة.

فقَالَ: عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**» فازدادت المشاعر استثارة، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَىٰ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ.(١)

---

(١) صحيح مسلم: (١٩٠١). ولفظه: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**»، فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قُومُوا إِلَىٰ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**»، قَالَ: - يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: - يَا رَسُولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّىٰ آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَىٰ بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّىٰ قُتِلَ.

✍ **قلت:** (محمد): وأثبت لفظه هنا مرة ثانية حتىٰ لا يلتبس علىٰ أحد ما أضفته من تعليقات في وسط الرواية تظهر المعنىٰ المراد، وهذا حماية لجناب حديث الرسول =

❁ أرأيت التأثير في المشاعر ماذا يفعل؟

تخيل نفسك وكأنك مع الصحابة الكرام تستمع إليه ﷺ وهو يقول: «**أَلا هَلْ مِنْ مُشَمِّرٍ لِلْجَنَّةِ؟ وَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، وَهِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ تَلأْلأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَثَمَرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ، وَمَقَامٌ فِي أَبَدٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ، وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ، وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ**»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا، قَالَ: «**قُولُوا: إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فَقَالَ الْقَوْمُ: إِنْ شَاءَ اللهُ.(١)... ثم بعد ذلك ذكر الجهاد في سبيل الله، كيف سيكون حالك وأنت تستمع إلىٰ هذه الكلمات، وكيف سيكون تشوقك للجهاد في سبيل الله؟!

إذن لابد من التذكير قبل التوجيه.. علىٰ أن يخاطب ذلك المشاعر حتىٰ يستثير الإيمان، ليأتي العمل بعد ذلك مؤكدًا لهذا الإيمان ومسببًا لزيادته.

❁ القرآن يذكر ثم يوجه للعمل المطلوب:

إن المتأمل للقرآن يجده أنه يستخدم هذه الطريقة الفريدة في مواضعَ متعددة.. تأمل معي قوله سبحانه وتعالىٰ مخاطبًا نبيه ﷺ في سورة الضحىٰ، وهو يُعلي من قدره ويذكره بفضله عليه، ثم يوجهه بعد ذلك بتوجيهات مختلفة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

=

ﷺ وطلبًا للمعذرة بين يدي قيوم السموات والأرض سبحانه وتعالىٰ و ﷻ.

(١) شرح السنة للبغوي: (١٥/ ٢٢٣).

﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ: ٦ - ١١].

وكذلك قوله تعالىٰ علىٰ لسان الملائكة لمريم: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢]، فهذا تذكير وتشجيع يستثير المشاعر، ليأتي التوجيه في الآية التالية ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣].

كما فعل الله ذلك مع كليمه موسىٰ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف:١٤٤] فهذا تذكير وتشجيع يستثير المشاعر، ليأتي التوجيه ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤].

- واستخدم موسىٰ عليه السلام نفس الطريقة في التذكير قبل التوجيه في مواجهاته مع بني إسرائيل كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة:٢٠] فهذا تذكير وتشجيع يستثير المشاعر، ليأتي التوجيه في الآية التالية ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:٢١].

- بعد هذا كله نقول: إن التذكرة بالقرآن مطلوبة ولكن لن ينتفع بها إلا من توافرت فيه شروط ذكرها ابن القيم فقال: إنَّ تَذَكُّرَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يُوجِبُ خَشْيَةَ اللهِ وَالْحَذَرَ مِنْهُ، وَلَا تَنْفَعُ الْمَوْعِظَةُ إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِهِ، وَخَافَهُ وَرَجَاهُ، قَالَ

اللهُ تَعَـالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هـود:١٠٣]، وَقَـالَ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعـلى:١٠]، وَقَـالَ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعـات:٤٥]، وَأَصْـرَحُ مِـنْ ذَلِـكَ قَوْلُـهُ تَعَـالَىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق:٤٥]، فَالْإِيمَانُ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَذِكْرُهُ: شَرْطٌ فِي الِانْتِفَاعِ بِالْعِظَاتِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، يَسْتَحِيلُ حُصُولُهُ بِدُونِهِ.(١)

❁ والقرآن حجة على من ذُكِّرَ به فلم يتذكَّر:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

- وقَـالَ تَعَـالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء:٤١].

- والذين لا يتذكرون بالقرآن يكثرون من الجدل العقيم، وجدالهم وجدلهم ليس طلبًا لهداية، ولا اعتمادًا علىٰ دليل، أو استنادًا إلىٰ حجة، أو استنارة بكتاب قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣- ٤].

- وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٦). بتصرف.

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ [الحج: ٨- ٩].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان: ٢٠- ٢١].

❁ فتك أهل الباطل بأهل الحق عند انقطاع حجتهم:

- وعندما ينقطع الدليل وتبطل الحجة، يكون الحقد علىٰ الدين، والغيظ من حملته، والتبرم بهم، والضيق منهم قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحج: ٧٢].

***

المبحث الثالث عشر

الحكم بالقرآن

۞ والقرآن حجة لمن حَكَّمَه وحكم به بين الناس:

- قَالَ أعزُّ من قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ ﴾ [النساء:١٠٥].

-وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠ ﴾ [المائدة:٤٩ - ٥٠].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧ ﴾ [الكهف: ٢٦-٢٧].

۞ الصحابة وانقيادهم للقرآن:

- عن أبي قلابة أن رجلًا من أهل الكوفة لقي أبا الدرداء فقال: إن إخوانًا لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أقرئهم

السلام ومُرهم فليعطوا القرآن بخزائمهم فإنه يحمل علىٰ القصد والسهولة ويُجنِّبهم الجور والحزونة.(١)

والخزائم جمع خزامة وهي حلقة من الشعر توضع في وترة أنف البعير يشد بها الزمام..

والمراد: أي اجعلوا القرآن مثل الخزام في أنف أحدكم فاتبعوه واعملوا به.

وهذه الوصية من أهم الوصايا التي قيلت في القرآن، فمن ترك نفسه للقرآن ليقوده ويوجهه فسيحظىٰ بالطريق السهل الآمن الذي لا تشدد فيه ولا تعسف.. طريق الحبيب المصطفىٰ ﷺ وصحابته الكرام.

- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ جَوَامِعَ نَوَافِعَ قَالَ: «اعْبُدِ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَزُلْ مَعَ الْقُرْآنِ حَيْثُ زَالَ، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْحَقِّ فَاقْبَلْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا قَصِيًّا، وَمَنْ جَاءَكَ بِالْبَاطِلِ فَارْدُدْهُ، وَإِنْ كَانَ قَرِيبًا حَبِيبًا».(٢)

- وقال حذيفة بن اليمان لعامر بن مطر: كيف أنت إذا أخذ الناس طريقًا واحدًا وأخذ القرآن طريقًا، مع أيهما تكون؟ قال: أكون مع القرآن وأموت

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (٧٢).

(٢) مسند ابن الجعد: (٣٢٦)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (١/ ١٣٤).

معه وأحيا معه، قال: فأنت إذا أنت، فأنت إذا أنت.(١)

فالمطلوب مع القرآن أن يكون أمامنا، نسير وراءه كقائد وسائق يسوقنا إلىٰ الله ﷻ وجنته.

- عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**الْقُرْآنُ مُشَفَّعٌ، وَمَا حِلٌ مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَىٰ النَّارِ**».(٢)

- وفي لفظ موقوف علىٰ ابن مسعود: «الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَىٰ النَّارِ».(٣)

۞ والقرآن حجة على من إن حُكِّمَ حَكَمَ بغيره:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧].

- ولقد تنبأ الصادق المصدوق ﷺ بأن القرآن والسلطان سيفترقان، عَنْ

(١) المصدر السابق: (١٤٢).
(٢) صحيح ابن حبان: (١/ ٣٣١).
(٣) المعجم الكبير للطبراني: (٨٦٥٥).

مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً فِي الدِّينِ فَلَا تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ، يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ، أَلَا إِنَّ رَحَىٰ الْإِسْلَامِ دَائِرَةٌ، فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلَا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ، فَلَا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «**كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرَ، وَحُمِلُوا عَلَىٰ الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**».(١)

فبعد أن كان السلطان في زمن الخلافة الراشدة هو الذي يطبق القرآن ويحمل الناس علىٰ تطبيقه كاملًا، ويشجعهم علىٰ تعلمه، ويحذرهم من التعامل الخاطئ معه، حدث أن انفصل السلطان عن القرآن بتولية إمارة المسلمين من لا يستحق، فاختلت الموازين، وسُفكت الدماء، وانتشرت المظالم، وخاف الناس علىٰ أنفسهم، وانشغلوا بأمورهم الخاصة، وأصبحوا يهابون السلطان، واختلت موازين التوثيق والتضعيف، والتميز والترقي، فلم تصبح علىٰ أساس الكفاءة والصلاح، وازداد ابتعاد المسلمين عن القرآن، وذلك لافتراقه عن السلطان.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: (١٧٢)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٩٢٠٨)، وقال: وَيَزِيدُ بْنُ مَرْثَدٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ مُعَاذٍ، وَالْوَضِينُ بْنُ عَطَاءٍ وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَغَيْرُهُ وَضَعَّفَهُ جَمَاعَةٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ.

والجدير بالذكر أن هذا الابتعاد قد زاد بما فعله مؤسسو الدولة العباسية من سفك شديد للدماء، وظلم، وقتل، وسجن، وتشريد.....(١)

✍ **يقول الشيخ الشعراوي** رحمه الله: ماذا يعني الحكم بما أنزل الله؟.

نعلم أن الحق سبحانه وتعالىٰ جعل لكل قضية مخالفة في الكون حكمًا، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم في أمرٍ فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر. ونجد أن قمة كل الأمور هي العقيدة، وهو وجود الواحد الأعلىٰ وهو الله، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر.؟ وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلىٰ أحكام الله التي أنزلها وقال: لا ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا. فهذا لون من ردِّ الحكم علىٰ الله وهو لون من الكفر.

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال: إنني أصدق حكم الله، ولكن لا أقدر علىٰ نفسي فهل هذا كفر؟ أم هذا ظلم؟، إنه ليس كفرًا، ويكون ظلمًا إن كان حكمًا بين اثنين. وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه؛ لأنه يفسق عن الحكم كما تفسق الرطبة عن قشرتها.

فالفاسق هو من له إطار من التكليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التي خرجت من قشرتها. ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهي عرضة للتلوث.

إذن: فإن سمعت قول الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر: غربة القرآن: (٢٠٧).

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]، وعندما تسمع: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة:٤٥]، وعندما نسمع: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة:٤٧] فتذكر أحكام الله وحاول أن تقدر علىٰ نفسك. وقيل: إن ذلك لليهود؛ لأن الحق قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

وقيل: إن الثانية جاءت للنصارىٰ الذين لم يحكموا بالإنجيل.

ولنا أن نقول ردًا علىٰ مثل هذه الأقوال: من الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة علىٰ الإسلام وليس موجودًا بالإسلام؟

ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق، فهي آيات نزلت في مناط الحكم عامة.

فإن حكم إنسان في قضية القمّة وهي العقيدة بغير الحق، فذلك هو الكفر.

وإن ردّ الإنسان الحكم علىٰ منشئه - وهو الحق الأعلىٰ - فهذا لون من الكفر.

وإن آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق.

وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم.

إذن ف «كافرون» و «ظالمون» و «فاسقون» تقول لنا: إن الألفاظ

اختلفت باختلاف المحكوم به.

فلا يقولن أحد: إن تلك آية نزلت لتلك الفئة، وتلك الآية نزلت لفئة أخرىٰ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة.

والحق قال في بداية كل حكم: «ومَن» ومَن كما نعلم كلمة عامة.

والدليل علىٰ ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا ورد الحكم علىٰ الله.

وقال الحق في الآية اللاحقة: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة:٤٥].

إنها أحكام تتعلق بجرائم، وعقوبات علىٰ جرائم، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلمًا. إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه.(١)

***

(١) تفسير الشعراوي: (٥/ ٣١٦٢/ ٣١٦٤).

المبحث الرابع عشر

طلب التحاكم إلى القرآن

۞ القرآن حجة لمن يطلب التحاكم إليه :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠].

۞ صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ :

✍ **يقول الشنقيطي** في تعليقه علىٰ هذه الآية ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى:١٠]: اعْلَمْ أَنَّ اللهَ - جَلَّ وَعَلَا - بَيَّنَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ، فَعَلَىٰ كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةَ الَّتِي سَنُوَضِّحُهَا الْآنَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - وَيُقَابِلَهَا مَعَ صِفَاتِ الْبَشَرِ الْمُشَرِّعِينَ لِلْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، فَيَنْظُرُ هَلْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ صِفَاتُ مَنْ لَهُ التَّشْرِيعُ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ. فَإِنْ كَانَتْ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ - وَلَنْ تَكُونَ - فَلْيَتَّبِعْ تَشْرِيعَهُمْ.

وَإِنْ ظَهَرَ يَقِينًا أَنَّهُمْ أَحْقَرُ وَأَخَسُّ وَأَذَلُّ وَأَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَلْيَقِفْ بِهِمْ عِنْدَ حَدِّهِمْ، وَلَا يُجَاوِزْهُ بِهِمْ إِلَىٰ مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ فِي عِبَادَتِهِ أَوْ حُكْمِهِ أَوْ مُلْكِهِ.

فَمِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي أَوْضَحَ بِهَا - تَعَالَىٰ - صِفَاتِ مِنْ لَهُ الْحُكْمُ وَالتَّشْرِيعُ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، ثُمَّ قَالَ مُبَيِّنًا صِفَاتِ مَنْ لَهُ الْحُكْمُ: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى: ١٠- ١٢]. (١)

فَهَلْ فِي الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ الْمُشَرِّعِينَ لِلنُّظُمِ الشَّيْطَانِيَّةِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي تُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، وَيُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - أَيْ خَالِقُهُمَا وَمُخْتَرِعُهُمَا - عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لِلْبَشَرِ أَزْوَاجًا، وَخَلَقَ لَهُمْ أَزْوَاجَ الْأَنْعَامِ الثَّمَانِيَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣] الْآيَةَ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَنَّهُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ - أَيْ يُضَيِّقُهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ - وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

---

(١) والعجيب أن الله بعد هذه الآيات التي عرض فيها سبحانه بعض صفاته قال: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى:١٣].

فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَنْ تَتَفَهَّمُوا صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُشَرِّعَ وَيُحَلِّلَ وَيُحَرِّمَ، وَلَا تَقْبَلُوا تَشْرِيعًا مِنْ كَافِرٍ خَسِيسٍ حَقِيرٍ جَاهِلٍ.(١)

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء:٥٩]، فَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ تَنَازُعِهِمْ بِرَدِّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَىٰ اللهِ وَالرَّسُولِ. فَمَا تَنَازَعَ فِيهِ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ وَجَبَ رَدُّهُ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.(٢)

✍ **قَالَ ابْنُ مُجَاهِدٍ وَالْحَكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمْ**: لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ إِنْ أَخَذْت بِرُخْصَةِ كُلِّ عَالِمٍ اجْتَمَعَ فِيك الشَّرُّ كُلُّهُ قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ هَذَا إجْمَاعٌ لَا أَعْلَمُ فِيهِ خِلَافًا وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَىٰ مَا يَنْبَغِي تَأَمُّلُهُ فَرَوَىٰ كَثِيرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، وَابْنُ عَوْفٍ الْمُزَنِيّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنِّي لَأَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي مِنْ أَعْمَالٍ ثَلَاثَةٍ**» قَالُوا: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَخَافُ عَلَيْهِمْ مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ، وَمِنْ حُكْمِ جَائِرٍ وَمِنْ هَوًىٰ مُتَّبَعٍ**»(٣).(٤)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٧/ ٤٩).

(٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ: (٣/ ٢٨٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله: (٢/ ٩٧٨).

(٤) الفتاوىٰ الكبرىٰ: (٦/ ٩٤).

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١]، فَنَفَىٰ الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّىٰ عَنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا؛ فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ.(١)

❁ والقرآن حجة على من يطلب التحاكم إلى غيره(٢):

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة:٥٠].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء:٦٠].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ: (٧/ ٢٢١).

(٢) بفضل الله تكلمت عن قضية الحكم بما أنزل الله في كتابي: (العبد الرباني في المفهوم القرآني) فمن أراد التوسع في المسألة فليراجع ما امتن الله بكتابته هناك.

ينقسم الناس بالنسبة إلى موقفهم من أحكام الله الى أربعة أقسام:

* **القسم الأوّل**: يقبلونها ويعتقدون أنها كلها حق، كما قال تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]، ويعملون بها قدر استطاعتهم، وهم مع ذلك إن عَصَوا وخالفوا ما أمر الله - سبحانه وتعالىٰ - به، استغفروا وتابوا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥]، فهؤلاء هم المسلمون المؤمنون المستقيمون علىٰ طاعة الله - سبحانه وتعالىٰ -، ومنهم المقتصد الذي يأتي بالواجبات وينتهي عن المحرمات، ومنهم السابق بالخيرات الذي يزيد في الطاعات والحسنات من النوافل والمستحبات.

* **القسم الثاني**: وهم الذين يقبلون جميع أحكام الله - سبحانه وتعالىٰ - وما جاء به الرسول ﷺ، ويعتقدون أنها كلها حق من عند الله - سبحانه وتعالىٰ -، ولا يعترضون علىٰ شيء منها، ولا يقولون نؤمن ببعض ونرفض بعضًا بعقولنا وأهوائنا، ولكنهم مع ذلك تغلبهم الشهوات فيقعون في الذنوب والمعاصي والآثام وهم يعلمون أنَّ ما فعلوه مخالف لأحكام الله - سبحانه وتعالىٰ -، ويقِرُّون بأنهم عاصون مذنبون، ولكنَّهم يسوِّفون التوبة ويؤخِّرونها بتزيين الشيطان وطول الأمل.

فهؤلاء عُصاةٌ قد ظلموا أنفسهم، لكنَّهم مسلمون لأنَّهم يؤمنون بالدين كلِّه، ولا يرفضون شيئًا منه، لا ظاهرًا ولا باطنًا، غير أنهم ناقصو الإيمان،

وحكمهم أنَّ أمْرَهم إلىٰ الله – سبحانه وتعالىٰ إن ماتوا علىٰ المعاصي ولم يتوبوا منها قبل الموت، فيحكم الله فيهم يوم القيامة، إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، وإن عذبَّهم فمآلهم بعد العذاب إلىٰ الجنَّة ما داموا موحِّدين من أهل الصلاة، ما لم تهوي بهم كبائر الذنوب إلىٰ حضيض الشرك والكفر قبل الموت، لأن الكبائر ـ كما قال العلماء ـ هي دهليز الكفر، وأهل الكبائر علىٰ خطر عظيم، ومن ذلك أن يُرانَ علىٰ قلوبهم مع كثرة الذنوب، فيسهل عليهم الكفر بالله – سبحانه وتعالىٰ –، فيصيرون إليه قبل الموت، خذلانًا من الله – سبحانه وتعالىٰ –، عياذًا بالله من سوء الخاتمة.

* **القسم الثالث**: وهم الذين يرفضون أحكام الله – سبحانه وتعالىٰ – كلها، ويعتقدون أن الأديان ليست سوىٰ اجتهادات بشريِّة لمصلحين اجتماعيين أو مفكرين سياسيين، ولا يوجد وحيٌ من الله – سبحانه وتعالىٰ – مُنَزَّلٌ علىٰ الرسل – عليهم السلام –، وقد يعتقد بعض هؤلاء أن الله – سبحانه وتعالىٰ – خلق الكون والإنسان، ولكنَّه تركه ليهدي نفسه بنفسه، لأنَّه ركَّب فيه العقل وتركه ينير للإنسان طريق الهداية، وهؤلاء هم الكفّار الذين لا يؤمنون بما أنزل الله – سبحانه وتعالىٰ.

* **القسم الرابع**: وهم الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويجعلون الدين أجزاء بحسب أهوائهم، ويقولون نؤمن بما يوافق أهواءنا منه، ونرفض ما سواه، ويعرضون منهج الله علىٰ أهوائهم.

ولا ريب أن التشريعات الناتجة عن الهوىٰ مناقضة لحكم الله – سبحانه

وتعالىٰ -، وهىٰ ليست سوىٰ أنداد تضل عن منهج الله الذىٰ هو سبيله وصراطه المستقيم الذي وضعه نورًا وهدىٰ للناس، ويصدق علىٰ ما يناقض منهج الله قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم:٣٠].

۞ حكم مَن يؤمنون ببعض الدين ويكفرون ببعض:

- قال تعالىٰ: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [البقرة:٨٥].

ومن المعلوم أن الدين كلٌّ، لا يقبل أن يتجزأ من جهة القبول به والإذعان له، وأنَّ من رفض حكمًا من أحكام الله - سبحانه وتعالىٰ، واعتقد أنه لا يصلح، وأن تطبيقه يجب أن يُعرضَ علىٰ العقل، من زعم ذلك فهو كافر مشرك بالله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة:٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور:٥١].

وتَرْك تطبيق أحكام الله مِن علامات النفاق الظاهرة؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء:٦١].

✍ **قال الشيخ محمد متولي الشعراوي** رحمه الله عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]: «إياك أن تَرُدَّ الأمرَ علىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لا تَقُل إن هذه الشريعة لم تَعُدْ تناسب العصر الحديث، فإنك بذلك تكون قد كفرت، والعياذ بالله». اهـ

وإذا كان إبليس قد كفر ولعنه الله لاعتراضه علىٰ أمر واحد من أوامر الله – وهو الأمر بالسجود لآدم عليه السلام – فما بالك بمن يرفضون الكثير من أوامر الله ونواهيه بحجة أنها لا تناسب العصر الحديث.

وكأنهم يتهمون الله عز وجل بأنه لا يعلم ما يصلح الإنسان، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

***

المبحث الخامس عشر

اتباع القرآن

❁ القرآن حجة لمن اتبعه وحده:

قَالَ أعزُّ من قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام:١٥٥]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٢- ٣].

- والقرآن حجة لمن اتبعه واكتفىٰ به وحده فطلب الهداية عن طريقه كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت:٥١].

❁ ولماذا يُكْتَفَى به وحده؟

لأنه الوحيد الموصل لمعرفة الله ودينه ونبيه بالطريقة المَرْضِيَّةِ الصحيحة كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة:٣٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:١٢٣]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم:١].

- وعن جابر رضي الله عنه قال سمعت: رسول الله ﷺ يقول: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابُ اللهِ**». (١)

- وَعَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**». (٢)

❁ والقرآن حجة على من اتبع مع القرآن غيره:

واتباعُ غير القرآن له صور وهي كالتالي: (٣)

حجة على من تركه واتبع الشيطان في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾ [الحج: ٣ - ٤].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ [البقرة: ١٠١ - ١٠٢].

---

(١) صحيح مسلم: (١٢١٨).

(٢) موطأ مالك: (٥/ ١٣٢٣).

(٣) سأكتفي بذكر الأدلة دون تعليقات حتىٰ لا يطول بنا الكلام، فتنبه لما يُسْتدلُ به رزقنا الله وإياك حسن الفهم عن الله ورسوله ﷺ.

حجة على من تركه واتبع العقل في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾ [الحج: ٨ - ٩].

حجة على من تركه واتبع الهوى في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:١١٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠].

حجة على من تركه واتبع الرأي في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٣٦].

- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ لَا**

يَنْزِعُ العِلْمَ بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ انْتِزَاعًا، وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مِنْهُمْ مَعَ قَبْضِ العُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ، فَيَبْقَىٰ نَاسٌ جُهَّالٌ، يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ». (١)

حجة على من تركه واتبع أقوال وأفعال وسير فسقة العلماء والعباد في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١ ﴾ [التوبة:٣١].

- وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾ [المائدة:٤٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ ﴾ [المائدة:٧٧].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾ [التوبة:٣٤].

حجة على من تركه واتبع أقوال وأفعال وسير السادة والكبراء في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ

(١) صحيح البخاري: (٧٣٠٧).

ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

حجة على من تركه واتبع أقوال وأفعال الآباء(١) في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟

(١) أرسل الله ﷻ أنبياءه إلىٰ الأرض، فأرسل نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء، قال تعالىٰ: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٢٤]، فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء.

ثم أرسل الله ﷻ إبراهيم عليه السلام فصدوا عن سبيل الله أيضًا بسنة الآباء: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٥١ - ٥٣].

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الشعراء:٦٩ - ٧٤].

ثم أرسل الله ﷻ موسىٰ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء، قال موسىٰ لقومه: ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يونس:٧٧ - ٧٨].

وأرسل الله ﷻ صالحًا عليه السلام إلىٰ ثمود، ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود:٦٢].

وأرسل الله ﷻ شعيبًا إلىٰ مدين، ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا =

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة:١٠٤].

حجة على من تركه واتبع ما عليه أكثر الناس في معرفة الله ودينه ونبيه :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١١٦].

=

يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود:٨٧].

وجاء نبينا ﷺ إلىٰ قومه فصدوا عن سبيل الله بسنة الآباء أيضًا، ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف:٢١ - ٢٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [هود:١٠٩].

فسنة الآباء الصد عن سبيل الله ﷻ، اتخذوا سنة الآباء ذريعة؛ وذلك لأن للوالد تأثيرًا عميقًا جدًا في نفس الولد.

قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [البقرة:٢٠٠].

فلو كان الواحد منا يذكر الله جل وعلا أكثر من الوالد، فكانوا يأتون في المواسم فيقول القائل: أبي كان علىٰ السقاية، وأبي أنفق كذا، وأبي أطعم كذا، ولا يذكرون شيئًا من أمر الآخرة، فقال الله ﷻ لهم ذلك: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ ﴾ [البقرة:٢٠٠].

- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ**». (١)

حجة على من تركه واتبع ما عليه أكثر المسلمين في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦].

- وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَىٰ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**الْجَمَاعَةُ**». (٢)

- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ أُمَّتِي مَا أَتَىٰ عَلَىٰ بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ**

---

(١) صحيح البخاري: (١٣٧٤).

(٢) سنن ابن ماجه: (٣٩٩٢)، والْحَدِيثَ - مَعَ اخْتِلَافٍ فِي اللَّفْظِ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، وَمُعَاوِيَةَ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فِي: سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ ٤/ ٢٧٦ (كِتَابُ السُّنَّةِ، بَابُ شَرْحِ السُّنَّةِ) وَهُوَ فِيهَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَمُعَاوِيَةَ ؛ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ٤/ ١٣٤ - ١٣٥.

عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَىٰ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». (١)

حجة على من تركه واتبع رأي المتقدمين لا روايتهم في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المؤمنون:٨١].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

حجة على من تركه واتبع رأي المتأخرين في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة:٧٧].

حجة على من تركه واتبع ما عليه الطوائف والأحزاب في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٣ - ٥٤].

---

(١) سنن الترمذي: (٢٦٤١).

فالأحزاب لا يؤمنون إلا بما عند الحزب قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [البقرة:٩١].

ويدعون أتباعهم إلىٰ عدم الإيمان بما ليس في كتب الحزب وإن كان حقًا بقولهم: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران:٧٣].

حجة على من تركه واتبع الغيرة:

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتِ امْرَأَةٌ تُظْهِرُ فِي الإِسْلَامِ الْسُّوْءَ فَقَالَ الْنَّبِيُّ ﷺ: «**لَوْ رَجَمْتُ أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هَذِهِ**». (١)

حجة على من تركه واتبع الحماس:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة:٨٧].

- وَعَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا

(١) صحيح البخاري: (٥٣١٦).

فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**». (١)

- وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه في صُلْحِ الحديبيةِ قَالَ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَىٰ الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَىٰ البَاطِلِ، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي**»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «**بَلَىٰ، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ**». (٢)

حجة على من تركه واتبع الحس كرأيت وسمعت وذقت في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام:١٢١].

فالشيطان يوحي إلىٰ اتِّبَاعِ البدع والشرك والكفر بصوت يسمعونه بآذانهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤].

---

(١) صحيح البخاري: (٥٠٦٣)، واللفظ له، صحيح مسلم: (١٤٠١).

(٢) صحيح البخاري: (٢٧٣١).

- ويظهر لهم في صورة من يعبدون أو يعظمون فيرونه بأعينهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٨].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٨].

- ويجعل للشرك والكفر والبدع عندهم ذوقًا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ ﴾ [فاطر:٨].

حجة على من تركه واتبع الذوق في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ [محمد:١٤].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٣٨].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النحل:٦٣].

حجة على من تركه واتبع القواعد العقلية فقط في معرفة الله ودينه ونبيه :

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٣٦].

حجة على من تركه واتبع المعاني اللغوية في معرفة الله ودينه ونبيه :

لأن اتباع المعاني اللغوية مع وجود النص طريقة أهل البدع والأهواء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩].

وجهل هؤلاء: أن مراد الله في الكتاب والسنة لا يعلمه إلا الله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]، ولهذا تكفل ببيان مراده بنفسه ولم يدع ذلك لغيره.

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة:١٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام:١٠٥].

وأرسل الرسل: وأخبرهم بمراده ليبينوه للناس ولم يجعل بيان مراده لغيره، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم:٤].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل:٤٤].

- وقد نهىٰ الله عن تقديم المعنىٰ اللغوي علىٰ النص الشرعي فقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١].

ولا يتبع المعنىٰ اللغوي مع وجود النص الشرعي إلا صاحب هوىٰ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

حجة على من تركه واتبع القياس في معرفة الله ودينه ونبيه:

لأن اتباع القياس مع وجود النص طريقة أهل البدع وإمامهم إبليس. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢ - ١٣].

وقد نهىٰ الله عن تقديم القياس علىٰ النص قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ﴾ [الحجرات:١]، ولا يتبع القياس مع وجود النص إلا صاحب هوىٰ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:٥٠].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١١٩].

حجة على من تركه واتبع شريعة من قبلنا:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة:٤٨].

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَىٰ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَىٰ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ**». (١)

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**». (٢)

---

(١) مسند أحمد: (١٥٨٦٤)

(٢) مسند أحمد: (١٥١٥٦).

حجة على من تركه واتبع الرؤى والأحلام والكرامات في معرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ [النساء:١٥٧].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٣٦].

حجة على من تركه واتبع الأولياء لمعرفة الله ودينه ونبيه:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾ [الشورى:٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤].

- فود رجل صالح عظموه فعبدوه.

- وسواع رجل صالح عظموه فعبدوه.

- ويغوث رجل صالح عظموه فعبدوه.

- ويعوق رجل صالح عظموه فعبدوه.

- ونسر جل صالح عظموه فعبدوه.

ومن عظم الصالحين من فتية الكهف بنوا عليهم مسجدًا وعبدوهم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف:٢١].

- وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ، ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**».(١)

- وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ كَذَلِكَ يَقُولُ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهُودِ، وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» **يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**».(٢)

حجة على من تركه في التعرف على الغيب وطلب كشف الغيب لمعرفة الله ودينه ونبيه عن طريق الرياضة والمجاهدة:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩].

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧].

---

(١) صحيح البخاري: (٩٧١).

(٢) صحيح البخاري: (٤٤٤٣).

- وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠ ﴾ [الأنعام:٥٠].

***

الخاتمة نسأل الله حسنها

أتيتُـــك راجيًـــا يَـــا ذا الجـــلالِ... ففـرِّجْ مـا تَـرَىٰ مـن سُـوءِ حَـالي
عَصَـيْتُك سَـيِّدِي ويْلِـي بجَهْلـي... وَعَيـبُ الـذنبِ لـم يخطُـرْ ببـالي
إلـىٰ مـن يَشْـتَكِي المملـوكُ إلَّا... إلـىٰ مَـوْلَاهُ يـا مَـوْلَىٰ الَمـوَالي
لَعَمْـرِي ليـتَ أُمِّـي لَـم تلِـدْني... ولـم أُغْضِـبْك في ظُلَـمِ اللَّيَـالي
فَهَـا أنـا عبـدُك العَاصـي فقيـرٌ... إلـىٰ رُحْمـاكَ فاقبـلْ لـي سُـؤَالي
فـإنْ عاقَبْـتَ يـا ربِّـي تُعَاقِـبْ... مُحقًّـا بالعـذابِ وبالنَّكَـال
وإن تَعْفـو فعفْـوك قـد أَرَاني... لِأفعـالي وأوزاري الثقـال

***

الفهرس

الإهداء..... ٧
المقدمة..... ٨
أنواع هجر القرآن والحرج منه:..... ١٣
فماذا جنينا من وراء هذا التعامل؟ ١٧
الحل والمخرج: ١٧
تنبيه: ١٨
عملي في هذا الكتاب: ٢٠
وأختم قائلًا: ٢٢

الفصل الأول: التعريف بالقرآن والحكمة من إنزاله..... ٢٥

المبحث الأول: التعريف بالقرآن الكريم ٢٦
القرآن الكريم ٢٦
حديث القرآن عن القرآن (أسماؤه وسماته) ٢٩
أولاً: القرآن: ٣٠
ثانيًا: الكتاب: ٣٦
ماذا تعلمنا كلمة الكتاب؟ ٣٦
الحِكَمُ من التسمية بهذين الاسمين القرآن والكتاب:..... ٤٠

أولاً: يلاحظ معنىٰ الضم والجمع: ٤٠
ثانيًا: يتحقق الجمع والوثيق: ٤٠
وخلاصتها: ٤٠
لماذا سمي الكتاب باسم من أسماء الله وهو الحكيم؟ ٤٢
ثالثًا: الذكر: ٥٠
رابعًا: الروح: ٥٣
خامسًا: النور: ٥٤
سادسًا: الفرقان: ٥٤
سابعًا: البرهان: ٥٥
ثامنًا: القرآن موعظة وشفاء وهدىٰ ورحمة للمؤمنين: ٥٥
تاسعًا: والقرآن بصائر تهدي: ٥٨
المبحث الثاني: الحكمة من إنزال الله القرآن ٦١
ماذا فعل الناس علىٰ الأرض؟ ٦٣
حب الله لعباده: ٦٤
الرسائل السماوية: ٦٥
كيف تعامل الناس مع هذه الرسائل؟ ٦٥
الرسالة الأخيرة: ٦٦
الحكمة و الهدف الأساسي من نزول القرآن: ٦٦

الفصل الثاني: علاقة القرآن بالعقل والقلب..... ٦٩

المبحث الأول: علاقة القرآن بالعقل ٧٠
تجارب عملية: ٧١

الشعور واللاشعور: ٧٣
فما السبب في ذلك؟ ٧٣
علاقة العقل المُدرِك بالأخفىٰ (أو علاقة الشعور باللاشعور): ٧٧
وإليك بعض الأمثلة التي تُوضح ذلك الأمر: ٧٧
القرآن واللاشعور: ٧٨
ولكن كيف يتم ذلك؟ ٧٩
أولا: الاقتناع: ٧٩
ومن وسائل الإقناع كذلك: ٨١
ثانيا: تكرار الموضوعات: ٨١
ثالثًا: رسم خريطة الإسلام: ٨٣
وخلاصة القول: ٨٤
المبحث الثاني: علاقة القرآن بالقلب ٨٥
المطلب الأول: القرآن روح القلوب وقوتها ٨٦
روح تسرىٰ في القلوب: ٨٧
من دخل فيه فهو آمن: ٨٨
تأثير يُدرك ولا يمكن وصفه: ٨٩
من مظاهر تأثير القرآن: ٩١
خشوع الجبال وتصدعها: ٩١
القشعريرة والسجود: ٩٢
أجيبوا داعي الله: ٩٤

تأثير القرآن علىٰ مشركي مكة: ٩٥
فما الذي دفعهم لذلك؟! ٩٥
الوليد بن المغيرة: ٩٦
اعترافات عتبة بن ربيعة: ٩٧
السجود الجماعي: ٩٩
خوف المشركين من فتنة نسائهم وأولادهم بسماعهم للقرآن: ١٠٠
القرآن كان السبب الأول لإسلام الأوائل: ١٠٢
١- إسلام عمر بسماع القرآن: ١٠٢
٢- إسلام الطفيل بن عمرو بسماع القرآن: ١٠٣
٣- إسلام الجبير بن مطعم بسماع القرآن: ١٠٥
٤- إسلام النجاشي بسماع القرآن: ١٠٥
٥- إسلام وفد من نصارىٰ الحبشة بسماع القرآن: ١٠٨
كيف أسلم أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ؟ ١٠٨
الدليل الدامغ: ١١١
أمة عجيبة: ١١٣
المطلب الثاني: الوصال بين القلب والقرآن..... ١١٥
الإيمان أولاً: ١١٦
نقطة البداية الصحيحة: ١١٨
أولاً: تقوية الرغبة والدافع للانتفاع الحقيقي بالقرآن ١١٩
المحور الثاني: الإلحاح علىٰ الله ﷻ ١٢٠

عون الله للعبد علىٰ قدر عزمه: ١٢١
فهل تريد الانتفاع بالقرآن؟! ١٢٢
فإذا عزم الأمر: ١٢٢
المحور الثالث: الإكثار من تلاوة القرآن بتفهم وترتيل وصوت حزين... ١٢٣
المطلب الثالث: كيفية التغيير القرآني للقلب..... ١٢٤
فما هو الهوىٰ وما مدىٰ علاقته بالقلب؟ ١٢٥
القلب بين الإيمان والهوىٰ: ١٢٥
مرض القلب وصحته:..... ١٢٦
القلب الحي: ١٢٨
وخلاصة القول:..... ١٢٨
القرآن ودوره في دخول الإيمان القلب: ١٢٩
وهنا يأتي دور القرآن: ١٢٩
دور الموعظة: ١٣٠
القرآن يمزج الفكر بالعاطفة: ١٣٣

الفصل الثالث: زيادة الإيمان بالقرآن..... ١٣٥

مدخل وتمهيد..... ١٣٦
القرآن وزيادة الإيمان:..... ١٣٦
الأولىٰ: أنه بنفسه يزيد الإيمان:..... ١٣٦
الثانية: الطاقة المتولدة من القرآن: ١٣٧
الوسيلة الثالثة: الدلالة علىٰ أوجه البر: ١٣٧
القرآن وشفاء القلب: ١٣٧

القرآن وحياة القلوب (الولادة الثانية):.....١٣٨
القرآن والسير إلىٰ الله:.....١٣٩
أعمال القلوب:.....١٣٩
الحال والمقام:.....١٤١
الطريق إلىٰ العبودية:.....١٤٣
ولكن كيف يمكننا أن نصل إلىٰ هذه الحالة القلبية من خلال القرآن؟ ...١٤٣
أهمية الانشغال بالقرآن:.....١٤٤
نماذج إيمانية:.....١٤٥
المبحث الأول: الإيمان بالغيب.....١٤٦
أهمية الإيمان بالغيب:.....١٤٦
كيف نؤمن بالغيب؟.....١٥٢
كيف نوقن بأن القرآن حق؟.....١٥٣
أولاً: التحدي:.....١٥٣
ثانيًا: إخبار القرآن عن أمور وأحداث وهذا له صور:.....١٥٥
١- الإخبار عن الماضي:.....١٥٥
٢- الإخبار عن الحاضر البعيد مكانيًا عن رسول الله:.....١٥٦
٣ - الإخبار عن المستقبل:.....١٥٧
ثالثًا: إخباره عن كنه أشياء لم يكن لأحد من البشر أن يعلمها وقت نزول القرآن:.....١٥٨
رابعًا: التأكيد علىٰ صدق الرسول ﷺ وأنه مبعوث من رب العالمين: ..١٥٩

المبحث الثاني: الإيمان بالله الواحد الأحد..... ١٦١
اهتمام القرآن بتقرير وحدانية الله:.....١٦١
محاور الإيمان بالوحدانية: ١٦٢
أولًا: مسألة وجود إله وخالق للكون:.....١٦٢
ثانيًا: من هو الإله الحق:.....١٦٢
ثالثًا: ما الذي يثبت أن الله هو الإله الحق:.....١٦٣
رابعًا: إنزال القرآن يثبت أن الله هو الإله الحق:.....١٦٣
خامسًا: تفنيد القرآن لادعاءات الكافرين بوجود آلهة أخرىٰ: ١٦٤
أعمال يفضل القيام بها تثبت الإيمان بوحدانية الله تعالىٰ: ١٦٦
المبحث الثالث: الإيمان بالله الوهاب.....١٦٨
أولاً: نعم الخلق والإيجاد: ١٦٩
ثانيًا: نعم الإمداد: ١٧٠
ثالثًا: نعم التسخير: ١٧١
وإذا أردنا النظر إلىٰ نعم التسخير لوجدناها لا تُعد ولا تحصىٰ منها: ١٧١
أما داخل الجسم فنعم التسخير ظاهرة مشاهدة في كل شيء: ١٧٢
رابعًا: نعم الحفظ:.....١٧٢
خامسًا: نعم الأمن والستر: ١٧٣
سادسًا: نعم الهداية:.....١٧٣
سابعًا: نعم الثبات: ١٧٣
ثامنًا: نعم التيسير والتوفيق والسداد:.....١٧٤

تاسعًا: نعم العصمة:.....١٧٤
عاشرًا: نعم الإمهال: ١٧٤
حادي عشر: نعم الاجتباء وسبق الفضل: ١٧٤
المبحث الرابع: الإيمان بالله القيوم.....١٧٦
ونحن أيضًا لا قيمة لنا لو انقطع عنا المدد الإلهي. ١٧٧
أهمية المشاهدة والإيمان بالله القيوم: ١٧٨
كيفية المشاهدة والإيمان بالله القيوم: ١٧٩
قيومية الخلق: ١٧٩
قيومية الإمداد: ١٨٠
قيومية الحفظ: ١٨١
قيومية العلم والإحاطة بكل شيء:.....١٨٢
قيومية القدرة: ١٨٢
قيومية الهداية: ١٨٣
قيومية العصمة: ١٨٤
قيومية التثبيت: ١٨٥
قيومية الولاية والحماية:.....١٨٦
قيومية القرب والإجابة: ١٨٨
قيومية العطاء والمنع: ١٨٩
قيومية الجزاء:.....١٨٩
قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين:.....١٩٠

الفصل الرابع: كيف ننتفع بالقرآن..... ١٩١

كيف ننتفع بالقرآن..... ١٩٢

المبحث الأول: الأهداف الأساسية للقرآن..... ١٩٤

إن أهداف القرآن الأساسية لا تكاد تخرج عن أربعة:..... ١٩٥

١ -الهداية إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ:..... ١٩٥

٢ -إيجاد الشخصية الإسلامية المتكاملة المتوازنة: ١٩٦

٣ – إيجاد المجتمع الإسلامي القرآني الأصيل:..... ١٩٧

٤ – قيادة الأمة المسلمة في معركتها اللازمة:..... ٢٠٢

المبحث الثاني: الخطوات المتدرجة لفهم القرآن والتعامل معه ٢٠٤

ثلاثة أوراد يومية قرآنية: ٢٠٦

الورد الأول: ورد التلاوة: ٢٠٦

الورد الثاني: ورد الحفظ: ٢٠٦

الورد الثالث: ورد التدبر:..... ٢٠٧

المبحث الثالث: القرآن هو سرُّ نهضتنا..... ٢٠٨

أولاً: القرآن هو اختيار الله لعباده أجمعين:..... ٢٠٨

ثانيًا: القرآن يجمع بين الرسالة والمعجزة:..... ٢٠٩

ثالثًا: القرآن يخاطب الفكر والعاطفة في آن واحد: ٢١١

رابعًا: القرآن لديه القدرة بإذن الله علىٰ الاستثارة الدائمة للمشاعر والضرب علىٰ أوتار القلوب وتوليد الطاقة والقوة الروحية:..... ٢١٣

خامسًا: القرآن ميسر للذكر والفهم ٢١٤

خطاب للعامة وخطاب للخاصة: ٢١٥
القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنىٰ: ٢١٥
القرآن إيجاز كله: ٢١٦
سادسًا: القرآن هو الكلمة السواء التي لا يختلف عليها اثنان من الأمة: .. ٢١٧
الكلمة السواء: ٢١٨
سابعًا: القرآن عبادة متجددة لا تُمل: ٢١٩
تقرأ فتؤجر: ٢٢٠
ثامنًا: القرآن وسيلة ودواء مُجرب ٢٢٠
تأمل معي هذه الواقعة التي تؤكد هذا المعنىٰ: ٢٢١
أَوَلاَ يكفينا القرآن؟! ٢٢١
تاسعًا: القرآن هو المنقذ - بإذن الله: ٢٢٣
المبحث الرابع: لماذا لم ننتفع بالقرآن؟! ٢٢٧
أولاً: الصورة الموروثة عن القرآن ٢٢٧
وماذا عن الصورة الموروثة عن القرآن؟! ٢٢٨
الصورة الذهنية: ٢٢٩
ورثنا القرآن: ٢٣٠
ثانيًا: طول الإلف: ٢٣١
القراءة بالألحان المحدثة: ٢٣٢
ثالثًا: نسيان الهدف الذي من أجله نزل القرآن ٢٣٦
ماذا يحدث لو نُسي الهدف؟! ٢٣٩

ابن تيمية يؤكد علىٰ هدف نزول القرآن: ٢٤٠
هل نقرأ لنفهم أم نقرأ لنقرأ؟! ٢٤١
رابعًا: الانشغال بفروع العلم والتبحر فيها ٢٤٢
النبع لم يعد واحدًا: ٢٤٤
خامسًا: غياب أثر القرآن: ٢٤٤
نتائج عدم التغيير بالقرآن ٢٤٦
١- استمرار الفرقة بين المسلمين: ٢٤٦
٢- استمرار الذل والهوان: ٢٤٧
٣- ضياع البشرية: ٢٤٨
٤- غياب الربانية: ٢٤٩
٥- القلق والاضطراب النفسي: ٢٤٩

الفصل الخامس: كيف نعود إلى القرآن؟ ٢٥١

المبحث الأول: معركة الشيطان مع القرآن ٢٥٢
فماذا فعل الشيطان مع القرآن؟! ٢٥٣
تلبيس إبليس: ٢٥٤
ليس وحده: ٢٥٥
الشيطان ملحاح بطيء اليأس: ٢٥٥
المعركة الحاسمة: ٢٥٧
وساوس الشيطان عند القراءة: ٢٥٩
المبحث الثاني: عوامل تهيئ المرء للدخول إلىٰ عالم القرآن ٢٦١

الإمداد بحسب الاستعداد: ٢٦٣
القرآن والأولويات: ٢٦٣
سلامة النطق: ٢٦٤
المبحث الثالث: الوسائل العملية للانتفاع بالقرآن ٢٧٠
أولاً: المداومة علىٰ التلاوة اليومية: ٢٧٠
ثانيًا: تهيئة الجو المناسب: ٢٧١
ثالثًا: التركيز مع القراءة: ٢٧١
رابعًا: أن نجعل المعنىٰ هو المقصود: ٢٧٤
حسن الابتداء والوقف: ٢٧٦
خامسًا: التجاوب مع القراءة: ٢٧٧
سادسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب: ٢٧٨
سابعًا: استصحاب معنىٰ من المعاني الإيمانية: ٢٨٠

الفصل السادس: جوانب الهداية في القرآن..... ٢٨٣

مدخل وتمهيد..... ٢٨٤
مفهوم الهداية: ٢٨٥
كيفية الهداية القرآنية: ٢٨٧
الجانب الأول: للهداية القرآنية: (التعرف علىٰ الخالق) ٢٩١
المعرفة طريق الخشية والإجلال: ٢٩٢
كيف نعرف الله؟ ٢٩٣
فما السبيل إذن إلىٰ معرفته؟! ٢٩٣
دور القرآن في معرفة الله: ٢٩٥

نماذج تطبيقية: ٢٩٥
١ - أخبرنا القرآن بأن الله واحد، أحد، (صفة الوحدانية): ٢٩٥
من آثار تلك الصفة: ٢٩٥
٢ -الله ﷻ أخبرنا بأنه الوهاب، الرزاق، المنان، البر، المعطي، والتي يجمعها صفة الإنعام. ٢٩٦
مظاهر الصفة وآثارها في الكون والنفس: ٢٩٦
العبودية المطلوبة: الشكر. ٢٩٧
صور الانحراف عن العبودية: الإعراض عن الشكر (الجحود ونكران النعم). ٢٩٧
٣ -الله ﷻ أخبرنا بأنه عزيز، قهار، قاهر، ويجمعها صفة العزة والقهر. ..٢٩٧
وصف الصفة: ٢٩٧
آثار الصفة: ٢٩٧
العبودية المطلوبة: الاستسلام والانكسار لله ﷻ. ٢٩٨
من صور الانحراف عن هذه العبودية: ٢٩٨
٤ -الله ﷻ وصف نفسه بأنه الملك. ٢٩٨
من آثار تلك الصفة: ٢٩٨
العبودية المطلوبة: طاعة أوامره.....٢٩٨
من صور الانحراف عن هذه العبودية: الفسوق والعصيان.....٢٩٩
الجانب الثاني: من جوانب الهداية (الرسول والرسالة)..... ٣٠٠
تربيته ﷺ علىٰ تمام العبودية: ٣٠١

واجبنا نحوه ﷺ: ٣٠٢
الرسالة القرآنية: ٣٠٢
الجانب الثالث: من جوانب الهداية (التعريف بالإنسان)..... ٣٠٤
العقل: ٣٠٤
النفس: ٣٠٦
القلب: ٣٠٨
الجانب الرابع: التعريف بالشيطان..... ٣٠٩
اعرف عدوك: ٣٠٩
الجانب الخامس: قصة الوجود ويوم الحساب ٣١٢
الدنيا دار امتحان: ٣١٣
لماذا الاختلاف بين الناس؟ ٣١٤
إنها القصة المكررة منذ الأزل:.....٣١٥
ويبقىٰ السؤال: متىٰ الحساب وإعلان النتيجة؟.....٣١٦
القرآن وقصة الوجود: ٣١٧
الجانب السادس: معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة ٣٢١
القوانين المادية:.....٣٢٢
القوانين الاجتماعية: ٣٢٢
ومن هذه القوانين: ٣٢٣
البداية من العبد:.....٣٢٤
القرآن دستور الحياة:.....٣٢٥

الجانب السابع: التعرف علىٰ الكون المحيط ٣٢٧
كون مُسخَّر: ٣٢٧
الكون العابد: ٣٢٩
الجانب الثامن: حقوق العباد بعضهم علىٰ بعض ٣٣١
الشريعة رحمة كلها: ٣٣٢
من فوائد الإحسان: ٣٣٣
وصور الإحسان في القرآن كثيرة، منها: ٣٣٣
الإحسان إلىٰ الوالدين: ٣٣٣
والإحسان إلىٰ ذوي القربىٰ: ٣٣٤
والإحسان لابد أن يُظلل حياة الزوجين: ٣٣٤
وفي حديث الناس مع بعضهم: ٣٣٤
بل وفي الجدال أيضًا إحسان: ٣٣٤
الجانب التاسع: فقه الدعوة إلىٰ الله ٣٣٦
هذا الكتاب المعجز: ٣٣٦
لماذا يُثيرون الشُبهات؟ ٣٣٨
صور الهدىٰ: ٣٣٩
متىٰ نرد علىٰ الشبهات؟ ٣٣٩
الجانب العاشر: العبرة من قصص السابقين ٣٤٢
كيف نستخلص العبرة؟ ٣٤٢
فأين موضع الخيال في هذا الوقائع؟ ٣٤٩

فأين موضع الخيال هنا؟.....٣٤٩
فماذا كان الجواب؟ ٣٥١
سؤال وجواب:.....٣٥٣

الفصل السابع: كيف يكون القرآن حجة لنا لا علينا؟..... ٣٥٥

المبحث الأول: معرفة القرآن.....٣٥٨
المبحث الثاني: الإيمان بالقرآن..... ٣٦١
وجوب الإيمان بالرّسالات كلهَا:.....٣٦١
كيف يكون الإيمان بالرسالات السابقة: ٣٦٣
كيف يكون الإيمان بالرسالة الخاتمة: ٣٦٤
المبحث الثالث: الإيمان بمتشابه القرآن.....٣٦٨
المبحث الرابع: حفظ القرآن.....٣٧٦
المبحث الخامس : قراءة القرآن..... ٣٨١
إن القرآن حجة لمن قرأه:.....٣٨١
والقرآن حجة علىٰ من أعرض عن قراءته: ٣٨٣
المبحث السادس: تلاوته وفهمه..... ٣٨٥
القرآن حجة لمن تلاه وفهمه:.....٣٨٥
توضيح المراد بحق تلاوته:.....٣٨٦
دليل آخر علىٰ أن القرآن حجة لمن تلاه وفهمه: ٣٨٧
والقرآن حجة علىٰ من تلاه ولم يَفْهمْه: ٣٨٨
وهنا لنا وقفة: ٣٩٢

المبحث السابع: تدبر القرآن..... ٣٩٥
القرآن حجة لمن تدبره: ٣٩٥
والقرآن حجة علىٰ من ترك تدبره: ٣٩٨
كيف يحدث التدبر؟.....٣٩٩
قصة: ٤٠٠
أمور تعين علىٰ تدبر القرآن: ٤٠٢
المبحث الثامن: الإعراض عن القرآن..... ٤٠٥
إن القرآن حجة علىٰ من أعرض عنه: ٤٠٥
أخطار الجفاء عن القرآن: ٤٠٧
أولًا: استدعاء عقوبة الغفلة والإعراض عن آيات الله: ٤٠٧
ثانيًا: الجفاء عن القرآن دليل علىٰ عدم الاهتمام والتوقير للقرآن: ٤٠٨
ثالثًا: من أخطار الجفاء عن القرآن: قسوة القلب: ٤١٠
رابعًا: من أخطار الجفاء عن القرآن: غياب الأثر: ٤١٢
خامسًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: نسيان معاني القرآن: ٤١٣
سادسًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: الحرمان من الثواب والأجر: ...٤١٤
سابعًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: الحرمان من البركة والخير: ٤١٥
ثامنًا: ومن أخطار الجفاء عن القرآن: أخطار ما بعد الموت: ٤١٧
المبحث التاسع: الإنصات عند سماع القرآن ٤١٨
والقرآن حجة لمن قُرِئ عليه القرآنُ فأنصت له:.....٤١٨
والقرآن حجة علىٰ من قُرِئ عليه ولم ينصت له: ٤١٩

المبحث العاشر: العمل بالقرآن..... ٤٢١
والقرآن حجة لمن عمل به:.....٤٢١
والقرآن حجة علىٰ من ترك العمل به:.....٤٢٤
دليل آخر علىٰ أن القرآن حجة علىٰ من ترك العمل به: ٤٢٦
المبحث الحادي عشر: تعلم القرآن وتعليمه..... ٤٣٢
والقرآن حجة لمن تعلمه وعلَّمه للناس: ٤٣٢
والقرآن حجة علىٰ من لم يعلمه الناس:.....٤٣٥
حكم تبليغ العلم: ٤٣٦
المبحث الثاني: عشر التذكير بالقرآن..... ٤٤٤
والقرآن حجة لمن إن ذُكِّرَ به تَذَكَّر: ٤٤٤
أهمية التذكرة:.....٤٤٤
التذكير قبل العمل: ٤٤٥
تذكير النبي ﷺ للصحابة: ٤٤٦
أرأيت التأثير في المشاعر ماذا يفعل؟.....٤٤٧
القرآن يذكر ثم يوجه للعمل المطلوب:.....٤٤٧
والقرآن حجة علىٰ من ذُكِّرَ به فلم يتَذَكَّر: ٤٤٩
فتك أهل الباطل بأهل الحق عند انقطاع حجتهم:.....٤٥٠
المبحث الثالث عشر: الحكم بالقرآن..... ٤٥١
والقرآن حجة لمن حَكَّمَه وحكم به بين الناس: ٤٥١
الصحابة وانقيادهم للقرآن:.....٤٥١

والقرآن حجة علىٰ من إن حُكِّمَ حَكَمَ بغيره: ٤٥٣
المبحث الرابع: عشر طلب التحاكم إلىٰ القرآن.....٤٥٨
القرآن حجة لمن يطلب التحاكم إليه: ٤٥٨
صِفَاتِ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ لَهُ: ٤٥٨
والقرآن حجة علىٰ من يطلب التحاكم إلىٰ غيره: ٤٦١
ينقسم الناس بالنسبة إلىٰ موقفهم من أحكام الله الىٰ أربعة أقسام: ٤٦٢
حكم مَن يؤمنون ببعض الدين ويكفرون ببعض: ٤٦٤
المبحث الخامس عشر: اتباع القرآن.....٤٦٦
القرآن حجة لمن اتبعه وحده: ٤٦٦
ولماذا يُكْتَفَىٰ بِه وحده؟ ٤٦٦
والقرآن حجة علىٰ من اتبع مع القرآن غيره:.....٤٦٧
حجة علىٰ من تركه واتبع الشيطان في معرفة الله ودينه ونبيه:.....٤٦٧
حجة علىٰ من تركه واتبع العقل في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٦٨
حجة علىٰ من تركه واتبع الهوىٰ في معرفة الله ودينه ونبيه:.....٤٦٨
حجة علىٰ من تركه واتبع الرأي في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٦٨
حجة علىٰ من تركه واتبع أقوال وأفعال وسير فسقة العلماء والعباد في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٦٩
حجة علىٰ من تركه واتبع أقوال وأفعال وسير السادة والكبراء في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٦٩
حجة علىٰ من تركه واتبع أقوال وأفعال الآباء في معرفة الله ودينه ونبيه:..٤٧٠

حجة علىٰ من تركه واتبع ما عليه أكثر الناس في معرفة الله ودينه ونبيه:...٤٧١
حجة علىٰ من تركه واتبع ما عليه أكثر المسلمين في معرفة الله ودينه ونبيه:٤٧٢
حجة علىٰ من تركه واتبع رأي المتقدمين لا روايتهم في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٧٣
حجة علىٰ من تركه واتبع رأي المتأخرين في معرفة الله ودينه ونبيه:.....٤٧٣
حجة علىٰ من تركه واتبع ما عليه الطوائف والأحزاب في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٧٣
حجة علىٰ من تركه واتبع الغيرة:.....٤٧٤
حجة علىٰ من تركه واتبع الحماس: ٤٧٤
حجة علىٰ من تركه واتبع الحس كرأيت وسمعت وذقت في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٧٥
حجة علىٰ من تركه واتبع الذوق في معرفة الله ودينه ونبيه:.....٤٧٦
حجة علىٰ من تركه واتبع القواعد العقلية فقط في معرفة الله ودينه ونبيه: .٤٧٧
حجة علىٰ من تركه واتبع المعاني اللغوية في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٧٧
حجة علىٰ من تركه واتبع القياس في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٧٨
حجة علىٰ من تركه واتبع شريعة من قبلنا: ٤٧٩
حجة علىٰ من تركه واتبع الرؤىٰ والأحلام والكرامات في معرفة الله ودينه ونبيه: ٤٨٠
حجة علىٰ من تركه واتبع الأولياء لمعرفة الله ودينه ونبيه: ٤٨٠
حجة علىٰ من تركه في التعرف علىٰ الغيب وطلب كشف الغيب لمعرفة الله

ودينه ونبيه عن طريق الرياضة والمجاهدة: ٤٨١
الخاتمة نسأل الله حسنها.....٤٨٣
الفهرس.....٤٨٤

***